

مطبوعات
أكاديمية المملكة المغربية

الأكاديمية

مجلة أكاديمية المملكة المغربية

عدد خاصّ بالموريسكيّين في المغرب

العدد 15

10- «المغرب في الدراسات الاستشراقية»، الندوة السادسة للجنة القيم الروحية والفكرية، 1413/1993.

11- «الترجمة العلمية»، الندوة الثالثة للجنة اللغة العربية.....

12- «مستقبل الهُوية المغربية أمام التحديات المعاصرة»، الندوة السابعة للجنة القيم الروحية والفكرية، تطوان 1417 / 1997.

5- سلسلة مجلة «الأكاديمية»

1- العدد الافتتاحي، وفيه وقائع افتتاح جلالة الملك الحسن الثاني للأكاديمية يوم الإثنين 5 جمادى الثانية عام 1400هـ، الموافق 21 أبريل 1980م.

2- «الأكاديمية» العدد الأول، فبراير 1984.

3- «الأكاديمية» العدد الثاني، فبراير 1985.

4- «الأكاديمية» العدد الثالث، نونبر 1986.

5- «الأكاديمية» العدد الرابع، نونبر 1987.

6- «الأكاديمية» العدد الخامس، دجنبر 1988.

7- «الأكاديمية» العدد السادس، دجنبر 1989.

8- «الأكاديمية» العدد السابع، دجنبر 1990.

9- «الأكاديمية» العدد الثامن، دجنبر 1991.

10- «الأكاديمية» العدد التاسع، دجنبر 1992.

11- «الأكاديمية» العدد العاشر، شتنبر 1993.

12- «الأكاديمية» العدد 11، دجنبر 1994.

13- «الأكاديمية» العدد 12، سنة 1995.

14- «الأكاديمية» العدد 13، سنة 1996.

15- «الأكاديمية» العدد 14، سنة 1997.

9- «مَعْلَمة المَلْحون»، تصنيف محمد الفاسي، الجزء الثاني، القسم الأول، «معجم لغة المَلْحون»، 1991.

10- «مَعْلَمة المَلْحون»، تصنيف محمد الفاسي، الجزء الثاني-القسم الثاني وفيه : «تراجم شعراء المَلْحون»، 1992.

11- «بغيات وتواشي الموسيقى الأندلسية المغربية »، تصنيف عز الدين بناني، 1995.

12- «إيقاد الشموع للذة المسموع بنغمات الطبوع »، لمحمد البوعصامي، تحقيق عبد العزيز بن عبد الجليل، 1995.

13- «معلمة الملحون، مائة قصيدة وقصيدة في مائة غانية وغانية »، تصنيف محمد الفاسي، 1997.

14- «رحلة ابن بطوطة »، خمسة أجزاء، قدّم له وحقّقه ووضع خرائطه وفهارسه عبد الهادي التازي، 1997.

3- سلسلة «المعاجم»:

1- «المعجم العربي-الأمازيغي» الجزءالأول، تأليف محمد شفيق، 1990.

2- «المعجم العربي-الأمازيغي» الجزء الثاني، تأليف محمد شفيق، 1996.

4- سلسلة «الندوات والمحاضرات» :

1- «فلسفة التشريع الإسلامي» الندوة الأولى للجنة القِيَم الروحية والفكرية.

2- «وقائع الجلسات العمومية الرسمية بمناسبة استقبال الأعضاء الجدد»، دجنبر1987 (من 1401هـ/1980 إلى 1407/1986).

3- «محاضرات الأكاديمية»، 1988(من 1403هـ/1983إلى1407/1987).

4- «الحرف العربي والتكنولوجيا»، الندوة الأولى للجنة اللغة العربية، فبراير 1408/ 1988.

5- «الشريعة والفقه والقانون»، الندوة الثانية للجنة القيم الروحية والفكرية 1409/1989.

6- «أسس العلاقات الدولية في الإسلام»، الندوة الثالثة للجنة القيم الروحية والفكرية 1409/1989.

7- «نظام الحقوق في الإسلام»، الندوة الرابعة للجنة القيم الروحية والفكرية، 1410/1990.

8- «الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية: الأخذ والعطاء»، الندوة الخامسة للجنة القيم الروحية والفكرية، 1412/1991.

9- «قضايا استعمال اللغة العربية»، الندوة الثانية للجنة اللغة العربية، 1414/1993.

الفهرس

20- «التراث الحضاري المشترك بين المغرب والأندلس»، أبريل 1992.

21- «أوروبا الإثنتي عشرة دولة والآخرون»، نونبر 1993.

22- «المعرفة والتكنولوجيا»، مايو 1993.

23- «الاحتمائية الاقتصادية وسياسة الهجرة»، دجنبر 1993.

24- «رؤساء الدول أمام حق تقرير المصير وواجب الحفاظ على الوحدة الوطنية والترابية»، أبريل 1994.

25- «الدول النامية بين المطلب الديموقراطي وبين الأولوية الاقتصادية»، نونبر 1994.

26- «أيُّ مستقبل لحوض البحر الأبيض المتوسط والاتحاد الأوروبي؟» مايو 1995

27- «حقوق الإنسان والتشغيل بين التنافسية والآلية»، أبريل 1996.

28- «وماذا لو أخفقت عملية السلام في الشرق الأوسط؟»، دجنبر 1996.

29- «العَوْلمة والهُوية»، ماي 1997.

30- «حقوق الإنسان والتصرُّف في الجينات»، نونبر 1997.

31- لماذا احترقت «النمور» الآسيوية؟ ماي 1998.

2- سلسلة «التراث»:

1- «الذيل والتكملة»، لابن عبد الملك المراكشي، السفر الثامن، جزءان، تحقيق محمد ابن شريفة، 1984.

2- «الماء وما ورد في شربه من الآداب»، تأليف محمود شكري الألوسي، تحقيق محمد بهجة الأثري، مارس 1985.

3- «مَعْلَمة الملْحون»، تصنيف محمد الفاسي، القسم الأول والقسم الثاني من الجزء الأول، أبريل 1986، أبريل 1987.

4- «ديوان ابن فَرْكون»، تقديم وتعليق محمد ابن شريفة، ماي 1987.

5- «عين الحياة في علم استنباط المياه» للدمنهوري، تقديم وتحقيق محمد بهجة الأثري 1409هـ/1989.

6- «مَعْلَمة الملْحون»، تصنيف محمد الفاسي، الجزء الثالث، «روائع الملْحون» 1990.

7- «عمدة الطبيب في معرفة النبات»، القسم الأول والقسم الثاني، لأبي الخير الإشبيلي، حققه وعلق عليه وأعاد ترتيبه محمد العربي الخطّابي، 1411/ 1990.

8- «كتاب التيسير في المداواة والتدبير»، لابن زهر، حقّقه وهيأه للطبع وعلق عليه محمد بن عبد الله الروداني، 1411/1991م.

البحوث

بسم الله الرحمان الرحيم

قررت لجنة التراث التابعة لأكاديمية المملكة المغربية تخصيص هذا العدد من مجلة الأكاديمية لدراسة موضوع الموريسكيين في المغرب.

وقد استكتبت اللجنة السادة الأساتذة الواردة أسماؤهم تحته ، فلبّوا الطلب مشكورين، وأرسلوا بحوثهم المثبتة في هذا السِّفر.

والمشاركون هم السادة الأساتذة عبد الوهاب بنمنصور، ومحمد بنشريفة، وعبد العزيز بنعبد الله، وهم أعضاء الأكاديمية، والسادة الأساتذة الحسين بوزينب الأستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ومحمد رزّوق الأستاذ بكلية الآداب بالدار البيضاء، وحسن الفِكيكي الأستاذ بجامعة ابن طفيل بالقنيطرة، وعبد العزيز شهْبَر الأستاذ بكلية الآداب بتطوان، والأستاذة الباحثة أمينة اللوهْ، وإسماعيل العثماني الأستاذ بجامعة أمسترْدام بهولندا.

والله ولي التوفيق.

مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية

1- سلسلة «الدورات»:

1- «القدس تاريخياً وفكرياً»، مارس 1981.

2- «الأزمات الروحية والفكرية في عالمنا المعاصر»، نونبر 1981.

3- «الماء والتغذية وتزايد السكان»، القسم الأول، أبريل 1982.

4- «الماء والتغذية وتزايد السكان »، القسم الثاني، نونبر 1982.

5- «الإمكانات الاقتصادية والسيادة الدبلوماسية »، أبريل 1983.

6- «الالتزامات الخُلُقية والسياسية في غزو الفضاء»، مارس 1984.

7- «حق الشعوب في تقرير مصيرها»، أكتوبر 1984.

8- «شروط التوفيق بين مدة الانتداب الرئاسي وبين الاستمرارية في السياسة الداخلية والخارجية في الأنظمة الديمقراطية »، أبريل 1985.

9- «حلقة وصل بين الشرق والغرب: أبو حامد الغزالي وموسى بن ميمون»، نونبر1985.

10- «القرصنة والقانون الأممي»، أبريل 1986.

11- «القضايا الخُلُقية الناجمة عن التحكم في تقنيات الإنجاب» ، نونبر 1986.

12- «التدابير التي ينبغي اتخاذها والوسائل اللازم تعبئتها في حالة وقوع حادثة نووية»يونيو 1987.

13- «خَصاص في الجنوب وحيرة في الشمال: تشخيص وعلاج»، أبريل 1988.

14- «الكوارث الطبيعية وآفة الجراد»: نونبر 1988.

15- «الجامعة والبحث العلمي والتنمية»: يونيو 1989.

16- «أوجه التشابه الواجب توافرها لتأسيس مجموعات إقليمية، دجنبر1989.

17- «ضرورة الإنسان الاقتصادي من أجل الإقلاع الاقتصادي لدول أوروبا الشرقية»، مايو 1990.

18- «اجتياح العراق للكويت ودور الأمم المتحدة الجديد»: أبريل 1991.

19- «هل يُعطي حق التدخل شرعية جديدة للاستعمار؟»، أكتوبر 1991.

افتتاحية العدد

محمد بنشريفة

لماذا هذا العدد حول الموريسكيين؟

ولماذا تخصيصه بالموريسكيين في المغرب؟

أما اختيار موضوع الموريسكيين فلأنه موضوع شغل عددا غير قليل من المؤرخين والباحثين قديما وحديثا. وقد ظلت قضية الموريسكيين ومحنتهم وطردهم تؤرق ذوي الضمائر الحية في كل مكان وزمان. وكانت سنة 1992 مناسبة لانبعاث الكلام حول محن الموريسكيين وإثارة قضيتهم. ومن أشهر ما ظهر في هذا كتاب Les Morisques et le racisme d'Etat (الموريسكيون وعنصرية الدولة) للمؤرخ والكاتب الإسباني رودريجو دي ثَياسْ Rodrigo de Zayas الذي نشر مقالا في العدد الأخير من الشهرية الفرنسية "Le Monde diplomatique" تحدث فيه عن طرد الموريسكيين من إسبانيا موضوع كتابه المذكور.

ولقد كان تراث الموريسكيين وأدبياتهم محل عناية كبيرة من لدن عدد من المتخصِّصين في مراكز ومعاهد وجامعات متعددة بأوروبا وأمريكا.

الأعضاء المراسلون

ريشار ب. ستون: و.م.الأمريكية شارل ستوكتون: و.م.الأمريكية

حاييم الزعفراني: المملكة المغربية.

***

أمين السر الدائم : عبد اللطيف بربيش.

أمين السر المساعد : إدريس الضحاك.

مدير الجلسات : عبد الوهاب بنمنصور

***

مدير الشؤون العلمية : أحمد رمزي

وإذا كان الدارسون في البلاد العربية قد عُنوا بتاريخ الأندلسيين وتراثهم فإنهم لم يقوموا بمثل ذلك فيما يتعلق بتاريخ الموريسكيين وتراثهم. ويبدو أن عدم معرفة اللغة التي كتب بها هذا التراث وهي المسماة بـ «الألخميادو» من أسباب ذلك النسيان والإهمال.

وقد اتجه بعض الدارسين عندنا حديثاً إلى تدارك هذا النقص وسدّ هذا الفراغ، ومنهم الأستاذ الحسين بوزينب، الأستاذ بكلية الآداب بالرباط، وكذلك الأستاذ محمد رزّوق الأستاذ بكلية الآداب بالدار البيضاء.

وقد أنشئ في السنين الأخيرة مركز للدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية بزغوان في تونس بهمّة صديقنا الأستاذ عبد الجليل التميمي وتظم ندوات حول موضوع الموريسكيين ونشر بعض الأعمال المؤلفة أو المترجمة في الموضوع نفسه. وكان المستعرب الإسباني ميخيل إبالثا الذي أقام مدة في تونس قد نشر عددا من البحوث والنصوص حول الموريسكيين في تونس.

ولهذا وغيره فكّرنا في تخصيص هذا العدد للموريسكيين. وقد شعرنا ونحن نتدارس هذا الموضوع في «لجنة التراث» التابعة لأكاديمية المملكة المغربية بالاحتياج الشديد إلى أن يكون خاصاً بالموريسكيين في المغرب لأنهم لم يُدرسوا بعد دراسة كافية ووافية. ولأننا نرجو ونأمل أن يكشف هذا العدد عن جوانب خفية من الموضوع، كما أننا نرجو ونأمل أن يكون وسيلة إلى إظهار الوثائق المخزونة لدى بعض العائلات والبيوتات، من أجل تصويرها للاستفادة منها، ولأن في تصويرها حفظا لها من الضياع، فعسى أن نرى هذا يحصل في الأيام القادمة إن شاء الله.

أكاديمية المملكة المغربية

شارع الإمام مالك، كلم 11، ص. ب. 5062

الرمز البريدي 10.100

الرباط – المملكة المغربية

تليفون: 13-51-75 / 75.51.24

35-51-75 / 89-51-75

فاكس: 75.51.01

الإيداع القانوني : 1982/29

I.S.S.N : 0851-1381

مطبعة المعارف الجديدة - الرباط

المغرب مهاجَر الأندلسيِّين



محمد بنشريفة

من المعروف أن الهجرات بين العُدْوتين طبعت تاريخهما قبل الإسلام وبعده، وكانت العُدْوتان تتناوبان على عملية الجذب والطرد المعروفة في الاصطلاح الجغرافي. فكانت الأندلس أرض جذب تارة وتارة أخرى يكون المغرب هو أرض الجذب.

وكان هذا خاضعا لنواميس الجذب والطرد المختلفة والمتطورة حسب العصور، وما سأتناوله في هذا المدخل العام إنما هو رصد لبعض الهجرات الأندلسية مع الإشارة إلى بعض ظروفها.

وقد ظهرت الهجرات من الأندلس إلى المغرب في وقت مبكر، ولعل أقدمها تلك التي كانت في سنة ١٣١هـ بسبب الفتنة والمجاعة، وقد تحدث عنها صاحب الأخبار المجموعة، وجاء في آخر كلامه ما نصه :

«فخرج أهل الأندلس إلى طنجة وأصيلا وريف البربر مجتازين ومرتحلين. وكانت إجازتهم من وادٍ بكورة شذونة يقال له وادي برباط، فتلك السنون تُسمَّى سِني بَرْباط، فخف سكان الأندلس وكاد أن يغلب عليهم

العدوة». وهذه الهجرة الكبيرة المبكرة التي حصلت في عهد الولاة كانت لها آثار سلبية على الوجود الإسلامي بالأندلس، ولكن ربما كانت لها آثار إيجابية على عمران الشمال وتعريبه.

ومن الهجرات الأندلسية التي كان لها دور بارز في عمران المغرب وحضارته هجرة الرَّبضيِّين المشهورة، فقد كانت ذات أثر ما يزال باقيا في مدينة فاس حاضرة المغرب الأولى. وحول هذه الهجرة يقول ابن أبي زرع: «وأما أهل الأندلس بقرطبة حين أوقع بهم الإمام الحكم بن هشام وأجلاهم عن الأندلس إلى العَدْوة فصعدوا إلى مدينة فاس وكانوا ثمانية آلاف بيت فنزلوا عدوة الأندلس وشرعوا بها في البناء يمينا وشمالا إلى ناحية الكدان ومصمودة وفوارة وحارة البادية والكنيف إلى الرميلة فسُمِّيت عُدْوة الأندلس» . وقد كان تأسيس هذه العدوة في سنة 192هـ. وفي السنة التي بعدها تأسست عدوة القرويين، وما تزال هاتان العدوتان هما أساس مدينة فاس التاريخية.

وإذا كانت أكبر جماعة من الربضيِّين القُرْطبيين استقرت - كما رأينا - بمدينة فاس فإن أعدادا أخرى منهم نزلوا بجهات مختلفة في المغرب، يقول البكري عند الكلام على موضع يعرف بأُوزقُور «كان يسكنه قوم يعرفون ببني موسى من ربضية الأندلس فاستغاثوا إلى من جاورهم وأساءوا عشرتهم فحاربوهم فغُلِبَ الأندلسيون وقتل منهم كثير، وافترق باقيهم ببلاد أغْمات، وبقي منهم بأُوزقُور نفر يسيرٌ بالأمان فَهُم بها إلى اليوم».

ويقول في الحديث عن مدينة كانت تعرف بأغيغي : «ومن ورزيغة إلى مدينة أغيغي، ومعنى أغيغي : حجارة يابسة لأنها مبنية بالحجر بغير طين

وهي اليوم خالية، وكان القوم الذين بنوها وسكنوها من ربضية الأندلس أيضا، أجلاهم البربر عنها إلى وليلي فهم بها بقية يسيرة».

وقد تحدث ابن غازي في «الروض الهتون» خلال حديثه عن حوائر أو حارات مكناس عن موقع آخر نزل به الأندلسيون فقال: «وهنالك قرية كان يقال لها قرية الأندلس كانت من عمل بني زياد سكنها على قديم الزمان قوم أندلسيون وتناسلوا بها وأقاموا دهراً لم تتغير ألسنتهم ولا أشكالهم إلاّ من كان منهم كثير الامتزاج بأهل البلد فإنه تغيّر لسانه».

ونحسب أن الهجرات الأندلسية إلى المغرب زادت خلال النفوذ الأموي بالمغرب في عهد عبد الرحمن الناصر والحكَم المستنصر ثم في عهد الحاجب المنصور بن أبي عامر إذ كان أصحاب الخطط المختلفة يرجهون من الأندلس إلى فاس وغيرها.

والواقع أن الهجرات خلال حقبتي الخلافة والحجابة كانت متبادلة، فالأندلس توجه الأطر الإدارية وغيرها إلى المغرب أو المغرب يزوّد الأندلس بالفرسان الذين كانوا كما وصفهم بعضهم «محل الملح في الطعام ببأسهم الشديد، وقاموا مقام الفولاذ في الحديد، لا يُقاتل الأعداء إلا بهم، ولاتحمى الأرض إلاّ في جوارهم». وقد أدرك هؤلاء الفرسان مكانة كبيرة وحظوة خاصة في عهد المنصور ابن أبي عامر وبلغت هذه الحظوة غايتها لدى آخرالعامريين الذي قرّر تغيير شعار الجيش واستبدال القلانس شعار الأندلسيين بالعمائم شعارالمغاربة، وأدّى هذا وغيره إلى نشوب فتنة من أخطر الفتن التي وقعت بين الأندلسيين والمغاربة في الأندلس، وهي التي سمّاها الأندلسيون بالفتنة البربرية، وكان من نتائجها ظهور ممالك يحكم

بعضها أسر عربية ويحكم بعضها أسر بربرية ويحكم بعضها الآخر أسر صقلبيّة وانتهت هذه الأمر بدخول المرابطين إلى الأندلس واندماجها في المغرب. وقد استمر هذا الاندماج ثلاثة قرون تقريبا كثر فيها تنقل الناس بين الأندلس والمغرب لأسباب إدارية وتجارية وعلمية وعائلية وغيرها.

وقد عرفت هذه القرون الثلاثة التي هي الخامس والسادس والسابع للهجرة انتقال عدد كبير من الأندلسيين زرافات ووحدانا إلى جهات مختلفة من المغرب. ووجدناهم يتجاوزون شمال المغرب القريب منهم إلى الجنوب كأغمات ومراكش التي اجتذبت عدداً كبيراً من أعلام الأندلس على عهد الموحدين. وإنّ من يتصفح كتب التراجم كالتّكملة لابن الأبّار والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي وصلة الصّلة لابن الزبير يجد أن عدداً كبيرا جداً من أعلام الأندلس هاجروا من بلدانهم إلى بلدان المغرب كسبتة وطنجة والقصر الكبير والرباط وسلا وفاس ومراكش وغيرها. وقد كانت أسباب هذه الهجرات متعددة. ومنها ماكان اختياريا. ومنها ماكان اضطراريا. وأقصد بالهجرات الاضطرارية تلك التي أُجبرَ أهلها على ترك ديارهم وأموالهم بعد أن استولى النصارى على بلدانهم فجلُوا عنها. ومن أمثلة هذه الهجرات الاضطرارية هجرة أهل شرق الأندلس الذين لجأوا إلى المغرب بعد سقوط بلدانهم في أيدي المسيحيين. وقد وصل هؤلاء اللاجئون من أهل بلنْسية وشقر وشاطبة وسائر بلاد الشرق الأندلسي في سنة 637 هـ إلى سبتة فكتبَ واليها يومئذ وهو ابن خلاص البَلَنْسي إلى الخليفة الرشيد الموحّدي يخبره بوصولهم ويستعطفه في شأنهم فأنعم عليهم بظهير يخوّلهم بموجبه سكنى رباط الفتح وتعميرها. وقد وصل إلينا هذا الظهير الذي حرّره الكاتب المعروف أبو المطرّف أحمد بن عميرة. وينص هذا الظهير على

أن الخليفة الرشيد بعد المساعي التي قام بها لديه ذو الوزارتين أبو علي ابن خلاص قرّر أن يأذن لهؤلاء اللاجئين من أهل بلنسية وجزيرة شقر وشاطبة ومن جرى من سائر بلاد الشرق مجراهم في الانتقال إلى رباط الفتح بغضبتهم وقضّهم، وأن يتخذوا مساكنه وأرضه بدلاً من مساكنهم وأرضهم، ويعمروا منه بلداً يقبل منهم أولى من قبل، ويحملهم إن شاء الله وخير البلاد ما حمل. وقد وصف الظهير مدينة الرباط بأنها «مناخ التاجر والفلاّح، وملتقى الحادي والملاّح، والمرافق من برّه وبحره موجودة في فصول السنة، مؤذنة لقاطنه بالعيشة الهنية والحال الحسنة». وقد أعطاهم هذا الظهير كامل الحق في أن يتوسعوا في الحرث ويتبسّطوا في مختلف وجوه المعاش «ويغرسوا الكروم وأنواع الشجر على عادتهم ببلادهم، ويتأثلوا الأملاك لأنفسهم وأولادهم وأولاد أولادهم». وتعهد لهم الظهير أيضا بحمايتهم والدّفاع عن حوزتهم وأمر الولاة والعمال «بأن يحفظوهم من كلّ أذىً يُلمّ بجانب من جوانبهم، أو يعوق عن مأرب صغير أو كبير من مآربهم، وأن يكرموا غاية الإكرام نبيها هم وأعيانهم، ويولوهم من حسن الجوار ما ينسيهم أوطانهم، حتى تدفع عنهم كل شبهة من شبه الحيف، ويجمع لهم بين الرّعاية لحرمة البلدي والعناية بحق الضعيف».

إن هذا الظهير الذي ظهر خلال بحثنا عن أبي المطرف ابن عميرة يعتبر وثيقة قيمة من حيث إنها تدلنا على أقدم جالية أندلسية استوطنت مدينة الرباط إذ أن الذين أرّخوا لهذه المدينة اقتصروا على ذكر الجالية التي نزحت إليها سنة 1017 هجرية (1609 ميلادية) إثر القرار الذي أصدره فيليبي الثالث بطرد الموريسكيين. أما هذه الجالية التي يحدثنا عنها هذا الظهير فلم يشر إليها مؤرخو الرباط، ومنهم الفقيه ابن علي الدكالي في «الإتحاف الوجيز»

والفقيه الصايغ في «سوق القهر» والفقيه بوجُنْدار في مقدمة «الفتح» و«كاين» في «تاريخ الرباط».

على أن الرباط وسلا عرفتا قبل هذه الجالية مرور أوحلول بعض الأعلام والعائلات من الأندلس منذ عهد عبد المؤمن ومنها عائلة ابن وجّاد الإشبيلية التي ورد ذكرها في «المنّ بالامامة» لابن صاحب الصلاة، ولمّا سقطت قرطبة في سنة 633هـ وإشبيلية في سنة 646 هـ لجأ عدد من النازحين عنهما إلى المغرب، ومن أهل إشبيلية الذين نزلوا بسبتة أبو الحسن ابن أبي الربيع النحوي الكبير وابن سهل الإسرائيلي الشاعر الشهير وغيرهما. وقد ظلت الهجرة إلى المغرب سارية في العهد النصري، وكانت مدينة فاس مقصد المهاجرين خلال هذه الحقبة. وفي الوقت الذي كان بعض الأندلسيين يؤثرون الاستقرار بالمغرب على البقاء في مملكة غرناطة المهدّدة، كانت هذه تغص بالغزاة من بني مرين والمتطوّعين من القبائل الغمارية.

ولما استسلم أبو عبد الله ابن الأحمر آخر النصريّين وسلّم مفاتيح غرناطة إلى الملكيْن الكاثوليكيين (25 نونبر 1491 / 21 محرم 897هـ) لجأ هو وحاشيته وأتباعه إلى مدينة فاس، وقد كلف كاتبه محمد بن عبد الله العربي العقيلي أن يُنشئ رسالة يقدمها بين يدي وفادته على سلطان فاس محمد الشيخ الوطّاسي، وقد كانت هذه الرسالة البليغة موضوع البحث الممتع الذي قدمه الاستاذ الجليل مؤرخ المملكة السيد عبد الوهاب بن منصور في الندوة التي عقدتها الأكاديمية في مدينة غرناطة وهو منشور في مجلة الأكاديمية.

وخرج بعده عدد من مدن الأندلس وقراها التي أصبحت تحت حكم النصارى، وقصد أهل كل بلد من الجالين جهة معينة في المغرب. وقد ترك لنا مؤرخ مجهول تفصيلا مفيدا في هذا نأتي به مع بعض الاختصار. قال: «خرج من بقي من أهل مالقة إلى بادس، وخرج أهل الجزيرة الخضراء إلى طنجة، وخرج أهل رندة وبسطة إلى تطوان وأحوازها. وخرج أهل سبتة إلى بلاد الريف، وخرج أهل لوشة وقرية الفخار والبعض من غرناطة وأهل مرشانة وأهل البُشرة إلى قبيلة غمارة، وخرج أهل بيرة وبرجة وأندراش إلى مابين طنجة وتطوان ثم انتقل البعض منهم إلى قبيلة بني سعيد من قبائل غمارة وخرج أهل مربلة إلى مدينة أزيلة وماقرب منها ثم خرج أهل مدينة بلش وشبطة إلى مدينة سلا وخرج أهل طريفة إلى آسفي».

ونستنتج من هذه الأخبار أن معظم الجالين عن الأندلس في هذه الحقبة التي هي آخر القرن التاسع الهجري نزلوا في مواطن تقع على السواحل القريبة من بلدانهم بحيث إنهم كانوا يستطيعون رؤية السواحل الأندلسية في بعض الأحيان. ويبدو أنهم أطلقوا أسماء بلدانهم على المواقع والمداشر التي نزلوا بها مثل مَرْتيل والمنكّب وغير ذلك.

ولعلهم اختاروا هذه الجهات أيضا لشبهها بالجهات التي نزحوا منها علاوة على قربها. وربما يعود ذلك أيضا إلى تقارب في العادات بسبب التجاور والتواصل بين الضفتين، والواقع أنه لا توجد بين أيدينا أخبار تذكر عن ظروف استقرار هؤلاء النازحين إلا ماكان من بعض الإشارات الدالة على سوء الأحوال الاقتصادية. ويبدو أن هؤلاء النازحين المنكوبين تمكنوا رغم تلك الظروف الصعبة من لمّ شملهم وجمع شتاتهم، والتفّ عدد منهم حول بعض زعمائهم وقادتهم الذين دعَوْهُم إلى استئناف الجهاد كأبي الحسن المنظري وغيره.

من الهجرة إلى التهجير

عبد الوهاب بنمنصور

١ ـ الهجرة

لكأنما كان طارق بن زياد يتوقع النهاية من البداية، فعندما عبر البحر من سبتة يوم الاثنين ٥ رجب عام ٩٢ هـ (27 أبريل سنة 711م) على رأس الجيش الإسلامي ونزل بالبقعة الصخرية المواجهة التي صارت تسمّى باسمه منذ ذلك الوقت، أعني جبل طارق[1]، ثمّ وقف يخاطب جنوده ويحضّهم على الصبر والمصابرة والثبات قبل خوض غمار المعركة الحاسمة كان مما وردَ في بداية خطابه العبارة التالية التي تعبّرُ عما ينتظرهم وينتظر المسلمين من بعدهم في الجزيرة الأندلسية من مخاوف ومحاذير قد تجعل استقرارهم السريع فيها أمراً متعذّراً، وهي قوله :

« أيّها الناس، أين المفرّ ؟ البحرُ منْ ورائكم، والعدوُّ أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر. واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيعُ من الأيتام في مأدبة اللئام ... ! ».

وقد دلّت الأحداثُ التي تلت الصدر الأول للفتح الإسلامي على أن طارقاً كان على صواب فيما تخيّل وتوقّع، فإنّه لم تكد تمرّ على الوجود الإسلامي في الأندلس إلا أقلّ من ثلاثة قرون حتى بدأت قواعدها الإسلامية تسقط في

ي تباعاً كحبات عقد تقطع سلكه من طرفيه، بدء من طليطلة التي استولوا عليها عام478هـ (1085م) والتي قال أحدُ الشعراء الأندلسيين بعد سقوطها في أيديهم يحثّ مسلمي الجزيرة كافّة على الاستعداد للرحيل عنها كلّها ليلاً يصبحوا عبيداً ويرتدّوا كفاراً :

يا أهل أندلسٍ شُدُّوا رحالكم
فما المقام بها إلا من الغلط
الثوبُ يُنْسَل من أطرافه وأرى
ثوبَ الجزيرةِ منسولاً من الوسطِ
من جاورَ الشرّ لم يأمن بوائقه
كيف الحياةُ مع الحياتِ في سفطِ؟

ولئن أنعش انتصار الجيش المغربي في معركتي الزلاّقة (479هـ ـ 1086م) والأرك (593هـ ـ 1195م) نفوسَ الأندلسيين وأعاد إليها الثقة والأمل فإنّه لم يوقف النزيف ولم يحل دون مواصلة النصارى استيلاءهم على الحواضر والبوادي الإسلامية شرقاً وغرباً، وهجرةِ أهلها منها أو بقاء من بقي منهم فيها تحت ذلِّ العبودية والإغراء بالتنصير، حتى إذا انهزم الجيش المغربي في معركة العقاب عام 609هـ (1212م) صار واضحاً أن دولة الإسلام في الأندلس سائرة إلى زوال، وقد عبّر عن ذلك كُتّابها وشعراؤها فيما أنشأوا من رسائل وكتبوا من كتب ونظموا من أشعار، كقول إبراهيم ابن الدباغ من قصيدة معلقاً على تلك المعركة :

وقائلــة أراك تُطيـل فكـــراً
كأنـك قد وقفت لدى الحســاب
فقلتُ لها أفكـــرُ في عقــاب
غـــدا سببـاً لمعركـة العقــاب
فما في أرض أنـدلـس مُقـــامٌ
وقـد دخل البـلا من كـلّ بـــاب

فبعد تلك المعركة المشؤومة بأقلّ من أربعين سنة فقط سقطت أهمّ قواعد الأندلس الإسلامية في أيدي المسيحيين كقرطبة (633هـ - 1236م) وبلنسية (636هـ - 1238م) وإشبيلية (646هـ - 1248م) ومئات أخرى من المدن والقرى والحصون، وصار من ثبت من أهلها على الإسلام ولم يرض بالبقاء تحت الكفر يتراجع إلى البقعة الضيقة التي بقيت تحت حكم المسلمين أو يجلو بدافع اليأس عن الأندلس كلّها ويرحل إلى برّ العدوة الجنوبية (بلاد المغرب العربي) رغبة في الأمان والاطمئنان على الدين والعرض والمال. وكان في هؤلاء المهاجرين فقهاء مقتدرون وعلماء مبرّزون وشعراء مجيدون، كالمؤرخ الشهير، والأديب الكبير، محمد ابن الأبّار القضاعي الذي التجأ إلى تونس وقدم بين يديه قصيدة مؤثرة يستنجد فيها لأهل الأندلس بالسلطان أبي زكرياء الحفصي ورد في أولها :

... ـيل الله أندلسا ✧ إن السبيل إلى منجاتها درسا
... النصر ما التمست ✧ فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
وحاش مما تعانيه حشاشتها ✧ فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جزرا ✧ للحادثات وأمسى جدها تعسا
في كل شارقة إلمام بائقة ✧ يعود مأتمها عند العدا عرسا
وكل غاربة إجحاف نائبة ✧ تثني الأمان حذارا والسرور أسى
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم ✧ إلا عقائلها المحجوبة الأنسا
وفي بلنسية منها وقرطبة ✧ ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا
مدائن حلها الإشراك مبتسما ✧ جذلان وارتحل الإسلام مبتئسا
وصيرتها العوادي العابثات بها ✧ يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا[2]

وتواصل مدّ المسيحيين واكتساحهم لما بقي للمسلمين من أرض لا يستريحون ولا يتوقفون. وساعدهم على انتقالهم من نصر إلى نصر انقسام الخلافة الموحدية ـ التي كانت تضطلع بالدفاع عن مسلمي الأندلس ـ إلى ممالك وإمارات متخالفة متقاتلة. وتنازع الزعماء والأمراء في الأندلس على حكمها، واستعانة بعضهم على بعض بالنصارى مقابل التنازل لهم عن مدن وقرى وحصون. وضعف المدد الوارد عليهم من المغرب وتوجّسهم أحياناً خيفة منه. ورغم ما بذل سلاطين بني مرين من جهد مرة تلو أخرى لإنجاد مسلمي الأندلس وشدّ أعضادهم بتسريب المقاتلين والأسلحة والأموال والأقوات إليهم وإقامة حاميات من «الغزاة» بثغورهم المحاذية لأرض النصارى فإن الأمل في مواصلة دعم المغرب لهم تلاشى بل انقطع بعد انهزام السلطان أبي الحسن المريني وجيشه المغربي في معركة طريف التي جرت عام 741هـ (1340م)، وصار مسلمو الجزيرة منذ ذلك التاريخ أضيع من الأيتام في

مأدبة اللئام، وتركوا لحالهم : أرضهم تنقص كلّ سنة من الأطراف، وأمراؤها يتنازعون على الحكم مُحتمين أحياناً بملوك النصارى مؤدين الجزية لهم كيهود الذمة، وأهلها يجلون عنها أو يرضون بالتدجين وقبول التنصير متحملين صنوف الأذى وضروب العذاب إلى أن وقعت الواقعة المؤلمة في اليوم الثاني لشهر ربيع الأول عام 897هـ - 2 يناير سنة 1492م يوم احتلّ الملكان الكاثوليكيان فرديناندو الخامس وزوجه الدونيا إيسابيلا مدينة غرناطة عاصمة ملك بني الأحمر وآخر معقل إسلامي بالأندلس، وخرج آخر ملوكها أبو عبد الله أمتعته وشدّ رحاله وغادر قصره بالحمراء يرسف في ثياب الخزي والهوان.

ويجمل بي في ختام شطر الهجرة من هذا الخطاب أن أذكر أبياتاً من نونية أبي البقاء صالح بن شريف الرندي التي رثى فيها بعض الحواضر الأندلسية ووصف ما حلّ بأهلها من نصب وعذاب واستنهض همم المسلمين من وراء البحر لإنقاذهم وإنقاذها، وهي :

لكل شيء إذا ما تمّ نقصانُ ❊ فلا يغرّ بطيب العيش إنسانُ
هي الأمورُ - كما شاهدتها - دولٌ ❊ مَن سرّهُ زمنٌ ساءته أزمانُ
وهذه الدارُ لا تُبقي على أحدٍ ❊ ولا يدومُ على حالٍ لها شانُ

دهى الجزيرةَ أمرٌ لا عزاءَ له ❊ هوى له أُحُدٌ وانهدّ ثهلانُ
أصابها العينُ في الإسلام فامتُحنتْ ❊ حتى خلتْ منه أقطارٌ وبلدانُ
فاسألْ بلنسيةً ما شأنُ مُرسيةٍ ❊ وأين شاطبةٌ أم أين جيّانُ

وأين قرطبة دار العلوم فكم ✽ من عالم قد سما فيها له شانْ
وأين حمص وما تحويه من نزه ✽ ونهرها العذب فياض وملآنْ
قواعد كنّ أركان البلاد فما ✽ عسى البقاء إذا لم تبق أركانْ

يا من لذلة قوم بعد عزهم ✽ أحال حالهم كفر وطغيانْ
بالأمس كانوا ملوكا في منازلهم ✽ واليوم هم في بلاد الكفر عبدانْ
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم ✽ عليهم من ثياب الذل ألوانْ
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم ✽ لهالك الأمر واستهوتك أحزانْ
يا رب أمّ وطفل حيل بينهما ✽ كما تفرق أرواح وأبدانْ
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت ✽ كأنما هي ياقوت ومرجانْ
يقودها العلج للمكروه مكرهة ✽ والعين باكية والقلب حيرانْ
لمثل هذا يذوب القلب من كمد ✽ إن كان في القلب إسلام وإيمانْ[1]

2. التهجير

بعد مفاوضات طويلة ومعقدة تمّ بالمعسكر الملكي بمرج غرناطة يوم 25 نونبر سنة 1491م (21 محرم عام 897هـ) التّوقيع على اتّفاق يسلّم بمقتضاه أبو عبد الله ابن الأحمر آخر سلاطين بني نصر مدينة غرناطة إلى ملكي قشتالة الكاثوليكيّين فرديناندو الخامس وزوجه الدّونيا إيسابيلا.

وقد تضمّن الاتفاق البالغة فصوله ستة وخمسين عدداً من الشروط، منها ما يتعلق بتسليم المدينة وصيرورة أهلها المسلمين رعايا لصاحبي

الجلالة الكاثوليكية، ومنها ما يتعلّق بضمان حقوق المسلمين المادّيّة واحترام دياناتهم وصيانة مساجدهم ومدارسهم وأحباسها، ومنها شروط تفتح الباب أمام هجرتهم إلى المغرب أو إلى أيّ جهة أخرى خارج إسبانيا، فالمادّتان السادسة والسابعة تنصّان على أنّه يحقّ لمن يريد من المسلمين العبور إلى المغرب أنْ يبيع أملاكه بغرناطة لمن شاء، أو يوكّل غيره لإدارتها واقتضاء ريعها حيثما كان، وأنْ يحمل معه ماله ومتاعه وحليه من الذّهب والفضة، والتزام الملكين بإعداد عشرة سفن خلال ستّين يوماً لنقل من يريد الانتقال لي المغرب مع بقاء السفن ثلاثة أعوام تحت طلب الراغبين في الهجرة دون أداء مغرم أو أجر، وأنه يحقّ العبور لمن شاء بعد مضيّ السنين الثلاث مقابل دفع مبلغ زهيد، كما يحقّ لمن جاز إلى المغرب خلالها أن يعود إلى الأندلس ويتمتع بالفوائد التي ضمنها الميثاق لمن بقي بالأندلس ولم يهاجر، وينصّ الميثاق أيضاً على أنّه يحقّ للمسلم الذي عبر إلى المغرب أو عاد منه أن يبيع ويشتري باسماً على تجارته، وأن لا يدفع من الضرائب إلا نظير ما يدفعه النصارى، وأن تعطى الضمانات للسفن المغربية الراسية في سواحل غرناطة شريطة أن لا تحمل على متنها أيّ أسير نصراني إلخ إلخ[14].

وفي نفس اليوم الذي وقع فيه اتّفاق الاستسلام والتّسليم وفي نفس المكان أيضاً وقع التوقيع على ملحق سريّ تضمّن عديداً من الحقوق والامتيازات التي يمنحها الملكان الكاثوليكيّان للملك البئيس أبي عبد الله ابن الأحمر وأسرته وحشمه وخدمه، وهي امتيازات وحقوق لا تعدو أن تكون رشوة أو مكافأة لهم جزاء ما سيسهلون على الملكين من عملية تسليم البروج والقصور وفتح الأبواب وإقناع الرعايا المسلمين بالخضوع لراعييهم الجديدين دون مقاومة وإراقة دماء، ومن جملة هذه الحقوق والامتيازات

الممنوحة لأبي عبد الله ابن الأحمر وحاشيته حقهم في العبور إلى المغرب على متن سفينتين يعدّهما الملكان الكاثوليكيّان لحملهم مع أمتعتهم وأسلحتهم ودوابّهم دون أداء أيّ أجر أو نفقة، وحقهم في توكيل من شاؤوا لإدارة الأملاك التي لم يتمكّنوا من بيعها وقبض ريعها وإرساله إليهم حيثما وجدوا دون أداء أيّ مغرم، وأن يرسل أبو عبد الله ابن الأحمر إلى المغرب من شاء بسلع وغيرها من إيراداته دون أداء أيّ مغرم أيضاً.

وهكذا نرى قضية الهجرة إلى المغرب والمغريات بها تبرز بوضوح من البداية في اتفاق التسليم العامّ وملحقها السرّي الخاصّ بالسلطان أبي عبد الله النصري وأسرته وحاشيته.

ومع أنّ الاتفاق ذيّل بأسطر تؤكد أنّ الملكين الكاثوليكيّين يضمنان بديتهما وشرفهما الملكي تنفيذ كلّ ما تضمنه من شروط، كما ذيل مرة أخرى يوم 30 دجنبر سنة 1492م، أي بعد مرور عام على تسليم غرناطة، بتوكيد جديد يأمر فيه الملكان ولدهما وسائر عظماء المملكة بالمحافظة على محتوياته حاضراً ومستقبلاً، وأنّ هذا التوكيد ذيّل بتوقيع الملكين وولدهما وتواقيع عدد كبير من الأمراء والرهبان والأشراف والعظماء، مع كلّ ذلك فإنّ تلك المواثيق والعهود لم تكن إلا غطاء للغدر والخيانة لم يتردّد بعض المؤرخين الأمريكيّين في وصفها بأنّها أفضل مادّة لتقدير مدى الغدر الإسباني فيما تلا من عصور.

وكانت البداية، بداية إخلاف الوعود، ونقض المواثيق والعهود، مع السلطان أبي عبد الله ابن الأحمر نفسه، إذ لم يكد يمرّ عام على انتقاله إلى أندرش واستقراره مع أهله وحاشيته بها حتى بدأت المكايد تحاك والمساعي

تتواصل لإبعاده عن الأراضي القشتاليّة وانتقاله إلى المغرب للإقامة الدائمة فيه، ودارت لأجل ذلك مفاوضات انتهت ببيعه أملاكه وضياعه وعبوره البحر في أوائل شهر أكتوبر سنة 1493 مع ألف ومئة وثلاثين شخصاً من أهله وحاشيته إلى المغرب حيث نزل في بلدة غساسة الصنهاجية غرباً لمدينة مليلية بساحل الريف، أو بمدينة مليلية نفسها ومنها انتقل لسكنى فاس[5] مقدّماً بين يديه رسالة اعتذار إلى السلطان محمد الشيخ الوطاسي من إنشاء وزيره وكاتبه محمد بن عبد الله العربي العقيلي سمّاها «الروض العاطر الأنفاس في التوسّل إلى المولى الإمام سلطان فاس»[6].

وبدأت إرهاصات تظهر في الأفق بعد رحيله وتوالي منذرة بقرب هبوب العاصفة التي تجتثّ آثار الإسلام في الجزيرة الأندلسية وتكره مسلميها الباقين بها على اعتناق دين النّصارى أو الرحيل عنها، وصاحب ذلك في الأول إغراء وإطماع تحولا فيما بعد إلى بطش وإرهاق وتنكيل وتعذيب بلغ حدّ القتل والحرق، وتولى كبر ذلك أحبار الكنيسة ورهبانها الذين اشتهر منهم الكاردينال خمنيس دي سيسنيروس مطران طليطلة والدون ديكو ديسا أسقف جيان والمحقّق العامّ لديوان التحقيق.

وديوان التّحقيق هذا الذي اشتهر في الكتب العربية الحديثة بديوان التفتيش أو محاكم التفتيش هو مؤسسة حكومية دينية أنشئت في قشتالة بمرسوم بابوي صدر في شهر نونبر سنة 1478م لمطاردة الكفر ومحاكمة المارقين، ثمّ اتّخذت التدابير اللازمة لتطبيقه في شهر شتنبر سنة 1480م فأنشئت محكمة التحقيق الأولى بإشبيلية وعيّن المحقّقون الثلاثة الأول الذين بدأوا أعمالهم الفظيعة ضدّ مسلمي قشتالة كلّها، وبعد سبع سنوات فقط من

استسلام غرناطة أعاد تنظيمه ووسّع آفاق عمله نفس الملك فرديناندو الخامس الذي أمضى اتفاق التسليم وأقسم بدينه المسيحي وشرفه الملكي على تنفيذ كلّ ما ورد فيه من شروط تحفظ حقوق المسلمين المدنية وتوجب الاحترام لدينهم ومساجدهم ومدارسهم وأوقافهم، وتقرّهم على الاحتكام إلى قضاتهم والتوارث حسب أحكام شريعتهم. فهو الذي استدعى مطران طليطلة خمنيس دي سيسنيروس إلى غرناطة حيث وضع هو وأسقفها الدون هرناندو دي تالافيرا في شهر يوليوز سنة 1499م خطّة لتنصير المسلمين واستعمال كلّ وسيلة طوعية أو كرهية لتحقيق ذلك. ومنذ ذلك التاريخ كشف الملك وولاته الخمار الذي كان يغطي وجه غشّهم وخداعهم وخياناتهم، وأبدوا ما كانوا يحقدون في صدورهم من حقد وغلّ للإسلام والمسلمين. فأنشأوا أحياء عالية الأسوار خاصّة لسكنى المسلمين يسمّى الواحد منها موريريا (MORERIA)، وحوّلوا المساجد إلى كنائس وأثبتوا الصلبان بمحاريبها والنواقيس بمآذنها، وألزموا الأمراء والأشراف والفقهاء والأعيان كلمة التثليث والتسمّي بأسماء أعجمية، وجمعوا كتب الدين واللغة والآداب التي قدّرت بمئات الآلاف وأحرقوها في ساحات عمومية وأيام حافلة مشهودة، وأوجبوا تزويج البنات المسلمات بأولاد النصارى، ومنعوا على المسلمين التزاور وحمل السلاح والنطق بالعربية، وفرضوا عليهم حضور القسّيسين عند احتضار مرضاهم ودفن موتاهم، واستعملوا كلّ قسوة لإذلالهم وإهانتهم، فتنصّر منهم من تنصّر ظاهراً، أو ظاهراً وباطناً معاً، وسعى آخرون للهجرة إلى خارج الجزيرة الأندلسية محافظة على دينهم وفراراً من ذلك الجحيم.

وكان مسلمو الأندلس وهم يعانون محنتهم الشديدة، ويكابدون نكبتهم ...ون عن استصراخ ملوك المسلمين وحكامهم بالمغرب ومصر ...عثمانية التي ظهرت كقوّة مخيفة في البلقان والبحر المتوسط،

ويسربون إليهم رسائل الاستنجاد وقصائده سراً. كما كان لما حلّ بهم أصداء حزن وأسف وأسى في نفوس المسلمين كافة سيما في البلاد المغربية التي ترى سواحل الأندلس وجبالها من سواحلها وجبالها رأي العين. فنظم شعراؤها وزجالوها قصائد وأزجالاً في رثاء الإسلام بالأندلس والبكاء على ما حلّ بالمسلمين فيها. فمن ذلك قصيدة أحمد بن محمد الصنهاجي الشهير بالدقون[7] التي أولها:

أمنت من عكس آمال وأحوال ❖ وعشت ما بين أعصار وأخوال
ولا انطفت ما في القلب من نكد ❖ فالجسم مشتغل من غير أشغال
وكيف لا؟ وبقاع الدين خالية ❖ من أرض أندلس من أجل أهوال
عمت فعمت قلوب المسلمين قدما ❖ للمسلمين من أعداء وأنكال
جاشت بها من جيوش الكفر ما دربت ❖ بهم جموع السبا أخبار وأقبال

إلى أن يقول:

تالله لا زال ما في القلب من أسف ❖ ولم أكون دفين المنزل الخالي
أو يفتح الله في نصر بعون به ❖ فالله باق يقي من كل محتال
قد زال إرهاقها أسوار الله يحجبها ❖ وباءلا كل ما قد جاز من مال
سلطا يجيش كموج البحر في عدد ❖ نعم وفي عدد من رهط أبطال
مؤيدا باجتماع العنصر بنبغة ❖ شر الخلائق مسرورا بإقبال
بين الجوامع بالأشغال[8] مشبهة ❖ ونفع الصوامع في هد وزلزال
بين لهيب ما الإسلام مبتدئا ❖ والوصف يعجز عن نعتها بقلقال

ثم يقول مُحذراً من احتلال النصارى لمدن الساحل المغربي :

يا أهل فاس أما في الغير موعظةٌ؟	إن السعيد لمن يُوعظ بأمثال
فقل تعالوا إلى نُصحٍ وتذكرةٍ	فالأمر جدٌّ فلا تصحب لمكسال
كيف الحياة مع الحيّات قد نفثت	على السواحل أو عثت بأرسال
ولا سبيل إلى الترياق غير تُقى	والحزم في سَعَةٍ من قبل إعجال
والأخذ بالجد في جمع القلوب على	بذل النصيحة أو إيسار أو خال

إلى أن يقول في آخرها :

والهجرة الآن قد عادت كما سبقت	فافهم تفاصيل أقوال وإجمال
واحمل بذهنك واسمع نصائح من	قد طب من حب لم يوصف بمحتال
في صدر سبع على التسعين زائدة	شمس الجزيرة غابت بعد إكمال
وبلغ الكلب ما قد شاء من أرب	إذ لم يجد ذائدا عن ديننا العالي
ليقضي الله أمرا كان قدره	والقول لله في قول وأفعال
وقد وعظت ولو أسمعت لانتشرت	سحائب الدمع لم تقلع عن انزال

ومن القصائد التي كان الأندلسيّون يبعثون بها إلى ملوك المسلمين وحكّامهم بالمشرق طالبين منهم السعي لفكّ رقابهم، والعمل على التخفيف من عذابهم، بعدما أيسوا من نجدة أهل المغرب لهم، قصيدة تائية طويلة مجهولة الناظم أرسلت إلى السلطان بايزيد العثماني المتوفى سنة 1513م، وهي وإن خلت من نصاعة الكلم تعطي صوراً مؤلمة لمحنة الأندلسيّين ومعاناتهم، وأمثلة مرعبة للقسوة التي كان النصارى الغالبون يعاملونهم بها . وقد افتتحها ناظمها بمزجية التحيّات إلى السلطان العثماني ورجال دولته من وزراء وولاة، وقواد وقضاة :

سلامٌ كريمٌ دائمٌ متجددٌ ✤ أخصُّ به مولاي خيرَ خليفةِ
... سلامٌ عليكمْ من عبيدٍ تخلَّفوا ✤ بأندلسٍ في الغرب في أرضِ غربةِ
أحاط بهم بحرٌ من الروم زاخرٌ ✤ وبحرٌ عميقٌ ذو ظلامٍ ولُجَّةِ
سلامٌ عليكمْ من عبيدٍ أصابهم ✤ مصابٌ عظيمٌ يا لها من مصيبةِ
سلامٌ عليكمْ من شيوخٍ تمزَّقتْ ✤ شيوبهم بالنتف من بعد عزةِ
سلامٌ عليكمْ من بناتٍ عواتقٍ ✤ يسوقهم اللبَّاطُ[9] قهراً لخلوةِ
سلامٌ عليكمْ من عجائزَ أُكرهتْ ✤ على أكلِ خنزيرٍ ولحمٍ لجيفةِ

ثم يقول:

شكونا لكمْ مولاي ما قد أصابنا ✤ من الضُّرِّ والبلوى وعظمِ الرزيَّةِ
غُدِرنا ونُصِّرنا وبُدِّلَ ديننا ✤ ظُلمنا وعوملنا بكلِّ قبيحةِ
وكنَّا على دين النبي محمدٍ ✤ نقاتلُ عُبَّادَ الصليبِ بنيَّةِ
ونلقى أموراً في الجهاد عظيمةً ✤ بقتلٍ وأسرٍ ثمَّ جوعٍ وقلَّةِ
فجاءت علينا الرُّومُ من كلِّ جانبٍ ✤ بسيلٍ عظيمٍ جملةً بعد جملةِ
فلمَّا تفانت خيلُنا ورجالُنا ✤ ولم نرَ من إخواننا من إغاثةِ
وقلَّت لنا الأقواتُ واشتدَّ حالُنا ✤ أطعناهمُ بالكُرهِ خوفَ الفضيحةِ
وخوفاً على أبنائنا وبناتنا ✤ من أنْ يؤسَروا أو يُقتلوا شرَّ قتلةِ
على أن نكون مثل من كان قبلنا ✤ من الدَّجْنِ[10] من أهل البلاد القديمةِ
ونبقى على أذاننا وصلاتنا ✤ ولا تركنْ شيئاً من أمر الشريعةِ
ومنْ شاءَ منَّا البحرَ جازَ مؤمَّناً ✤ بما شاءَ من مالٍ إلى أرضِ عُدوةِ
إلى غيرِ ذاكَ من شروطٍ كثيرةٍ ✤ تزيدُ على الخمسين شرطاً بخمسةِ[11]
وقال لنا سلطانُهم وكبيرُهم ✤ لكمْ ما شرطتُمْ كاملاً بالزيادةِ
... فلمَّا دخلنا تحت عقدِ ذمامهم ✤ بدا غدرُهم فينا بنقضِ العزيمةِ

ثمّ أخذ الشاعر أو الناظم يعدّد أنواع المظالم التي ألحقت بقومه في ... والمال، خاتماً قصيدته مستنجداً ومستغيثاً متوسّلاً إلى ... بالله والنبيّ و ءاله والأخيار من صحابته وتابعيهم، ولكن دون جدوى[12]. وأنّى له أن يصرخهم وقد تقطّعت بهم الأسباب، وسدّت في وجه من يبغي إنجادهم الأبواب !

ومرت الأيام، وتتالت الشهور وتعاقبت الأعوام، وخلف الملوك الملوك[13]، وحالة المسلمين المغلوبين بالأندلس لا تزداد إلا سوءاً، رجال الدين النّصارى يكرهونهم على الدخول في دينهم ويعنتون في التنكيل بمن يشكّون في عقيدته الجديدة أو يبلغهم أنّه يمارس خفية في نفسه وأسرته بعض ما كان يمارسه ءاباؤه وأجداده من شعائر إسلامية، كالختان والتزيّن يوم الجمعة والاغتسال والامتناع من شرب الخمر وأكل لحم الخنزير، حتّى خضب النساء أيديهنّ بالحنّاء كان من الجرائم التي يعاقب عليها . ورجال الحكم يطاوعونهم من جهة في أعمالهم الهمجيّة لما لهم من الكلمة العليا واليد الطولى، ويتمنّون في أنفسه من جانب ءاخر أن لو يهجر المتنصّرون إلى المغرب أو إلى أيّ بلد ءاخر حتّى ولو كان بلداً مسيحياً ليستريحوا في أرض قشتالة من مشاكلهم، سيّما بعد الانتفاضات الثورية المتكرّرة التي قاموا بها في غرناطة وجبال البشرات وسائر الجهات التي كانت أغلبية سكّانها منهم. وفقهاء المسلمين من وراء البحر إمّا يبيحون لهم التظاهر بالتنصّر إذا كانت قلوبهم مطمئنّة بالإيمان[14]، وإما ينصحونهم بالهجرة مبيّنين لهم أنّها في مثل حالتهم من الواجبات الدينية والفروض الشرعية[15]. والحقيقة أنّ هؤلاء المسلمين المغلوبين المتنصّرين الذين صار النّصارى الغالبون يسمّونهم موريسكوس[16] لم يصيروا يطمحون في أكثر من الجلاء، لينجوا من البأساء،

والضرآء، بعدما فقدوا الأمل والرجاء، ومنهم من سعى للهجرة بعد تسليم غرناطة بقليل أو قبله بقليل، كعلي المنظري الذي اجتاز البحر مع جماعة من أصحابه إلى ساحل تطوان حيث توجد الآن بلدة مرتيل، ثم صعدوا بنظر عن هذا الموضوع فتوى أحمد بن يحيى الونشريسي التلمساني دفين فاس المسماة أسنى المتاجر، في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر، وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر المنشورة في كتابه المعيار المعرب، والجامع المغرب، عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس إلى موقع تطاون الخرب وأعادوا الحياة مع من تلاهم إلى المدينة الدائرة[17]. ومن الأندلسيين من كانوا يركبون البحر باتفاق مع ولاة قشتالة المدنيين وقادتها العسكريين، لأنهم كانوا يشترطون عليهم حقهم في الهجرة في كل مرة تنازلوا لهم فيها عن حصن أو قرية أو مدينة ويجد ذلك هوى في نفوس النصارى المتغلبين، أو لأن الأندلسيين كانوا يهجرون لأن بعض عظماء النصارى أوصوا بتسهيل رحيلهم، كما حدث لمسلمي البرتغال عندما قرر العرش البرتغالي طردهم سنة 1496م فإنه أوصى ملكي قشتالة بتيسير هجرتهم إلى المغرب من أرض قشتالة، فأصدرا مرسوماً في شهر أبريل من السنة التالية يسمح لهم ذلك تلبية لطلبه.

وتتابع عبور الموريسكيين البحر سراً وعلانية في اتجاه المغرب ونزولهم في أقرب سواحله إلى أقرب جهة انطلقوا منها أو حيثما جرت بسفنهم ومراكبهم الريح، فنزل أهل الجزيرة الخضراء بطنجة، وأهل مالقة بمرسى بادس، وأهل المرية بهنين وندرومة وتلمسان، وأهل بلش بسلا، وأهل طريف بأزمور وآسفي، وأهل رندة وسبتة وحصن موجر وحصن مرتيل وقرية قردوش بساحل تطوان[18]، وأهل لوشة وقرية الفخار والبشرة وجبالها وبعض

أهل غرناطة ومرشانة بساحل قبيلة غمارة، واجتاز أهل بيرة وبرجة وأندراش إلى الشاطئ الواقع جنوبي سبتة المحتلة، وأبعد قوم آخرون في الرحلة فنزلوا بوهران وبرشك وشرشال وبجاية وسوسة وقابس وصفاقس. ومنهم من جرت الريحُ بمراكبهم فنزلوا بسواحل فرنسا وإيطاليا. ويجب أن يلاحظ المؤرخ وهو بصدد الحديث عن هذه الهجرات التي حدثت في مدد متقطعة أمرين اثنين: أولهما أنّ المهاجرين لم يكونوا يقابلون في البداية بعطف ومواساة وترحاب من طرف السكان ولا من طرف الحكّام. فقد كان البداة يفتكون بكثير ممّن ألقاهم الحظّ العاثر بأرضهم ممّا يستحيي المرء من ذكره[19]. وكان الحضريّون يتشاءمون منهم إذا قلّت الأمطار وانتشرت الأوبئة ويقولون إنّما قلّت الأولى وانتشرت الثانية بسبب وجودهم بينهم[20]. كما كان الحكّام يفرضون عليهم مغارم وضرائب ثقيلة حتّى اضطرّ بعضهم للرجوع إلى الأندلس مفضّلين العيش في جحيمهم القديم على العيش في جحيمهم الجديد، ومحذّرين قومهم من ترك بيوتهم والهجرة إلى خارج أوطانهم. وثانية الملاحظتين قيام أسطول الأتراك في القرن السادس عشر الميلادي بنقل عشرات الألوف من الموريسكيّين من إسبانيا إلى مناطق حكمهم بجنوب البحر الأبيض المتوسط، ونقل آلاف آخرين من مدن فرنسا وإيطاليا إلى تركيا ومناطق حكمها الأخرى بالبلقان وسواحل الشام. وقد ذكر المؤرخ كاتب شلبي أنّ خير الدين قائد الأسطول التركي تمكّن خلال سبع سنوات فقط من توجيه 36 سفينة حربية إلى السّواحل الإسبانية نقلت من الموريسكيّين أثناء سنة 1529 وحدها سبعين ألفا[21].

وأخيراً أزفت ساعة الرحيل الأخير، وآذنت شمس الإسلام في الأندلس بالأفول الذي ليس بعده شروق. ففي يوم الثلاثاء 22 شتنبر من سنة 1609م (22

جمادى الثانية عام 1018هـ) أصدر الملك فليب الثالث ملك قشتالة قراراً يقضي بطرد جميع الموريسكيّين من إسبانيا متعلّلاً باستعصاء تنصيرهم واندماجهم في المجتمع القشتالي وقيامهم بثورات وفتنٍ متواصلة أزهقت كثيراً من الأرواح، وخلفت عديداً من الخراب والدّمار، رغم ما بذله وسلفه على حدّ قوله من جهود لتفقيههم في الديانة المقدسة وتمتيعهم مرة تلوَ أخرى بعفو لم يزدهم إلا إصراراً على التمسّك بديانتهم القديمة وإعدادهم لمشاريع شنيعة !

ولعلّ فليب الثاني كان يقصد بالمشاريع الشنيعة اتصال الموريسكيّين، بعد ما أيسوا من نجدة المغرب بسبب سوء أحواله وخذلان حكامه، بالأتراك العثمانيّين الذين ظهروا قوةً مخيفة مدمّرة في البحر المتوسّط واستولوا على الأقطار الواقعة في جنوبه عدى المغرب، ووضع الخطط معهم للانتقام من القشتاليّين بحراً والإغارة عليهم إن أمكن براً، يضاف إلى ذلك أنّ عدد الموريسكيّين كان يزداد باستمرار، وبقيّة السيف أنما كما يقول المثل، لأنهم كانوا لا يدعون إلى الدخول في الجنديّة ولا إلى العمل في الأساطيل البحريّة حذراً.

منهم، زيادة على كونهم يتناسلون أكثر مما يتناسل النّصارى لانعدام الرُّهبانية عندهم ووجودها عند النصارى، وهو شيء صحيح أكدته الإحصائيات التي جرت ما بين سنة 1565م وسنة 1609م التي وقع فيها الطرد، إذ دلّت على أنّ عدد الموريسكيّين يزداد بنسبة 69% بينما لا يزداد عدد النّصارى إلا بنسبة 44%.

ولا نريد أن نخلص من ذكر الأسباب التي أوحت إلى الملك فليب الثالث أن يصدر قراره دون أن نلمح ولو من طرف خفيّ إلى ما يتردد في بعض كتب التاريخ المغربية والإسبانية من إشارة محمد الشيخ السعدي الملقب بالمأمون عليه بذلك، رغبة في تجنيد الموريسكيين المطرودين لدرء الأطماع التركية عن أرض المغرب، وتلك رغبةٌ تلتقي بكلّ تأكيد مع رغبة ملك قشتالة فيما يخصّ بلده [22].

وإذا نكّبنا جانباً عن ذكر قرار الطرد والأسباب التي دعت الملك فليب الثالث ومجلس دولته إلى اتخاذه، والتفتنا إلى ذكر عواقبه وتبعاته، فسنرى أنّ القرار كان له في أوساط الموريسكيين وقعان، وقع البغتة والفجاءة، لأنهم لم يكونوا يتوقعون صدوره بتلك السرعة وتنفيذه بالكيفية التي نصّ عليها وتضمنتها التعليمات التي وجّهت إلى الولاة المدنيين والقادة العسكريين وحتى إلى رجال الكنائس الدينيين، والوقع الثاني وقع الفرج الذي كان أكثرهم ينتظرونه من الله [23] ليخلصوا من الآلام البدنية والنفسية التي كانوا يكابدونها في وسط نصراني متطرّف يكرههم ويحتقرهم وينظر إليهم نظرة السليم إلى الأجرب.

وقد قضى القرار والتعليمات التي صدرت إلى المسؤولين لتطبيقه أنْ يجمع الموريسكيون كافة خلال ثلاثة أيام من نشره ويرحلوا مع أولادهم ونسائهم إلى المراسي التي يعيّنها لهم مندوبو الحكومة حيث ينقلون منها إلى بلاد البربر (المغرب العربي) على متون سفن أعدت لترحيلهم، وأن لا يأخذوا معهم إلا ما يستطيعون حمله على ظهورهم، وأنْ لا يخفوا شيئاً من أمتعتهم أو يشعلوا النار في مساكنهم أو يتلفوا غلالهم الفلاحية، وأن يسمح للأطفال

...سنة الرابعة من العمر بالبقاء إذا شاءوا ذلك ورضي به آباؤهم وأولياؤهم ! وأن يعاقب المخالف بالأشغال الشاقة وبالإعدام إذا أبدى مقاومة إلى آخر ما تضمنه القرار والتعليمات الأخرى الصادرة لتطبيقه[24] .

ومن جهة أخرى كانت أوامر صدرت قبل اتخاذ القرار بتجميع السفن الإسبانية في جزيرة ميورقة إحدى جزر الباليار. فلما حلت ساعة الترحيل بدأ مندوبو الحكومة يحشرون الموريسكيين فيها كالخرفان وينقلونهم إلى مراكز احتلالهم بالسواحل المغربية. وأبحر بالجماعة الأولى منهم من مرسى دانية وبعض المراسي القريبة في أوائل أكتوبر سنة ١٦٠٩م، وكان عددهم ثمانية وعشرين ألفاً أنزلوا بمدينة وهران التي لم تكن إسبانيا استولت عليها إلا يوم ١٧ ماي من نفس العام، ثم أرسلوا تحت حماية فرقة من الجنود المرتزقة إلى مدينة تلمسان ليسكنوها، وتوالى منذ ذلك الشهر تهجير الموريسكيين على متون السفن الإسبانية إلى المواني المغربية، المحتل منها وغير المحتل، وفضل بعض موسريهم الهجرة على ظهر سفن غير إسبانية خوفاً من أن يغرقهم الإسبانيون في البحر، وهي خطة كانت اقترحت للتخلص منهم في عهد الملك فليب الثاني، فأنزلوا في شواطئ المغرب والجزائر وتونس وإيطاليا. وإذا كان بربر المغرب أحسنوا إليهم هذه المرة عند نزولهم بسواحلهم أو عبورهم أرض قبائلهم فإنهم لم يسلموا أثناء رحلاتهم البحرية من أعمال السلب والنهب والإهانة التي اشترك فيها البحارة الإسبانيون والفرنسيون جميعاً. وقد تحدث عن شيء من ذلك الموريسكي الشهير أحمد بن قاسم الفقاي الحجري (أفوقاي) كاتب السلطان أحمد المنصور السعدي في كتابه "ناصر الدين على القوم الكافرين"[25] .

وتواصلت عمليات التهجير دون تراخٍ أو انقطاع إلى سنة 1611م ـ 1020هـ[26]. حتى لم يبقَ بالأندلس من يقول، إلا سراً، ربّي الله. وقد اختلفت أقوال المؤرخين في عدد المهجّرين، فقدّرهُ المؤرخُ بينالوسا (PENALOSA) بثلاثمئة وعشرة آلاف مُهاجر، وهو أدنى تقدير للمؤرخين، وقدّره أحمد المَقّاي بثمانمئة ألف[27]، وقدّره رودريكو ميندديث سيلفا (SILVA) بتسعمئة ألف وهو أعلا تقدير.

وكان تهجيرُ هاؤلاء الأندلسيّين من أوطانهم خسارة كبرى لإسبانيا التي خلت بعض قُراها من السكان وتناقص عددهم في مدنٍ أخرى، وتدهور اقتصادُ أقاليمها الجنوبية وتراجع نشاطها الفني والأدبي، بينما عمرت بالمهجّرين مدن مغربيةٌ كانت خالية أو قليلة السكان كالرباط وتطوان وشفشاون، ومدنٌ وقرى غيرها كتلمسان والجزائر والبليدة وكثير من مدنِ تونس وقُراها .

أما موقف سكانِ المغرب من الموريسكيّين وتمغربُ هاؤلاء، وعملهم في الجيش السعدي في المغرب والأسطول التركي في الجزائر والقطاع الزراعي في تونس، وأثرهم في تحويل المجتمعات في البلاد التي استقروا فيها فتلك أمور طويلة لا يسمحُ الوقت بتفصيلها تفصيلاً أو إجمالاً، ولعلّها تكون موضوع ندوة أخرى لأكاديميّتنا في مُستقبل قريب .

الهوامش

1) وسماه الخليفة الموحدي عبد المومن بن علي جبل الفتح حين حلّ به عام 556 هـ وجدّد تحصيناته.

2) ينظرُ النصُّ الكاملُ للقصيدة في «أزهار الرياض» 1: 207 ونفح الطيب 4: 457.

3) ينظرُ النصُّ الكاملُ للقصيدة في «نفح الطيب» 4: 457.

4) ينظرُ تحليلُ كلِّ مادّةٍ من موادِّ معاهدةِ التسليم في كتابِ «نهاية الأندلس» ص: 230. تأليف مؤرخ الأندلس الكبير المرحوم عبد الله عنان.

5) سكن أولاً داراً متواضعةً هي الثانيةُ عن يسار الداخل إلى درب القلقلي من حومة الجزيرة قبل أن يبنيَ قصراً بالمال الذي كافأه به فرديناندو الخامس، وعاش بفاس إلى أن حضرَ مع الجيش الوطاسي عام 943هـ معركةَ بو عقبة، أحد مشارع وادي العبيد بإقليم تادلة، التي جرتْ مع السعديين، فقُتل هناك وحُمل شلوُه إلى فاس فدُفن بالمقبرة الكائنة قرب مُصلّى العيد خارج باب الساكمة. وقيل تُوفي قبل ذلك عام 940هـ.

6) ينظرُ النصُّ الكاملُ للرسالة والقصيدة التي تتصدَّرُها في أزهار الرياض 1: 72

7) تُنظرُ ترجمتُه في أعلام المغرب العربي 3: 120 ع 1450.

8) جمعٌ نفطِ المدفع.

9) اللباط: أحدُ رجال الدين بالكنيسة، وكان هؤلاء القُباطون يأخذون أبناء المسلمين وبناتهم كلَّ يوم إلى الكنائس لتلقينهم قواعدَ الديانة الكاثوليكيّة.

10) الدَّجن والتَّدجُّن الإقامةُ والسكوت، وكان يُطلقُ على المسلمين الأندلسيِّين الذين أقاموا تحت حُكم النصارى في المدن والقرى التي استردُّوها متَّجنين منذ أوائل القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي.

11) بل يبلغُ عددُ الشروط 56 كما هي مذكورةٌ شرطاً شرطاً في معاهدة التسليم التي سلّمها الملكان الكاثوليكيّان لأبي عبد الله ابن الأحمر والمحفوظ نصُّها الأصلي بدار المخطوطات العامّة بمدينة سيمانكاس تحت رقم P. R. 11, 207.

12) وانظر أيضاً رسالة بعث بها الأندلسيون إلى السلطان سليمان القانوني مؤرخة في أوائل شعبان عام 968هـ (نونبر 1561م) منشورة مع تقديم في المجلة التاريخية المغربية ع 3 ص 37 (يناير 1975م).

13) تُوفيت الملكة إيسابيلا يوم 26 نونبر سنة 1504م وتُوفي زوجها فردينانذو الخامس يوم 23 يناير سنة 1516م وخلفهما في الملك حفيدهما من ابنتهما كارلوس الخامس (الإمبراطور شرلكان) الذي تنازل عن الملك سنة 1556م وتوفي بعد سنتين (21 شتنبر سنة 1558م)، فخلفه ابنه فليب الثاني إلى أن توفي سنة 1598م، وبعده تولى الملك ابنه فليب الثالث الذي طرد الموريسكيين سنة 1609م وتوفي يوم 31 مارس سنة 1621م.

14) تُنظر في موضوع هذه الإباحة رسالة مؤرخة في أول رجب عام 910هـ كتبها أحمد بن أبي جمعة المغراوي الوهراني المترجم في أعلام المغرب العربي 5 : 118 ع 1447، عثر عليها الأستاذ المرحوم عبد الله عنان في مكتبة الفاتيكان ونشرها في كتابه نهاية الأندلس ص 325.

15) ينظر عن هذا الموضوع فتوى أحمد بن يحيى الونشريسي التلمساني «أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر، وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر» المنشورة في كتابه «المعيار المعرب، والجامع المغرب، عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب 2 : 119»، وترجمة الونشريسي في أعلام المغرب العربي 5 : 108 ع 1444.

16) الموريسكوس MORISCOS تصغير كلمة موروس MOROS أطلقها أهل قشتالة النصارى على مسلمي الأندلس المتنصرين، ومعناها العرب الأصاغر احتقاراً لما آل إليه أمرهم من الضعة والهوان.

17) يُنظر عن بناء المهاجرين الأندلسيين لتطوان «تاريخ تطوان» 1 : 85 تأليف المرحوم محمد داود.

18) لعل المهاجرين من مرتيل الأندلسية هم الذين أطلقوا اسم مدينتهم على موقع بلدة مرتيل المغربية.

19) يُنظر عن محنة المهاجرين الأندلسيين أثناء الهجرة إلى المغرب والجزائر وتونس «نفح الطيب» 4 : 528 و«ابتسام الثغر الجثماني، في الفتح الوهراني» ص 38 تأليف أحمد ابن سحنون الراشدي.

...ذلك بالمغرب والجزائر وحتّى بمدينة ناربون الفرنسية عندما كانتْ جماعةٌ منهم موجودةً فيها. انظر مجلة «أوراق» الصادرة بمدريد ع 4 ص 121 (1981) و«الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب» ص 132 تأليف الأستاذ محمد رزوق.

21) انظرْ كتابَ رزوق المتقدم ص 85 وهو ينقل عن الكتاب المسمّى «تحفة الكبار، في أسفار البحار» ص 40.

22) «تاريخ الدولة السعدية الدرعية» ص 96 طبع الرباط سنة 1934.

23) «ناصر الدين، على القوم الكافرين» ص 17.

24) يُنظرْ ما يتعلق بقرار الطرد، سوابقه ولواحقه، عند الأستاذ عبد الله عنان في الفصل الذي عقده عن مأساة النفي في كتابه «نهاية الأندلس» ص 367.

25) «ناصر الدين...» ص 17 و 44.

26) «ناصر الدين...» ص 44.

27) «ناصر الدين...» ص 55.

مُلحَق

قرارُ الطرد الذي أصدرهُ الملك فليبُ الثالث ملك قشتالةَ يوم 22 شتنبر سنة 1609م في حقّ الأندلسيِّين المتنصِّرين (الموريسكيِّين) وأرسله مع بيانات تتعلق بتنفيذه إلى والي بلنسية المركيزْ دي كاراثينا تعريب الموريسكي أحمد بن قاسم الفُقّاي (أفُوقّاي) مَركِش ذا قرثِنَا (Marques de Carazena):

«قد علمتَ ما صنع وعملَ مع النصارَى الجدود الأندلس (النصارى الأندلسيُّون الجدد) أهل تلك السلطنة وقشتالة على طول السنين الكثيرة الماضية من التحريض والإرشاد لإثباتهم في ديننا المجيد وإيماننا، ولا نفع معهم قليلاً ولا كثيرا، لأنه لم يجد فيهم واحد من هو نصراني حقيقة، والغدر

والشرُّ يمكن أن يحدث بسبب ما تعامينا عليهم قد ذكره إلينا رجال صلحاء، وأتعابًا منا لإصلاح ذلك الأمر لِيَرضى به الله ويَزول غضبه من هذه الأمَّة. وأفتوا [illegible] لنا ـ من غير شكٍّ ـ أن نعاقبهم في أنفسهم وأموالهم. لأن الاستمرار على سوء أفعالهم ختم وحكم عليهم أنّهم منافقون وأعداءٌ للمقام الإلهي والإنساني. وجب أنّنا قادرٌ على أن نجزيهم ونعاقبهم بما أوجب سوءُ فعلهم ولومتهم. فمع ذلك اخترت مُعاملتهم على طرق الحلم واللين وتَرك المؤاخذة، وبسبب ذلك أمرنا بجمع المحفل الذي حضرتُ فيه مع العُلماء والأكابر في تلك المدينة لعلّي نجد سبيلاً لترك إخراجهم من مَملكتنا. ونحن في هذا تحقّقنا وصحّ من وجوه أنهم بعثوا للتُّركيْ الكبير بإصطنبول ومَولاي زيدان بمراكُش رسلهم يطلبون منهم أن ينجدوهم، وأنهم عندهم مائة وخمسون ألفَ رجُلا مسلمون مثل الذين ببلاد المغرب الإفريقيّة. وأيضاً بعثوا لأعْدائنا البحريّة بالجهة الشمالية التي تحت القطب وأنعموا أنّهم يعينهم بسفونهم. وأمّا سلطان إصطنبول فقد اصطلح مع سلطان الفرس لأنّه كان يشغله. وأمّا سُلطان مراكُش فقد عزم على تدويخ البلاد وتسكينها. وإذا اتفقوا جميعاً مع هؤلاء نَرو نفوسنا في الأمر الذي لا يخفى.

وللقيام بما لزمنا من حفظ مَملكتنا ودفع ما يعرض لها اتّفق نظرُنا، بعدَ أن دعوتُ الله وأمرت بالدعاء له طامعاً ومتوكّلاً في تأييده ونصره لما يجبُ لمجده وفضله، على إخراج جميع الأندلس (الأندلسيّين) الذين هم في تلك السلطنة لأنهم أقرب للغدر.

وللإنجاز بذلك أمرنا بإشهار هذا الأمر وينادَى به:

فأولاً: يُعرفُ منه أن جميع الأندلس التي في تلك المملكة، رجالا ونساءً

بأولادهم، في ثلاثة أيام من شهرة هذا الأمر بالبلاد التي هم ساكنون، أن يخرجوا ويحشوا ليركبوا البحرَ في الموضع الذي يؤمر به، وأنْ يحملوا من العروض والأثاث ما يستطيعون عليه، ليركبوا في السفن والأغربة التي هي موجودةٌ لحملهم إلى بلاد المغرب، ويتزلونهم من غير مضرةٍ لأحدٍ في النفوس والأموال، ويعطونهم ما يحتاجون إليه من الطعام ما داموا فيها، ومَن أراد أن يحمل لنفسه ما يقدر عليه فليفعل، ومَن يتعدّى عن هذا الأمر فيقتل في الحين.

وأنّ كلّ من يوجدُ بعد ثلاثة أيام التي ينادي بالأمر خارجاً عن بلده يجوز لكلّ من لقيه أن ينهب ما عنده ويسلّمه للحكام، وإن امتنع يجوزُ له قتله.

وأن كلّ من سمع النّدا لا يخرج من بلده إلى غيره حتّى يمشي مع من يقودهم إلى ركوب البحر.

وأن كلّ من يدفن شيئاً من أمتعته إن لم يستطع الرفود (حملها) معه أو يحرق شيئاً من الزرع أو الأشجار، أن يقتل على ذلك، وأمرنا جيرانهم بتنفيذ الحكم فيهم.

ولما يصلح بالبلاد من معاصر السكّر والرُّوز وسقي البلاد ليعلّموا السُّكان الجدود أمرنا بقعود ستّة من الأندلس بأولادهم الذين لم يتزوّجوا في كلّ بلد يكون من مئة دار، والأمر في ذلك لسيّدهم، فهو لعول كل بلد، ويكون من الفلّحين القُدماء، الذين ظهر عليهم القرب والميل لديننا، ويرجى فيهم الثباتُ عليه.

وأن الرماة والنصارى القدما لا يأخذون شيئاً من أموالهم ولا يقربوا إلى نسائهم وأولادهم، ولا يكتم (يخفي) منهم أحداً في داره، ومن يفعل ذلك يجعل في مقذف الأغربة ست سنين، ويزداد على ذلك ما يظهر لنا .

وليعلموا أنّ السلطان ما مراده إلا إخراجهم من بلاده إلى بلاد المغرب، فلا يضرُّهم أحد بوجه من الوجوه، وأنه يتفق عليهم ويحملهم في سفنه. وإذا بلغوا فليرجعوا عشر منهم ليُعلموا لغيرهم، وكُبراء الأغربة والسفن فليعملوا بهذا الأمر .

[illegible] ان والأيتام من أقلّ من أربع سنين، إذا أرادوا القعود برضاء وكلائهم والأوصياء، فليقعدوا .

وأن الصّبيان الذين يكونُ أولاد نصارى لا يخرجوا ولا أمّهاتهم معهم وإن كانت أندلسية، وإن كان أبوهم أندلسي وأمّهم نصرانية فتقعود المرأة بأولادها التي من ستّ فأقلّ، وهو يذهب ويخرج .

وشهر هذا الأمر ونودي به في الثاني والعشرين من شهر شتنبر من عام تسع وستّ مائة وألف من ميلاد سيّدنا عيسى عليه السلام ».

الأندلسيون لا الموريسكيون

عبد العزيز بنعبد الله

بحثنا هذا ينصب خاصة على من هاجر من الأندلسيين إلى عُدْوَتَي أبي رقراق (الرباط وسلا) فالأندلسيون هم الذين هاجروا قبل سقوط غرناطة والموريسكيون هم الأندلسيون الذين نُصِّروا وهجروا قسرا إلى المغرب في القرن السادس عشر الميلادي وهي تسمية أطلقها عليهم الإسبان خلال هذا القرن الموافق في معظمه للقرن العاشر الهجري وجزء من الحادي عشر (1500-1600م، 900هـ/1009) وقد هاجر الأندلسيون في فترات شتى إلى فاس ومراكش والريف. فالهجرة الأولى كانت من قرطبة أخر القرن الثاني الهجري وقد تحدث عنها المقري (النفح ج1 ص 318)[1] وكانت له أي الحَكَم بن هشام ابن عبد الرحمن الداخل، الواقعة الشهيرة مع أهل الربض من قرطبة لأنه في صدر ولايته كان قد انهمك في لذاته فاجتمع أهل العلم والورع بقرطبة وخلعوه وبايعوا بعض قرابته وكانوا بالرَّبَض الغربي من قرطبة وكان محله متصلا بقصره فقاتلهم الحكَمُ فغلبهم وافترقوا وهدم دورهم ومساجدهم ولحقوا بفاس من أرض العدوة وبالأسكندرية من أرض المشرق ونزل بها جمع منهم ثم ثاروا بها فزحف إليهم عبد الله بن طاهر صاحب مصر للمامون بن الرشيد وغلبهم وأجازهم إلى جزيرة قريطش فلم يزالوا بها إلى أن ملكها الإفرنج من أيديهم بعد مدة، وقد أسس عمر البلوطي

أسرة ملكت إلى عام (350 هـ/ 961م) وهو العهد الذي امتلك فيه الإغريق الجزيرة وقد استقرت حسب دوزيDozy ثمانية آلاف عائلة ربضية بفاس حيث سبقتها جالية قيروانية، وكان العرب عمالا وتجارا والأندلسيون مزارعين (البيان المغرب لابن عذارى ج 2 ص 79 في قسمه المترجم / دوزي: «تاريخ مسلمي إسبانيا» ج1 ص 301) .

وقد نزل أندلسيون في الريف أوائل القرن الثاني عشر حيث قام جماعة من البحريين بقيادة محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون ببناء قرية في بني قسيل بين مشيوة وبني بوفراح عام (209هـ/ 824م) (المغرب للبكري ص.70) أما في مراكش فقد كانت المهاجر الرئيسي من قرطبة وأشبيلية أيام الموحدين، وبمقارنة مجموع من هاجر نلاحظ تساكن فئات مختلفة من آل جيّان وطليطلة وبلنسية ومالقة وشنترين وسرقسطة وشنترة وشقورة وقربليان وبكة وأخيراً غرناطة. ومعلوم أن عدد مدن الأندلس (186) منها ست كبرى هي قرطبة وأشبيلية وغرناطة. وبلنسية وطليطلة وسرقسطة وأربعون حاضرة يندرج فيها باقي المدن. وكان أهل المشرق قد استوطنوا بعضها كالشاميين في ألبيرة والأوربيين في مالقة والفلسطينيين في شذونة وأهل حمص في أشبيلية والمصريين في بيجة ومرسية (الحُلل السندسية شكيب أرسلان ج1 ص 40) وكانت قد قسمت في عهد الموحدين إلى عدة ولايات أو عمالات هي ولاية الغرب (شلب وأحوازها) وبيجة ويابرة وبطليوس وماردة وأحوازهما ولم يكن عدد سكانها يقل عن خمسة عشر مليون نسمة في عهد الناصر، وصفهم (المقري في النفح ج 1 ص 105) بأنهم «أهل احتياط وتدبير في المعاش وحفظ لما في أيديهم خوف ذل السؤال فلذلك قد ينسبون إلى البخل ولهم مروءات على عادة بلادهم لو فطن لها حاتم لفضل دقائقها على عظائمه»، ووصف نظافتهم فقال :

«وأهل الأندلس أشد خلق الله [2] اعتناء بنظافة مايلبسون وما يفرشون... وفيهم من لايكون عنده إلا مايقوته يومه فيطويه صائما ويبتاع صابونا يغسل به ثيابه ولايظهر فيه ساعة بوضع تنبو ولا يظهر على حالة تنبو العين عنها». وقد تزايد عدد المهاجرين بعد عهد الموحدين حيث بدأت بعض الحواضر تتساقط في قبضة الإسبان. فبعد وقعة طريف عام (741 هـ)[3] استولى الإفرنج على الجزيرة الخضراء، فأجاز أهلها إلى المغرب عام (743هـ) وأنزلهم أبو الحسن المريني ببلاده على خير نزل (الاستقصا ج 2 ص67) وربما كانوا يهاجرون عند اشتداد الأزمات عندما كانوا يتعرضون لهجمات الأسبان والبرتغاليين كما وقع قبل احتلال شاطبة عام (645هـ/1247م) (النفح ج6 ص 215) من حيث هاجر العلامة (عبد الله بن علي بن أحمد اللخمي الشاطبي إلى «أغمات» فتولى قضاءها عام (532هـ) وتوفي بعد ذلك بسنة (تكملة ابن الأبار ج 3 ص406 طبعة مجريط 1887). وكان آخر معقل وقع في يد الأسبان قبل غرناطة هو أشبيلية في نفس السنة وهو آخر عهد الموحدين حيث بويع عبد الواحد الملقب بالرشيد عام (630 هـ/1232م) فحوصرت سبتة في عهده ودفع للإفراج عنها غرامة قدرها(40.000) دوكة وهو الذي انتزع مدينة فاس من بني مرين وقد انضم إليه الإشبيليون وأهل سبتة عام (635 هـ) وتوفي غريقا عام (640هـ). وكان قد أصدر الظهير لإيواء الأندلسيين ومنحهم حق اللجوء، خاصة في عدوتي أبي رقراق حيث كان نائبه في ولاية المنطقة هو الأمير عمر المرتضى فانهزم عام (662 هـ). وبانهزامه قامت دولة بني مرين وكانت قشتالة قد استولت على أشبيلية قبل ذلك بثلاث سنوات (645 هـ) فانتقل الحكم الإسلامي إلى غرناطة التي بدأت أول وقعاتها ضد الأسبان عام (719هـ/1319م) بإمرة فدائيين من المغرب على

رأسهم شيخ القراة عثمان بن أبي العلاء الذي كان يشرف على مائتين من المجاهدين صرع معظمهم ففاوض أبو عبد الله العنابي نزيل درعة أبا زكريا الوطاسي في فدائهم مزودا من نساء القصر السلطاني بالحلي ولكنه غرق في البحر (دوحة الناشر ص 40) واستولى الأسبان على غرناطة عام (897 هـ/ 1491م) فاستأمن أهل غرناطة شرطاً لبقائهم على أموالهم وشريعتهم ومساجدهم، فغدر الأسبان بهم وبملكهم أبي الحسن. ولعل أشتاتا أخرى من الأندلسيين ظلوا متمسكين في مساقط رؤوسهم بحواضر أخرى وخاصة في ملاجئهم بالجبل كأهل بلنقة وهو جبل بالأندلس صمد أهله عام (904هـ/1498) عندما حمل الإسبان المسلمين على التنصر فثار البلنقيون وقتلوا صاحب قرطبة وأخرجوا على الأمان إلى فاس بعيالهم وما خفَّ من أموالهم دون الذخائر (الاستقصا ج 2 ص 154) ونحن نتساءل عن وضع مدينة رباط الفتح قبل هجرة الأندلسيين إليها طوال أربعة قرون. ففي عهد المولى الرشيد الموحدي كان قد مر على تأسيس الرباط نحو أربعين سنة ما لبث أن انقرض بعدها بخمس سنوات عهد الموحدين فأعقبهم بنو مرين ثم السعديون حيث بدأت الهجرة في عهد المولى زيدان بن احمد المنصورالذهبي. ففي هذه الفترة الطويلة طرأت أحداث وبرزت مظاهرحضارية واجتماعية وفكرية جديدة في رباط الفتح، وخلال جزء كبير من هذه الفترة كانت غرناطة قد خلفت اشبيلية فهاجر الكثير من أهلها إلى العاصمة الجديدة تحت حكم بني نصر وآخرهم هو أبوعبد الله الصغيرمحمد المعروف في المصادر الأجنبية ب «بوعبديل» الذي أبرمت بينه وبين الملكين الكاثوليكيين الدون فرديناند والدونة إيزابيلا بتاريخ (21محرم 897هـ/25 نوفمبر1491م) معاهدة لتسليم غرناطة[4] وقد أصبح أهل غرناطة المسلمون

بمقتضى هذه المعاهدة "رعايا طبيعيين" للملك الكاثوليكي مع حفاظهم على بيوتهم وأراضيهم وأموالهم وممارسة الشعائرالإسلامية بحرية دون المساس بسكانهم وجوامعهم وأبراجهم ومحاكمتهم بموجب قوانينهم وقضاتهم واحترام عاداتهم وتقاليدهم وعدم مصادرة أسلحتهم أوخيولهم باستثناء الذخيرة الحربية ويسمح لمن يرغب في الجواز إلى العدوة أو أي مكان آخر ببيع ممتلكاتهم وأراضيهم لمن شاء ومع إعطاء الأولوية في ذلك للملك الكاثوليكي الذي يجهز لعبورهم (أرض المغرب) عشر سفن كبيرة تتوزع على الموانئ القريبة منهم مع بيع أو تعويض لمن ينوب عنهم في تحصيل حقوقهم ولايسمح لأي نصراني بدخول المساجد دون إذن من الفقهاء الذين يتولون إدارة إيراد الجوامع والحلقات الدراسية فيها. ويعتبر جميع أسرى النصارى أو المسلمين أحراراً. ولا يدفع المسلمون إتاوات أكثر مما كانوا يدفعونه لملوكهم ويسمح لمن غادر الأندلس منهم بالعودة خلال ثلاثة أعوام من تاريخ إبرام المعاهدة للتمتع بالإمتيازات التي يمنحها الإسبان لهم ويحق لتجارغرناطة والبيازين والبشرات والأرباض أن يحملوا سلعهم إلى العُدْوَة ولا يجوز إرغام أية نصرانية تزوجت من أحد المسلمين واعتنقت الدين الإسلامي على العودة إلى النصرانية إلا طائعة وكذلك كل نصراني اعتنق الإسلام قبل إبرام الاتفاقية. ولا يجوز إرغام مسلم أو مسلمة على اعتناق النصرانية.

وبعد انتهاء السنوات الثلاث المنصوص عليها في الاتفاقية تدفع ضريبة الأملاك والضياع الأميرية وفقا لقيمتها الحقيقية . وتشمل هذه الاتفاقية أيضا اليهود من مواليد مدينة غرناطة والبيازين الخ ... ويسمح لهم بالعبور إلى العدوة خلال شهر من تاريخه ولا يُولَّى على جماعة أبي عبد

الله الصغير أحد ممن كانوا موالين لمولاي الزَغل ملك وادي آش عمّ أبي عبد الله الذين كانت بينهما عداوة قديمة. ويتولى النظر في الخصومات بين مسلم ونصراني مجلس مؤلف من حَكَمين أحدهما مسلم والآخر نصراني ويفرج عن جميع أسرى غرناطة والبيازين وأرباضهما وتوابعهما الموجودين في الأندلس خلال الأشهر الخمسة التي تعقب إبرام المعاهدة. ويتعهد الملك الإسباني لجميع السفن الآتية من العدوة (المغرب) أن ترسو في موانئ مملكة غرناطة مع حرية التنقل والأمن.

وقد أبرمت في نفس اليوم الذي وقعت فيه معاهدة تسليم غرناطة معاهدة سرية كملحق للأولى تضمنت الحقوق والواجبات والالتزامات والامتيازات التي أعطيت لأبي عبد الله الصغير وأفراد أسرته وحاشيته وقد مثل الملك في التوقيع القائد أبو القاسم المليح وذلك بعد أن يتم تسليم الحمراء والحصون والقلاع مقابل تمتع أبي عبد الله وورثته بحق الملكية في أماكن أحد عشر وقع التنصيص عليها ودفع هبة إلى الملك المسلم قدرها 30.000 جنيه قشتالي من الذهب تعادل (550.000) مرابطي بعد تسليم الحمراء وبقية القلاع وعند رغبة الملك أبي عبد الله والملكات وزوجة مولاي أبي الحسن علي والدة الملك العبور إلى العدوة فسوف تجهز لهم سفينتان كبيرتان من مدينة جنوة للجواز متى يشاءون ويحوزتهم كل أموالهم مع تأمين وصولهم لأي مكان معروف سواء بالمغرب أو الأسكندرية أو تونس أو وهران، وقد ذيل الاتفاق بتوقيع الملكين اللذين أديا القسم بدينهم وأعراضهم أن يصونوا المعاهدة إلى الأبد.

حملة التنصير والتهجير

وتولى إدارة غرناطة نيابة عن الملكين مجلس كان على اتصال سري بالبابا الإسكندر السادس الذي كان كردينالاً وأسقفا لبلنسية . وقد اعتبر المجلس شروط المعاهدة باطلة فقرض على المسلمين أحد أمرين وهما التنصير القسري أو التهجير القسري حيث صدر أمر منذ ثاني يناير 1492 بإحراق مليون وخمسمائة ألف كتاب ديني بما فيها من الوثائق والمخطوطات لإبعاد المسلمين عن مصادر عقيدتهم (Francisco Piferrer, Nobiliario de los reinos y senorios de España T. VI, Madrid ,1860, p.138)

وقد استعمل الاسبان لضمان التنصير أخذ الأطفال المسلمين الذين تتراوح أعمارهم ما بين 5 و 12 سنة لتربيتهم في المعاهد المسيحية وإعادتهم إلى أهلهم كجواسيس عليهم وكانت الملكة إيزابيلا أشدّ تعصبا في ذلك من زوجها فرديناند . وفي أول سنة 1500 تقرر إرسال الرهبان إلى مملكة غرناطة للتبشير بالكاثوليكية ريثما يتم التنصيرالقسري بالعنف والتشريد حيث تم تأسيس 120 كنيسة لهذه الغاية في بلنسية عام 1535م، وتكتل كل رجال الكنيسة ضد المسلمين عدا الأب إيرناندودي تالافيرا مطران غرناطة الذي درس العربية وأظهر رفقا وتسامحا (Villa Real y Valdivio في كتابه دروس أولية لتاريخ تقدي لاسبانيا طبعة غرناطة 1890 ص 382) وقد حُرم المدجنون (وهم المسلمون الذين ظلوا على دينهم بين الاسبان قبل سقوط غرناطة وألحقوا بمصير الموريسكيين المقيمين في غرناطة) من اقتناء الأراضي لتوطين الاسبان في أماكنهم ومزجهم بالنصارى حتى يفقدوا كل صلة بدينهم ولغتهم (Perez Bustamante c. في كتابه جماع تاريخ اسبانيا، طبعة

مدريد 1960 ص 359) وأدى بهم ذلك إلى تهديم كل الحمامات العمومية لمنع المسلمين من الغسل في مجموع أنحاء غرناطة وفرض عليهم ضرائب جديدة ضمن مختلف التعسفات التي أدت إلى ثورة المسلمين مرارا عديدة بل عزل المسلمون عام 1498 عن بقية المجتمع الإسباني تمهيدا للتنكيل بهم فأزهقت أرواح الأبرياء. (تاريخ مارمولْ حول ثورة الموريسكيين في مملكة غرناطة الطبعة الثانية م .1 مدريد 1797 ص 112) وتم حرق آلاف الأشخاص على يد محاكم التفتيش التي سبق تأسيسها منذ القرن الثالث عشر الميلادي من طرف الكنيسة الكاثوليكية لتحمي نفسها من الديانات الأخرى وقد تعززت في اشبيلية عام 1480 ثم قشتالة وأراغون عام 1482 ثم امتدت عام 1516 إلى قطلونْية وبلنسية وحتى أمريكا إلى أن اختفت في القرن التاسع عشر Orti y Lara Juan Manuel في كتابه «محاكم التفتيش مدريد 1877».. وقد تأججت نيران الثورة الإسلامية في البشرات عام 1501 وفي عام 1499 (البيازين) فاضطر المسيحيون الموريسكيين والمسلمين من أصل اسباني المعروفين ب Elches[1] الذين كانوا في طليعة من أخذتهم الكنيسة لتربيتهم وإجبارهم على العودة إلى النصرانية) فشكل الثوار مجلسا من أربعين[2] عضوا ليمثلوا حكومة موريسكية مستقلة منفصلة عن الإسبان[3] وبعد تهدئة سطحية للثوار قرر الملكان الكاثوليكيان تعميد المسلمين قسرا ضمن «محاكم التفتيش» فلجأ الموريسكيون إلى رؤوس الجبال يتحصنون بها ويشنون من معاقلها غارات على الأسبان فكان رد فعل الملكين إصدار أمر عام 1501م يحرّم على الموريسكيين ممارسة كل ماله صلة بعقيدتهم ولغتهم فتزايد الاعتصام بمراكز المقاومة في الجبال ولعل هذا التدبيرالجديد هو الذي كان أحد أسباب ثورة منطقة البشُرات جنوبي غرناطة

في نفس السنة وكذلك في « قرية سيرأدي فيلا بريس » بالمرية فقام الاسبان بتقتيل النساء والأطفال والشيوخ في قرية « غويخار سيرا » التي التحق رجالها بالمجاهدين الذين عز عليهم تحويل مساجدهم إلى كنائس فحرقوا إحداها في «مونديخار» وفي قرية عمل أهليا على إجبار الملكين على الوفاء بشروط معاهدة غرناطة خاصة بعد استيلاء الموريسكيين على عدة قرى، ولكن قوات الأسبان تمكنت من إخماد الثورة عام 1502 فتضاعف الاضطهاد[8] ونكث الإسبان معاهدة بسُطة التي سمحت عام 1501 للمسلمين بالاطلاع على جوانب من الثقافة العربية واستعمال ثيابهم وحماماتهم فحظروا عليهم صراحة تطبيق الشريعة الإسلامية واقتناء الكتب الدينية لاسيما منها المصحف الشريف. ولم يتمالك الإسبان أنفسهم أمام هذه الثورات العارمة إلا أن جعلوا الموريسكيين أمام أحد خيارين: التنصير القسري أو التهجير خارج إسبانيا وتم بالفعل تمسيح أكثر من 50000 مسلم في غرناطة وضواحيها علاوة على تحويل مسجد العاصمة إلى كنيسة كبرى وكذلك مسجد البيازين وإجبار المسلمين على نبذ ملابسهم العربية ولبس القبعات وترك لغتهم وتقاليدهم وأسمائهم العربية وتعويضها بالإسبانية مما يفسر ما اضطر الموريسكيون إلى حمله من ألقاب أجنبية في مهاجراتهم بأرض المغرب[9] وهنا وجه الموريسكيون نداءات حارة إلى إخوانهم خارج العدوة فاستخدموا ملوك المغرب حيث كان قد صدر منذ عام 637 هـ ظهير شريف للخليفة الرشيد منح حق الاستيطان وخاصة الرباط لأهل شرق الأندلس[10] كما استغاثوا بالخليفة العثماني بايزيد الثاني (1481-1512) الذي اكتفى نظرا لمشاكله الداخلية بتوجيه كتاب إلى الملكين الكاثوليكيين فلم يعيراه كبيراهتمام واستنجدالموريسكيون كذلك بالملك الأشرف قانصوه

الغوري (1501-1516) سلطان المماليك بمصر والشام الذي هدد بإجبار نصارى بلاده على الدخول قسرا في الإسلام وذلك عن طريق وفد رسمي وجهه إلى اسبانيا ولكن الإسبان واصلوا اعتداءاتهم الصارخة المتنافية لشروط الاستسلام. وإزاء تقاعس العالم الإسلامي عن نجدتهم اضطر الكثير منهم إلى قبول الأمر الواقع متظاهرين بالدخول في المسيحية بينما هاجر آخرون إلى نواحٍ مختلفة منها جنوب فرنسا الذي نجد فيه منطقة تحمل اسم الموريسك بل غامرالبعض فرافق (كِرِسْطُوفْ كُولمب) في رحلته الاستكشافية إلى أمريكا. وهكذا ظل معظم الموريسكيين منتشرين في أنحاء غرناطة والمَرِيَة ووادي آش وبَسْطَة متظاهرين بالمسيحية مع مواصلة التمسك سرا بالشعائر الاسلامية تقية وخوفا من بطش محاكم التفتيش. وامتد السطو إلى المدجنين في بَلَنْسِية وأرَغُونْ، غير أن الإسبان شعروا بسهولة هذا التنصيرالقسري فنهجوا أسلوبا جديدا هوالتهجير الإجباري الذي مسَّ حتى مسلمي قرطبة وقشتالة واشبيلية وليون واتخذوا في حق اليهود الاسبان نفس الخطة وسموهم «ماراتوس» «Maranos» محتفظين للمسلمين بلقب «موريسك» على أن طرد اليهود الاسبان قد صدر في حقهم مرسوم ملكي قبل ذلك بتاريخ (31 مارس 1492). ثم عمم نفس الإجراء منذ عام 1499 ضد المدجَّنين، وقد وقع الإسبان في حيرة كبرى أمام تضخم ردود الفعل الموريسكية وتجددت الثورات عامي 1567-1570 في غرناطة مما حمل الاسبان على نقل الغرناطيين إلى قَشْتالة ثم ثارت أرغون عام 1585 وأصدر الملك الإسباني فيليب الثالث عام 1609 مرسوما لنفي أندلسيي بلنسية مع منعهم من بيع أو اتلاف أملاكهم ثم نفي (الهورناشيروس). أعقبهم سنة 1610م كل سكان الأندلس وإِسْترِمَادُور Estremadure (منطقة البلاط) واحتفظ

الإسبان بأبنائهم من ست سنوات من بينهم 100 طفل في اشبيلية وحدها . وكان المطرودون 500 27 نقل منهم إلى السواحل المغربية أربعون ألفا (80) (40) وبقي معظمهم قرب السواحل الاسبانية في سبتة وتطوان ومراكز أخرى بـ « العضيق » لاستنشاق هواء الأندلس من حيث توارثوا في تباب قشتالية يتكلمون الاسبانية ويحملون أسماء مسيحية لطول مكثهم بين الاسبان محرومين من تراث أجدادهم الفكري وكتب دينهم ولغتهم ولذلك سماهم البعض مسيحيي قشتالة ووهم الناس في قسم منهم فعقبروهم لهذا السبب وقد علقت مصادر غربية على قرار النفي الصادر في (22 شتنبر1609م/ جمادي الثاني 1018هـ) فوضعت تاريخ القرار عام 1016هـ أو1017هـ غير أن كتاب تاريخ الدولة السعدية يؤرخ الحادث بعام 1018هـ (ص96). وهذه الأحداث والاضطرابات وأصناف التنكيل قد تمت نتيجة استسلام أمير غرناطة للإسبان بعد أن جاهد أجداده للحفاظ على آخر معقل بالأندلس.
وكان علي بن سعد بن نصر قد تربع عرش مملكة غرناطة بعد سلسلة ملوك وأمراء توارثوا أريكة بني الأحمر. وكان قبالته في قشتالة وأراغون الموحدتين منذ عام 1480 الملكُ فرناندو وزوجتُه إيزابيلا. وفي الوقت الذي اتحد أمراء الطوائف المسيحية دب الخلاف بين علي وأخيه محمد أبي عبد الله المعروف بالزغل وابنه المعروف بالصغير الذي نازع من جهته عمه الزغل فنتج عن ذلك تفتت القوى الإسلامية وتشعب الاتجاه وسقوط آخرمملكة إسلامية بالأندلس (يوم ثاني يناير1492/ ربيع الأول 897هـ) أضف إلى ذلك دسائس زوجة الأمير علي (ثريا) الاسبانية إيزابيل دو سوليس Isabel de Solis. وكان لأبي الحسن علي ابن أكبر هو أبوعبد الله محمد الذي حرف اسمه إلى بوعَبْديلْ (Boabdil) وتزعم بعض المصادر الأسبانية[1] أن والدين

هما سَعِيد و نصْرٌ من إنجاب الزوجة القشتالية رافقا والدتهما بعد سقوط غرناطة واعتنقا المسيحية.[12] وانهارت قوة أبي الحسن منذ عام 1478 حيث طلب من الملكين الكاثوليكيين مهادنة أبناها أول الأمر ثم أذعنا بعد نصر خاطف لبني نصر ولكن الأمر المحتوم وقع بسبب اطِّراد الصراع بين الأمراء المسلمين فاحتل الاسبان بلدة «الحمَّة» عام 1482م/ 887هـ مما حدا الأمير أبا الحسن إلى إرسال سفارة إلى فاس مستنجدا بملك المغرب ولكن الأحداث توالت بسرعة فتراجع الأمير علي إلى مدينة غرناطة ووقع جنود مسلمون في الأسر وفي ضمنهم أبوعبدالله الصغير الذي نقل إلى قرطبة ومنها إلى قلعة «بُركونة» وبعد تحريره من القيد اتجه لاجئا إلى قرطبة فحماه القشتاليون ضد والده الذي مالبث أن تنازل عن الملك لأخيه «الزغل» إلى أن توفي عام 1485 فدفن بروضة الأمراء في غرناطة وهنا زحف أبو عبد الله الصغير صوب غرناطة فتزايد ضعف كليهما باقتسامهما مملكة غرناطة مناصفة فكان للزغل مالقة والمرية والمنكب والبشرات (Alpujarra) ولابن أخيه مُرْسية وما تبقى من المملكة فاستقر «الزغل» في قصر الحمراء وسطا أبو عبد الله على حيِّ البيَّازين فنزل بها وحارب عمه تلبية للملك فرْناندو بتحريض من أمه الإسبانية فازدادت شعبية الزغل الذي واصل انتصاراته ضد الاسبان مما أدى إلى مجاوزر استبعاد أبو عبد اللّه غرناطة على أشلاء إخوانه المجاهدين المسلمين يوم 26 رمضان 892 هـ/15 شتنبر1487 فقرر الزغل في غبر حيا «الانضواء» تحت لواء الإسبان ضد ابن أخيه الخائن متنازلا لهم عما كان بيده من أقاليم بين وادي آش وغرناطة مقابل احتفاظه بـ «بَسْطة» والمرية اضطر لتسليمها بعد ثلاث سنوات (895 هـ/1489) بعد خيانة ابن عمه يحيى النجار الذي تزعم المصادر الاسبانية أنه تمسح فلُقِّب الغرناطي بتبغيش



Vegas وهنا اضطر الزغل إلى استيذان الإسبان في الجواز إلى المغرب الذي لم يقتبله ملكها المريني بحفاوة نظرا لصداقته مع أبي عبد الله الصغير بل نكل به على ما زعمه «مارمول» في كتابه «تاريخ الثورة وعذاب مسلمي غرناطة المتنصرين» م 1 ص 78). فلم يلجأ إلى «بادس» كما يزعم «مارمول» بل توجه إلى وهران ثم تلمسان طبقا لما كتبه المقري في «نفح الطيب» (ج 6 ص 275 طبعة مصر 1988) ثم جاء دور أبي عبد الله الصغير فأرغم على تسليم غرناطة وطُرد من اسبانيا بعد خيانة وزيره يوسف ابن كماشة فغادر الأمير بلاد الأندلس في أواخر ذي الحجة 898 هـ/اكتوبر 1493) إلى فاس مع ذويه وكامل حاشيته. واستقبلهم السلطان محمد الشيخ الوطاسي فعاش في كنف البلاط الملكي إلى أن توفي بعد زهاء نصف قرن (940هـ/1534م) (النفح ج 6 ص281).

أثار هذا النكال والعسف الذي أصاب الموريسكيين المتنصرين وكذلك بقية الأندلسيين و آخر ملوكهم الأمير عبد الله موجة من الاستنكار في العالم الإسلامي وحتى داخل الأندلس حيث تقدم ثلاثة ممن أجبروا على التمسح بمذكرة بمظالم إخواتهم الموريسكيين حول مالحقهم من اضطهاد وتنكيل منذ سقوط غرناطة وحتى من طرف شارل الأول عام (924 هـ/1518) فكان ذلك ذريعة للتشديد على الموريسكيين وصهرهم بالقوة في المجتمع النصراني فتفاوض الموريسكيون الثلاثة سرياً مع الملك شارل الأول فألغيت القرارات الجديدة التي شددت المراقبة على استعمال اللغة الاسبانية وحدها وترك كل ما يذكر الموريسكيين بصلتهم بالشريعة الإسلامية (ترك الاحتفال بالأعياد وإقامة حفلات الزفاف في الكنيسة وبناء معاهد كاثوليكية لتربية أبناء المسلمين على الدين المسيحي وغير ذلك). وتم

هذا الإلغاء عام 1526م مقابل دفع الموريسكيين للملك 80.000 دوكة [24]. ولكن القرارات مالبثت أن أعيد العمل بمقتضاها عام 1559م فتزايد التنكيل الذي عم مسلمي طُلَيْطلة وسِيقُوبِية ومَنْتُورة وسالامنكا وبلنسية وأرغون وقطلونية. وفي هذه الظروف الحالكة اضطر ألوف المهاجرين الى الانتقال عام 1016هـ أو1017 وقيل 1019هـ إلى فاس وتلمسان ووهران وتونس حيث أوسع لهم صاحبها حسب ماجاء في «الخلاصة النقية في أمراء افريقية» (عثمان داي) كنفه فبنوا نحو عشرين قرية وعلموا الناس الحرف وتقاليد الترف وقد تعرض لهم المقري في «نفح الطيب» (ج 2 ص 617 طبعة مصر 1302) فذكر أن ذلك كان عام «1017هـ» وأنهم ذهبوا كذلك إلى تطوان وسلا والرباط ومصر والشام وقد سلم أكثر من نزحوا إلى تونس في حين تسلط الأعراب عليهم في فاس وأحواز تلمسان فنهبوا أموالهم وقد وصلوا سالمين إلى تطوان وعُدْوَتي أبي رقراق وفسحة الجزائر(نشرالمثاني ج 1 ص 101) وكان عددهم نيفا وستمائة ألف «الأنوارالسنية» لمحمد بن عيادرقيع الأندلسي الذي عاصرهذه الأحداث وقد أسس المهاجرون بتطوان «رباط الأندلس» بحَوْمَة السانية حوالي عام 1020م (تاريخ تطوان – داود ج 7 ص 182 نقلا عن أبي محمد سكيرج). وقد أوردت هذه الأحداثَ مراجعُ عربية: «تاريخ الدولة السعدية» ص 38/ «نشرالمثاني» ج 1 ص 105 «الاستقصا» ج 3 ص 100) /تاريخ تطوان ج1ص 420) إلا أن صاحب «الاستقصا» لاحظ أن أول فوج من المهاجرين كان عام 897هـ/1481 أي بعد استيلاء الاسبان على غرناطة بست سنوات. ويظهر أن الهجرة تمت في فترات وأن ملك المغرب قد عمل على الاستفادة من هؤلاء المهاجرين لتعمير السواحل والحواضر الهامة.

والواقع أن عددا كبيرا من النازحين الأندلسيين قد وصلوا إلى المغرب في عهد الخليفة السعدي عبد الله الغالب بعد عام 977هـ/1570م فأدمجهم في جيش سماه جيش الأندلس تحت قيادة سعيد الدغالي. وكان هؤلاء الغرباء قد نزلوا بتطوان والرباط ومراكش، وأقطعهم السلطان أراضي بالجانب الغربي من فحص مراكش وهو رياض الزيتون. مناهل الصفا، مختصر الجزء الثاني ص 20 وقد أصبح قائد هذا الجيش في عهد أحمد المنصور هو محمد بن زرقون المعروف بالكاهية. وثائق دوكاستر، س. أ-السعديون ج. 1 ص 484- 532 ج. 2 ص 45/ والاستقصا ج 3 ص 40)[1] وأول من وصل من الأندلسيين[2] الهورناشيروس Hornacheros الذين احتفظوا بأموالهم لأن فرارهم من الأندلس كان طواعية من تلقاء أنفسهم وقد بلغ عددهم 800 رجل تحملهم السلطان مولاي زيدان واضطربت الحياة في العُدْوتين بمجيئهم وقد استقروا بالرباط حيث ساعدتهم أموالهم على تسليح سفن قرصنة انطلاقا من معقلهم في (القصبة) وكانت العدوتان آنذاك خاضعتين عام 1609م / 1018هـ للمولى زيدان بن منصور السعدي غير أنهم عمدوا في نفس الوقت حسب مذكرة مؤرخة سنة 1621م / 1031هـ إلى تجديد بناء الرباط ولم يعارض المجاهد العَيَّاشي في نزولهم بالقصبة التي قاموا بتحصينها بسور وأبراج وبنوا دورا وأفرانا وحمامين اثنين وجلبوا على حسابهم أندلسيين من باقي أنحاء المغرب وأسكنوهم خارج القصبة فما لبثوا أن تحرروا من ربقة المولى زيدان الذي كان يرغب في إدراجهم في جيشه فطردوا القائد الزعروري واضطر زيدان إلى التنازل لهم عن مداخيل ديوانة (الجمارك) المرسى. وفي عام 1627م/1037هـ استقلوا تماما عن المملكة وطردوا القائد عجيب وشكلوا ديوانا على نسق آيت الأربعين. بكل من الأندلس والأطلس (راجع آسـ

الأربعين) وكان عدد أعضائه ستة عشر رجلا وقد سيطر الهورناشيروس على أندلسيي «رباط الفتح» طوال خمس عشرة سنة (1622-1641م-(1037-1051هـ) معززين بالدخل الجمركي الذي ساعدهم على التسلح ضد سكان العدوتين. فلم يسع العَيّاشي إلا التحرك عام (1630م/1040هـ) لاحتلال القَصَبة فبدأ يناور بين سكان شقّي الرباط (المدينة والقصبة) الذين بادروا بالتصالح فيما بينهم لا سيما وأن القبائل المجاورة كانت تتربص بهم فاتفقوا على قائد يقطن القصبة ينتخبه سكان المدينة مع الحصول على ثمانية أعضاء في الديوان ونصف مداخيل الديوانة. وكان قائد الهورناشيروس هو عبد القادر سيرون وقائد أندلسيي الرباط هو عبد الله بن علي القصري وكان العياشي يجاهد آنذاك ضد إسبان «المعمورة». فاتهم كل من لم يساعده على محاربة العدو في المهدية (أي المعمورة) والعرائش لاسيما وأن الأندلسيين امتنعوا من إمداد العياشي بمدافع ولعلهم كانوا يخشون أن ينقلب ضدهم وأن يحاربهم بسلاحهم فغضب العياشي واستصدر فتوى من العلماء لمحاربتهم فحاصر كلا من القصبة والرباط وأشعل فتيلة النزاع والصراع بين العدوتين خلال عشر سنوات (1631-1641م) إلى أن توفي في هذه السنة فاستقر ولده مع 500 فارس في شالّة للحيلولة دون إمداد الضفة اليسرى للوادي وقد استنجدت الرباط بالمولى الوليد منذ عام 1632 فرفع العيّاشي الحصار ولجأ إلى منطقة الْغرب. وفي عام 1636م/1046هـ استولى الأندلسيون بالحيلة على القصبة وطردوا منها الهورناشيروس الذين لجأوا إلى سَلاَ بالقرب من العياشي وأصبح القَصْري الرئيس الوحيد فقرر الاستيلاء على سَلاَ وبنى قنطرة من المعديات (قوارب) لنقل عتاده وجنده وحاصرالمدينة خلال شهرين (يناير وبراير من

عام 1637 فاستغاث السلاويّون بالعياشي الذي هب بسرعة معززا بالأميرال الأنجليزي رانسبوروغ Rainsborough الذي رابط بأسطوله بدعوى تحرير الأسارى الأنجليز فحطمت مدافعه القنطرة وقنبلت القصبة والسفن المرابطة بالمرسى فانحاز القائد القصري إلى الرباط فعمد العياشي إلى محاصرة القصبة للمرة الثانية مستنجدا بالأمير السعدي الأصغر الذي وجه محلة. لم تستطع الوصول إلى الرباط نظرا لاتفاق العياشي آنذاك مع الأمير الدلائي محمد الحاج وكان الإنجليز قد أظهروا الميل إلى المخزن فأخضعوا القصبة وسلموا القصري إلى السلطان الذي استمع إليه وأدرك بعض أسرار الدسيسة فأرجع القائد القصري إلى الرباط لاستئناف مهامه حيث بادر بإعدام الثوار وتزعم المصادر الأجنبية أن سكان القصبة فكروا خلال هذه الفترة المضطربة في تسليم القصبة للمسيحيين[17] ففاوضوا عام 1639م/1049هـ مبعوثا اسبانيا هو الدون خُوانْ دي طوليدو Don Juan de Toledo الذي ورد بحرا من المعمورة واتفقوا معه على تسليم القصبة لملك اسبانيا الذي كان يعتزم توجيه خمسمائة جندي لاحتلالها ولكن القائد القصري أفشل المناورة الأسبانية. وفي عام 1638 رفع العياشي الحصار على الرباط بعد مقتل القصري فجدد الهورناشيروس محاولتهم احتلال القصبة بعد أقل من ثلاثة أشهر فحاصروا بها الأندلسيين دون أي تدخل من السّلاويّين. وهنا استغاث الأندلسيون بالدلائي محمد الحاج وكان للعياشي ضلع في حصار القصبة فاستمالة الأمير دون خُوانْ وأجبر الهورناشيروس سكان الرباط على رفع الحصار عن القصبة عام 1640. فانهزم العياشي الذي قتل في 30 أبريل 1641 وبعد موته انصاعت العدوتان مع القصبة للدلائيين، وكان العياشي قد كتب للأمير محمدالحاج ملاحظا أن اختلاف الفريقين يمس بالإسلام نظرا

لاتفاق جانب ضد آخر مع الأعداء، وقد اتهم العياشي أندلسيي الرباط بخيانة قضية الإسلام عند حصار المعمورة ضايرو وصمهم بنصاري قشتالة ووسخ مانذاك تنابز وتصارع سكان العدوتين[18] وهنا اشتد الصراع بين الضفتين وإن كان الدلائيون قد امتلكوا المراكز الثلاثة في معصب أبي رقراق إلى عام (1071هـ/ 1660م) دون نزاع ولكن الأندلسيين والهورناتشيروس لاحظوا شدة وطأة الدلائيين الذين هاجموا القصبة مع السلاويين فانبرى «الخضر غيلان» لمحاربة جيوش الدلائي وحاول قائد الرباط السطو على القصبة ففر قائدها حسب المصادر الأجنبية في سفينة أنجليزية وفي 16 أبريل 1661 استسلمت القصبة فاتفق الثلاثة (العدوتان والقصبة) على اقتسام مداخيل الجمرك. وفي ثالث مايو من نفس السنة خضعت القصبة للخضر غيلان وعيّن أحمد الجندي قائدا عليها فطرده أحد إخوة غيلان وخلفه القائد عبد القادر مرينو بانتخاب مشترك من الأندلسيين والهورناتشيروس كما عين الحاج محمد فنيش على رأس مدينة سلا ولكن هذه الفوضى التي استمرت عقودا من السنين حاول الأعداء استغلالها لتركيز نفوذهم بالمغرب قد جعل لها حدا الأمير العلوي مولاي رشيد في يونيه 1666م /1077هـ عندما تمكن من الاستيلاء على المنطقة دون اصطدام فكان ذلك آخر مرحلة لاضطراب الحياة في العدوتين.

الأندلسيون في العهد العلوي

ظل سكان الرباط في أغلبهم أندلسيين وإن كان مهاجرون آخرون قد انضافوا إليهم من مختلف أنحاء المغرب[19] وقد واجه المولى إسماعيل مشاكل شتى عند اعتلائه عرش المملكة فبادر من أجل تحرير الجيوب التي

كان يحتلها الإسبان وتوحيد البلاد إلى تعزيز جيشه بمشرع الرملة بين سلا ومكناس حيث بلغت أعداده مائة وخمسين ألف رجل فحرر السلطان المجاهد المعمورة عام 1029هـ/1681م والعرائش عام 1101هـ/1689م وأصيلا عام 1104 هـ/1692م وطنجة عام 1096هـ/ 1684م وواصل الاتصال بفرنسا للحصول على السلاح فاصطدم بقضية الأسرى المغاربة الذين كان ملك فرنسا لويس الرابع عشر يستخدمهم في زوارقه، وقد جعل المولى إسماعيل حداً للاضطرابات التي كانت ناتجة عن وجود أمرا، طوائف مستقلة وعن تنازع الإخوة الأندلسيين في عدوتي أبي رقراق وذلك بتأسيس 76 قلعة على طول البلاد وعرضها. على أن الصراع بين العدوتين قد انتهى عمليا في عهد الرشيد حيث خضعت الرباط وسلا للسلطة المخزنية وأصبحت القصبة معقلا حربيا للسلطان، وبذلك استطاع المولى الرشيد منذ عام 1082 /1671 تعيين قائد واحد للمدينتين. ومن الرباط أحد مراكزه الاستراتيجية توجه المولى الرشيد ضد الدّلائيين فانتصر عليهم في 8 محرم 1079 وضد الشبانات بمراكش في نفس العام وضد ايليغ بسوس في 15 صفر 1081 فأعلنت السُّوس طاعتها وتوحد المغرب بعد جهاد دام سبعة أعوام هي مدة حكم المولى رشيد الذي عزز تحصين الرباط ببناء قلعة قرب القصبة.

وفي عام 1697/1109 تحدث القنصل «إيستيل» Estelle عن وجود قائد لكل عدوة وخضوع القصبة لقائد خاص وبجانبه قائد للمرسى يهتم بالتجار الأجانب وبالملاحة. وكان القواد خاضعين للسلطان حيث سجن المولى الرشيد أحدهم عام 1669/1080م نظرا لسوء معاملته لاثنين من الرعايا الإنجليز ولم يكن ذلك خوفا من دول أجنبية وإنما رعاية لحقوق الأجانب ومصالحهم

المشروعة [20] وقد قام المولى إسماعيل بنفس العمل ضد قائد ماخرعام 1111هـ/1699م.[21] ولهذا لم يقع أي اضطراب في المنطقة أيام الأميرين الرشيد وإسماعيل. وكان القواد آنذاك هم أحمد بن حدو والحاج عبد القادر مرينو والحسن بن محمد أسْكيردو والعلج عبد الله الحاج قائد سلا[22].
وكان قائد القصبة عام 1682 زنجيا هو سعد علال بولعوان البخاري الذي ظل قائدا إلى عام 1686[23]. وفي عام 1099هـ/1687م لم يعد مينا، أبي رقراق يتوفر على أكثر من ثمانية إلى عشرة مراكب حربية مسلحة والواقع أن القراصنة كانوا يثيرون مشاكل. ففي عام 1670م هاجمت ثلاث بواخر إنجليزية مراكب القراصنة وكذلك الأسطول الهولندي. وفي نفس السنة أغارت القطع الحربية الفرنسية على الميناء مرارا (أعوام 1670-71-1681) فأسرت قراصنة وكان المولى الرشيد قد أمر يوم 30 يوليوز 1671 والي القصبة بمواجهة أسطول الأميرال الفرنسي «دبستْري» d'Estrées بأفواه المدافع (راجع تاريخ فتوح الرشيد ص 154) فأطلق الفرنسيون في ساعة ونصف مائة قذيفة دون أن تتضرر من ذلك المدينة ولا القصبة وفي عام 1681 أسر الفرنسيون خمس بواخر قرصانية وحطموا بعضها ونظرا لصعوبة الدخول إلى الوادي بسبب الحاجز الرملي (La Barre) اكتفى الفرنسيون طوال ربع قرن (1700- 1726) بمراقبة الساحل دون الوصول إلى الميناء. وكانت للمولى الرشيد بواخرعام (1671) وأصبح للمولى إسماعيل ستة أو ثمانية مراكب عام (1698) وقداستطاعت منذ عام 1694 إطلاق نيران مدافعهاعلى بواخر أنجليزية كانت تحمل العلم الأبيض، وكان مقصودها تحرير الأسرى الذين بقي عددهم 250 رجل.[24] وكان المغرب يستورد العتاد ومواد صناعة السفن من هولندا وظل مع ذلك بعض الخواص مثل عبد الله بن عائشة أميرال

سلا وسفير المولى إسماعيل بفرنسا عام 1698 يملكون مراكب فرصنية، وبذلك تقلص عدد المراكب الجهادية التي تراوحت فترة ازدهارها بين سنتي 1630 و 1660 ولم يعد للقراصنة عام 1660 سوى سبع فركاطات ومركبتين وأصبح ميناء الرباط وسلا مع ذلك أبرز مركز مع تطوان للمتاجرة مع الدول المسيحية وانقضى بذلك عهد السطو الإسباني على الميناء من المهدية التي حررها المولى إسماعيل كما حرر العرائش وأصيلا وطنجة وكان الاسبان قد اتخذوا من المعمورة (المهدية) قاعدة لهم طوال سبعين سنة من عام 1022 هـ إلى 1092هـ (1613 - 1681م) وقد بلغ عدد البواخر الفرنسية والهولندية والإنجليزية التي ترددت على المرسى طوال سبع سنوات (1720 - 1727) مائة سفينة معظمها انجليزي الجنسية تقلت إلى المغرب عن طريق ميناء الرباط القطنيات والورق والأفيون والزجاج والجوخ والقماش وأنسجة الكتان والتوابل والبارود والسلاح ومواد صنع السفن. وقد مارس كل من الانجليز والهولنديين تجارة التهريب مقابل مواد مغربية هي الجلود والأصواف والصمغ والنحاس لتذويب المدافع والمدافع (الأبيون) وحتى الذهب رغم تحظير إصداره بالمغرب.

وعندما حاصر الإنجليز مصب أبي رقراق عام 1684 أمر السلطان التجار الإنجليز بمغادرة جميع مراسي المغرب وكان الفرنسيون آنذاك يحظون بمعاملة حسنة من طرف المولى إسماعيل مما أدهش الرباطيين، ولعل ذلك راجع لعدم الخوض في غمار التهريب قبل سنة 1697، غير أن التبادل التجاري مع فرنسا أوقف عام 1687 لأكثر من سنة وكانت رسوم الإصدار والإيراد قد بلغت عُشُر قيمة البضاعة فوصل دخل الديوانة خلال عام ونصف (من يناير 1697 إلى يونية 1698) حسب القنصل إستيل (Estelle) في ميناء الرباط

وحده 20.000 ليرة دفع الفرنسيون منها خلال عام 1698 نحو عشرين ألف ريال فرنسي. وكان حيّ القناصل بالمدينة غاصا بقناصل إنجلترا وهولندا وفرنسا وممثلي بعض الدول الأوربية من اليهود علاوة على تجار مسيحيين كانوا يشترون من القراصنة غنائمهم لبيعها بأوربا مع إفراد أمريكا الجنوبية بمواد خاصة هي الخمور والزبد والزيتون والبرتقال واللحوم والأسماك المملحة. وظل التبادل مع فرنسا موصولا خلال عقدين من السنين إلى عام 1718 حيث أغلقت القنصلية الفرنسية وكان عدد التجار الفرنسيين بالرباط خمسة معظمهم من البروتستانت يمزجون التجارة بالتبشير وكان من بينهم Pillet الذي اعتنق الإسلام وتولى مناصب مخزنية وظل يواصل تجارته ضمن التجار الرّباطيين مسلمين ويهود. وقد تولى عمالة الرباط أبناء المولى إسماعيل وهم عبد الكريم (عام 1130هـ/1717) وأعقبه في نفس السنة الأمير المهتدي. وعندما ضعف أمر السلطان المولى عبد الله بن المولى اسماعيل وتشعب حكمه عام 1166هـ/1752) عاد الأندلسيون إلى تمردهم فشكلوا مجلس الأربعين مع الحفاظ على النظام النيابي الذي أقامه العلويون.

الهوامش

1) كذلك ابن خلدون ج 4 ص 279 ، الحلة السيراء لابن الأبار ج1 ص 88 طبعة 1963.

2) كان في قرطبة وحدها نحو المليونين ولما اخرج الإسبان المسلمين واليهود وهاجروا إلى أمريكا هبط عدد سكان اسبانيا . ففي سنة 1600 كان نحو تسعة ملايين (ص 143) وفي عام 1768 (9.300.000) وفي زمن آل بوربون 10 ملايين وفي عام 1812 صار 11 مليونا وسنة 1849 كانوا 14 مليونا وفي أوائل القرن العشرين صاروا 21

ملعونا وبذلك أصبحت الأندلس بعد خروج المسلمين منها «بنيسة». وقد أوصى المنصور الموحدي والد الناصر لدى احتضاره بالأيتام والبنيسة فسأله عنهما الشيخ أبو محمد عبد الواحد فأجابه المنصور: «البنيسة هي جزيرة الأندلس والأيتام سكانها». (البيان لابن عذاري ج 3 ص 24 طبعة الرباط 1960).

3) كانت وقعة طريف Tarifa أو معركة البرغاز Bataille de Salado عام 741هـ جمادى الأولى /1340م حسب النفح فكانت نهاية الجهاد المريني بالأندلس والتخلي عن الدولة التي ما لبثت أن لقيت مصرعها المحتوم بعد أن استسلمت (عام 743هـ / 1342م) بالجزيرة الخضراء وظل جبل طارق وحده في يد المسلمين إلى عام 1462م / 867 هـ ثم غرناطة إلى عام 1492م / 898 هـ (النفح ج 6 ص 517 / الاستقصا ج 2 ص 165).

4) كانت مملكة غرناطة عند الاحتلال تشمل مالقة وغرناطة والمرية (راجع سلسلة أبحاث الدكتور محمد عبده حتاملة التي نشرتها الجامعة الأردنية ابتداء من عام 1408هـ / 1988م).

5) قارن هذه الكلمة بكلمة (علج) وهو الذي يقصد به معتنق الإسلام من النصارى.

6) مجلس الأربعين هنا شبيه بأيت الأربعين عند الأمازيغيين الذين رابطت منهم الآلاف ضمن حاميات الحواضر الأندلسية منذ عهد المرابطين ويلاحظ شكيب أرسلان (الحلل السندسية ج 1 ص 125) أن كثيرا من المؤرخين يذهبون إلى أن الايبيريين الذين هم سكان اسبانيا الأولون هم والبربر من أصل واحد ويستدل على ذلك بالتشابه بين عادات الفريقين من ذلك ما رواه سترابون من أن المرأة كان لها المقام الأول عندهم إلى زمن الرومانيين وهذه العادة معروفة الآن عند الطوارق في صحراء افريقية وهذه نظرية لا ترتكز على أساس علمي.

7) كتاب مارمول حول ثورة الموريسكيين في مملكة غرناطة - الطبعة الثانية مدريد 1797 م 116.

8) من مظاهره ما حكاه المؤرخ الانجليزي بريسكوت من نسف الاسبان لمسجد بالبشرات مليء بالنساء والأطفال في كتابه (تاريخ ملوك الكاثوليك) ج 3، مدريد 1888 ص William Prescott 189

9) وقد شمل الاضطهاد حتى المدجنين وهم المسلمون الذين عاشوا على دينهم بين الاسبان قبل سقوط غرناطة.

(10) وقد كتب أبو المطرف بن عميرة قاضي الرباط في العهد الرشيدي أزيد من أربعين رسالة إلى رؤساء ووجهاء لمعونتهم والأخذ بيدهم .

(11) Lucio Marineo Siculo, Vida y hechos de los Reyes Católicos, Madrid 1943.

(12) راجع " آل أبي الحسن علي بعد سقوط غرناطة " للدكتور محمد عبده حتاملة م 2

(13) خلافا لما زعمه مارمول كاربخال في كتابه (تاريخ المغرب وأسره المالكة) وكذلك غيره من مؤرخي الإسبان من أنه قتل في معركة أبي عقبة بوادي العبيد عام (943هـ/ 1536) .

(14) ورد في وثائق دوكاستر (س أ - السعديون ج1 ص 88 /1918) أن فيليب الثاني ملك اسبانيا شكل ميليشية جديدة لمواجهة تمرد الموريسك واليهود باسبانيا حيث عثر في قشتالة على مبعوث من سلطان فاس جاء - كالعادة - في كل سنة بجمع الجبايات من الموريسكيين باسم السلطان وقد اعتقل كما اعتقل خمسة من أصحابه وذلك حسب رسالة مؤرخة من مدريد 7 نونبر (1565م/ 973 هـ) موقعة من W Phayre وقد أشار نفس المصدر إلى ثورة الموريسكيين التي امتدت من عام 976هـ/ 1568م إلى عام 1570م/ 978 هـ - كما ورد من قادس عام 1569 أن الثوار يتلقون النجدة من المغرب (ص 104) (راجع دوكاستر - فرنسا ج1 ص 286) .

(15) راجع ديوان أهل الأندلس في كتاب JAHN (Janheinz) : Diwan aus Al- andalus - Nachdichtungen Hispano- Arabischer Lyrik Kas 1949 (150p.)

(16) وكان من بينهم أيضا حسب دوكاستر مهاجرون من Sanlucar و Llerena وقادس.

(17) في عام 1638 أكد القنصل راستاي Rastay أن الأندلسيين كانوا يفضلون الاستسلام إلى ملك اسبانيا بدل العياشي ويزعمون أن القصري فاوض في ذلك الدوق دو مدينة سيدونيا (duc de Medina Sidonia) نظرا لتأزم الحالة وأن الأميرال الإسباني اقترح إمداد السكان بالأغذية والعتاد وإرسال حامية فأبدى نجل القصري استعداده للقبول بينما عارض القائد مراد بل أضاف المصدر الإسباني أن القصري اقترح على الدوق في رسالة خاصة سماح فيليب الرابع للأندلسيين بالعودة إلى اسبانيا مقابل تسليم القصبة والعيش في هدوء بالأندلس مع استرجاع أملاكهم

Coindreau Roger , la República Andaluza de Rabat en el siglo XVII (p. 153 ,161)

18) حكى جان ارمان Jean Armand Mustapha في رحلته عام 1630 أن «عرب الرباط» لم يكن يسمح لهم بالتجول إلى سلا (وثائق دوكاستر ج III ص 136 – الفلاليون).

19) أمثال مهاجري وادي أم الربيع وهم آل فرج والزعيمي والدكالييين وآل الغربي (من مدينة الغريبة) والعبدي (من ناحية آسفي) وآل المذكوري (من المذاكرة)

20) Mémoires de Jean d'Estrées. Decastries. 2e série, France, T.I p. 404 Mémoire de Y.B. Estelle de 1698. T. 4, p 436 Paris 1931.

مويت: 1 تاريخ فتوح الرشيد ص 140.

21) Lettre de Tanger (21-31 déc. 1669). Decastries. 2e série, France, TI, p 288 Estelle 1698. Decastries, 2e série France, T. 417.

22) كان قائدا عام 1726 واسمه الأول Pillet ثم عين قائد المسنا عام 1729.

Journal du voyage de St. Amans. p 324

23) كما في وثائق دوكاستري. 2 فرنسا ج 2 (1693) ج 3 ص 189 باريس 1927.

أضواء على موقف المغرب
تجاه الأندلسيين في العهد السعدي الأول

محمد رزوق

سوف نعرض في هذا البحث لموقف المغرب تجاه الأندلسيين خلال العهد السعدي الأول، وهو عصر له خصوصيته، إذ يتميز بكون السلطة المركزية كانت تمسك بزمام الأمور، وبالتالي فإن هذه المرحلة تختلف جذرياً عن المرحلة السابقة او اللاحقة.

كملاحظة عامة نشير إلى أن السعديين في هذه المرحلة قدموا كافة المساعدات للمهاجرين الأندلسيين على صعيد العمليات الجهادية، خاصة وأن الملوك السعديين كانوا يقدرون جيداً خبرات وإمكانيات هؤلاء، خاصة في مجال السلاح الناري، لذلك حاولوا الاستفادة منهم لتحرير باقي الثغور المغربية، بل ولفتح السودان نفسه.

كما أن السعديين انطلاقاً من الدور المنوط بهم كدولة قامت على الجهاد، كانت تحاول تقديم نفسها للعالم الإسلامي كدولة تدافع عن الإسلام والمسلمين في إسبانيا، وذلك بموازاة مع ما كان يقوم بين الأتراك في أطراف أخرى من العالم الإسلامي. لذا فقد كانت هناك اتصالات متعددة بين الموريسكيين بإسبانيا وملوك الدولة السعدية في هذه الفترة بشأن تقديم

المساعدات لهم لاسترجاع حقوقهم من الأسبان، ولكن الضغط التركي أفشل الكثير من المشاريع الجهادية التي كان الملوك السعديون ينوون القيام بها ضد الأسبان.

حقق محمد الشيخ السعدي كما هو معلوم انتصارات كبيرة على المسيحيين بالمغرب. واستبشر الأندلسيون خيراً بهذه الانتصارات ورأوا فيها مؤشراً واضحاً لبدء العمل مع القائد السعدي الجديد قصد تقديم المساعدة لهم.

وهكذا فقد كان موريسكيو غرناطة يتقاطرون على فاس للانضمام إلى محمد الشيخ. وكانوا يحثونه على توجيه ضربة للإسبان في الصميم، وذلك بالهجوم على الثغور المغربية المحتلة. كما كان للموريسكيين بإسبانيا أمل في أن يقدم لهم العاهل السعدي المساعدات الضرورية قصد القيام بثورة في الداخل، كما يتجلى ذلك في مذكرة إيناسيو نونييس كاطو (Ignacio Nuñez Gato) المؤرخة بسنة 1549[1] وقد عرض محمد الشيخ السعدي فعلاً مشروعه الجهادي على الأتراك لمواجهة الأسبان والبرتغال. لكن الأطماع التركية كانت دائما تحول دون تحقيق هذا التعاون[2].

إذا كانت علاقة محمد الشيخ السعدي مع الأندلسيين علاقة عادية جداً، إذ لم يقع ما من شأنه أن يؤثر في هذه العلاقات، فإن عهد عبد الله الغالب يختلف تماماً عن سابقه.

نشير أولاً إلى أنه اتخذ إجراءات عديدة في حق أفراد الجالية الأندلسية بالمغرب، إذ جمع أفراد هذه الجالية، وأدخلهم إلى الجيش، وتشير الوثائق إلى أن أعيان أهل الأندلس وبيوتاتهم عبّروا عن عدم رضاهم على ما اتخذه

عبد الله الغالب في حقهم واعتبروه إجراء تعسفياً، بل اعتبروه بمثابة استرقاق لهم. وقد حاول السلطان السعدي التخفيف من هذه الإجراءات، فأقطعهم مزارع وضياع في رياض الزيتون بمراكش ترضية لهم، ولكن مع ذلك ظلت الهوة تتسع بينه وبين الأندلسيين، إذ لم ينسوا ما فعله بهم[3].

غير أن أهم تجربة سيمر بها عبدالله الغالب هي موقفه من الثورة الموريسكية الكبرى بغرناطة [4].

اندلعت هذه الثورة في أواخر سنة 1568، ولعل هذا التوقيت كان مخططاً له مسبقاً إذ أن إسبانيا كانت منشغلة بثورة الأراضي المنخفضة (هولندا)، وجندت العديد من سكانها لهذا الغرض، كما أن السواحل الأسبانية كانت تتعرض باستمرار لغارات المجاهدين البحريين، وقد كان لهذه الثورة صدى على الصعيدين الداخلي والخارجي، وشغلت الأسبان والأوروبيين بصفة عامة لمدة سنتين.

ويبدو أن الثورة لم تكن لمطلب آني كرجوع الحكومة الإسبانية عن قرارها السابق، أو السعي لرفع مختلف ضروب الظلم والتعسف عن الموريسكيين، أو الإلحاح على معاملتهم كمواطنين كاملي الحقوق كغيرهم، وإنما كانت ذات هدف ثوري ايجابي عميق، هو إعادة تكوين مملكة غرناطة. وهكذا أعلنوا استقلالهم.

تشير المصادر إلى أن محمد بن أمية قائد الثورة بعث بسفارة برئاسة فرناندو الحبقي، أحد قادة الثورة، إلى السلطان السعدي لطلب المساعدة، كما أكد ذلك أيضاً المؤرخ الجنابي، لكنه في نفس الوقت يؤكد أن السلطان لم يقدم أية مساعدة بسبب قلة الاغربة والمراكب عنده «ولعلة أخرى» [5].

والعلة الأخرى التي تجنب الجنابي ذكرها في تقديرنا هي كون عبدالله الغالب التجأ إلى التقارب في سياسته مع دول أوروبا الغربية ومهادنتها، وذلك تحت ضغط التهديد العثماني، فقد كانت علاقاته بأوروبا الغربية تشكل عامل توازن بالمنطقة يستخدمه في مواجهة الأطماع التركية، أي أنه كان يريد الحفاظ على كيان مستقل للمغرب بأقل قدر ممكن من الخسارة، أي في النهاية: التنازل عن نقاط معينة للمسيحيين، أو احتواء المغرب بأكمله من طرف الأتراك.

أما المؤرخ المجهول، فقد كان أكثر تحاملاً على عبدالله الغالب، إذ يقول: «فأمرهم غشاً منه بأن يقوموا على النصارى ليثق بهم في توليهم بظهور فعلهم، فلما قاموا على النصارى تراخى عنا وعدهم به من الإغاثة، وكذب عليهم غشاً لهم ولدين الله عز وجل ومصلحة لملكه الزائل».

وقد ظلت الجالية الأندلسية فعلاً تتحين الفرص للتخلص من عبد الله الغالب وابنه محمد المتوكل، وذلك بالاتصال بعبد الملك المعتصم وهو بالجزائر،[6] وقد قدمت له فعلاً خدمات جلى.

ومن الشخصيات التي لعبت دوراً بارزاً في هذا الشأن:

أبو الفضل الغرني: كان هو الواسطة بين المعتصم وشيعته الأندلسية بالمغرب، ويفصّل لنا عبد العزيز الفشتالي المراحل التي خطاها في سبيل تمهيد الطريق لمخدومه[7].

ومحمد زرقون، ويفصّل أيضا عبد العزيز الفشتالي خدماته للمعتصم[8] وسعيد بن فرج الدغالي الذي لعب دوراً بارزاً في الصراع بين المعتصم والمتوكل[9].

وبمجرد مانزل عبد الملك بالمغرب، أعلنت الجالية الأندلسية مبايعتهم له: «وأول من بعث إلى عبد الملك عسكر أهل الأندلس، قالوا : نحن بايعناك فأمرنا نفعل». [10]

وصار أهل الأندلس يكوّنون ركنا أساسيا في جيش المعتصم : «وهو أول من اتخذ الجيش من فاس فجمع جيشا عظيما مع ماكان عنده من أهل الأندلس». [11]

كما أنه اهتم بالميدان الذي يتقنه الأندلسيون، وهو ميدان البحار : «وأمر بإنشاء السفن في العرائش وسلا وصار أهل الأندلس يسافرون في البحر من داخل المغرب، وضيقوا بالنصارى أشد تضييق، وكثرت الغنائم.»[12] وقد كان البرتغال والأسبان يدركون بالفعل خطورة تعاون الأندلسيين مع عبد الملك في الميدان البحري، لذلك ألحّوا دائماً على ضرورة احتلال السواحل المغربية لإبعاد المغاربة عن البحر[13].

غير أن ثقة المعتصم في هؤلاء لم تكن مطلقة، خاصة أن لهم ماض معيّن مع عبد الله الغالب وابنه المتوكل، ويعرف تقلباتهم واتصالاتهم المريبة مع الأتراك، لذلك فقد كان يحترز منهم. فقُبَيل وقوع معركة وادي المخازن بقليل بدأت تظهر بالفعل بعض نواياهم الخفية[14]

ورغم ذلك فحين أعلن الجهاد وجرت المعركة، شارك فيها كثير من الأندلسيين، إذ أن الجيش البرتغالي كان يضم عدداً كبيرا من الأسبان، فوجدها الأندلسيون سبيلا للانتقام، وقد كانت آثار هذه المعركة بعيدة المدى على القضية الأندلسية، إذ أن فليب الثاني بدأ يفكر جديا في طرد الموريسكيين من إسبانيا، بل واتخذ قراراً في هذا الشأن[15]، وهذا كله خوفا

من التعاون بين الموريسكيين داخل إسبانيا وخارجها، وخوفا من تقديم الموريسكيين للمساعدات لكل من المغرب والأتراك لغزو إسبانيا.

لنا أن نتساءل بعد هذا: لماذا لم يستغل المعتصم هذه الجالية الأندلسية الضخمة لتقديم المساعدة للموريسكيين بإسبانيا؟

إن الجواب واضح وهو يتكرر دائما، وبنفس الصورة تقريبا ألا وهو الضغط التركي الذي كان يحول دون تقديم المساعدة. إذ سعى عبد الملك كسابقه إلى عقد محالفات مع الأسبان ضد الأتراك. فقد أرسل سفارة أولى يذكر بأنه يعتبر الأتراك أعداء له وهو لذلك يعرض على إسبانيا مشروع حلف دفاعي -هجومي بينه وبين فليب الثاني[38].

كان المنصور يقدم كافة المساعدات لأفراد هذه الجالية مادامت تعمل تحت سلطته، ومادامت تحترم التزاماتها بالكف عن التعامل مع أعدائه، خاصة الأتراك. أما وقد أبدت طموحا ما نحو السلطة والنفوذ فإنه كان يتصدى لها وبقوة.

لقد تأكد المنصور، ومنذ أيام المعتصم، من النوايا الخفية لقواد الأندلس ومن علاقتهم بالأتراك. وازداد الأمر وضوحا مباشرة بعد معركة وادي المخازن، وإبان ثورة ابن اخيه داود بن عبد المومن، إذ كانوا يرغبون في تولية عميل لهم بالمغرب، مما جعلها تتحول إلى مؤامرة أندلسية بحماية تركية. بادر المنصور إلى حسمها منذ البداية.

سعيد بن فرج الدغالي وابن اخيه محمد: اكتشف المنصور امره وهو بعد بالسوس، لذلك كان حذرا منه. فبعد معركة وادي المخازن اتت جموع

القبائل من السوس إلى مراكش ومنها إلى فاس لتهنئة الخليفة الجديد. الا ان الدغالي تخلف بمراكش لأنه كان عازما على الثورة. لكنه تحت ضغط القبائل، اضطر للاتيان معهم إلى فاس[17]. غير أنه مالبث يناور للتخلص من بقائه بجوار المنصور بفاس[18].

ورغم رفض المنصور منحه الإذن بالذهاب فقد مضى في تنفيذ مخططه. فبعث له المنصور أولاً مع القائد أبي محمد عبد الله محمد بن سليمان لكي يرجع عنتا صمم عليه. لكنه استمر في تنفيذ مخططه، لذلك اتخذ المنصور قراره الحاسم بأن سرح اليه القائد أبا إسحاق ابراهيم بن محمد السفياني واحمد الزواوي، وحدو الزواوي، وعبد العزيز بن بخلف اليفرني، وعبد الله التلمساني.

محمد زرقون الكاهية : كان يهدف إلى تولية الأمير داود بن عبد المومن الذي كانت تربطه علاقات قوية مع الأتراك، ونفس الشيء كان يهدف إليه ابو الفضل الغري. لقد عدّ قتلهم انتصارا كبيرا لسياسة المنصور وحذره، خاصة أن مكانتهم في الدولة كانت كبيرة جدا، وكانوا على اتصال دائم مع الأتراك[19].

ولاتخفى علاقة الأندلسيين بثورة الأمير داود بن عبد المومن، فقد كانت للامير داود علاقة قوية بالقادة الأندلسيين وبالأتراك على حد سواء، لذلك بادر المنصور بمجرد القضاء على القادة الأندلسيين إلى فرض نوع من الإقامة الإجبارية عليه[20].

هكذا ضاعت على المنصور، أمام ضغط الأتراك، فرصة تقديم المساعدة للموريسكيين بإسبانيا، بل وتحرير ماتبقى من الثغور المحتلة، إذ اضطر للتقارب مع الأسبان[21].

ومن الطبيعي أن يكون للتقارب المغربي الإسباني آثار سلبية على الموريسكيين بإسبانيا. ففي صيف سنة 1580م اكتشفت مؤامرة موريسكية واسعة النطاق، وقد يكون سفراء المنصور أنفسهم هم الذين أفشوا سرها للإسبان[22].

كانت قضية الأندلس تشكل ركنا أساسيا في سياسة المنصور الدولية. فقد اتجه إلى الدول التي تكن عداء ما للإسبان للتحالف والتنسيق معها قصد تحقيق أهدافه في تحرير الثغور المغربية، وفي تقديم المساعدة للموريسكيين بإسبانيا. فقد كتب المنصور إلى ولاته يطلعهم على فشل الأسبان في حملة الأرمادا Armada ضد الانجليز (1588)، ويؤكد لهم في نفس الوقت زوال الخطر الأسباني الذي كان يهدد المغرب، بل وعزمه على تقديم المساعدة للموريسكيين في إسبانيا نفسها[23]. وفعلاً فقد سر الموريسكيون بهزيمة الأسبان، واعتبروها مؤشرا للخلاص. فأعلنت الثورة بأراغون في نفس السنة (1588)[24]. وقام بعمل مواز لذلك داخل المغرب نفسه. إذ أمر الجالية الأندلسية بتطوان بالهجوم على سبتة في شهر دجنبر من نفس السنة «وكادوا يستولون على سبتة بما أتيح لهم من الظهير»[25].

كما شاركت الجالية الأندلسية بمراكش في مظاهرة عدائية ضد الأسبان. إذ قصدت بيت السفير الأسباني بالمغرب دياكو مارين DIEGO MARIN وقامت بإضرام النار فيه، مما أجبر السفير الأسباني ومن معه على استعمال الأسلحة النارية ضد المهاجمين[26]. وكاتب المنصور في هذا الشأن علماء المشرق العربي، وكان يرمي من وراء ذلك إلى إقناعهم بأنه مؤهل أكثر من غيره لتقديم المساعدة للموريسكيين، خاصة أن الأتراك في عهد محمد

الثالث كانوا يعانون الكثير من جراء حروبهم بأوروبا الشرقية. ومن جراء الثورات والفتن التي كانت تعيشها الامبراطورية.

رغم سياسة الحذر التي اتبعها المنصور تجاه جاليته الأندلسية فإنه مع ذلك كان يفتح لها باستمرار سبل السعة والارتزاق بل والارتقاء إلى مختلف المناصب الحساسة في الدولة من جيش وإدارة إلى غير ذلك. فقد كانوا يحظون باهتمام بالغ داخل جيش المنصور [illegible]. ويدخل اهتمام المنصور بالأسطول في هذا المجال أيضا، إذ كانت الجالية الأندلسية تشارك المغاربة في عملياتهم الجهادية.

وكان الأسبان يدركون بالفعل خطورة أي اتصال بين الأندلسيين والمنصور لذلك فقد كانوا شديدي الحرص على ألاّ يدخل أو يخرج أيٌ من الأندلسيين إلا بإذن [illegible]. لكن ومع حرص الأسبان هذا فقد كان يرد على المنصور جاليات أندلسية مهمة، وكان يحسن استقبالهم [illegible].

لقد استمرت هجرة الأندلسيين إلى المغرب طوال العهد الأول للدولة السعدية، وسلك معهم ملوك هذه الدولة سياسة خاصة تتسم بالتعامل الحذر نتيجة الضغط التركي الذي كان يحول دائما دون تحقيق المخطط السعدي حول القضية الأندلسية. فقد كان السعديون يحاولون باستمرار ادماج الجالية الأندلسية في مختلف مشاريعهم الجهادية، لكن الاتصالات المريبة التي كانت تجري بين الأندلسيين والأتراك كانت تحول دون تحقيق تلك المشاريع، بل وتحول في أغلب الاحيان دون تقديم المساعدة للموريسكيين بإسبانيا. ومع ذلك لم يكن السعديون يحدون من نشاط الأندلسيين بالمغرب أو يضايقونهم بمراقبتهم، بل نجد أن العكس هو الصحيح، فقد فتحوا لهم

مجالات العمل في مختلف الميادين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية أيضا، مادموا يحترمون سلطة البلد الذي يعيشون فيه ومادامو لايتدخلون في شؤونه.

الهوامش

1- S.I.H.M. 1e Serie, Espagne. I : 321 - 323

2 - حول العلاقات المغربية التركية، انظر:

Ch. de la Veronne, Relations entre le Maroc et la Turquie dans la seconde moitié du XVIe siècle, in Revue de l'Occident Musulman et la Méditerranée (R.O.M.M.) an 15 - 16 Ann. 1973.

محمد حجي، العلاقات المغربية العثمانية في القرن السادس عشر، مقال بالمجلة التاريخية المغربية، تونس، العدد 29-30، يوليوز 1983، ص 158 - 160.

3 - انظر، محمد رزوق : الأندلسيون وهجرتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 - 17، ص 158 - 167.

4 - انظر عن هذه الثورة ومصادرها، المرجع السابق، ص 92 - 100.

5 - مصطفى الجنابي : البحر الزخار والعيلم التيار، ص 339.

6 - مؤرخ مجهول : تاريخ الدولة السعدية ص 48.

7 - عبد العزيز الفشتالي : مناهل الصفا، ص 46 - 47.

8 - المصدر السابق، ص 45.

9 - المصدر السابق ، ص 41 - 42.

10 - ابو القاسم الزياني : الترجمان المعرب، ص 353.

11 - مؤرخ مجهول : تاريخ الدولة السعدية ص 53.

12 - نفس المصدر والصفحة.

13 - المصدر السابق ص 59.

14 - عبدالعزيز الفشتالي : المصدر السابق ص 42

15 - انظر محمد رزوق : المصدر السابق ص، 99 - 100.

16 - المصدر السابق ص 177.

17 - عبدالعزيز الفشتالي : المصدر السابق ص 42 - 43.

18 - نفس المصدر والصفحة.

19 - المصدر السابق ص 47.

20 - المصدر السابق ص 50.

21 - ذهب المنصور إلى حد أنه وعد الأسبان للتنازل لهم عن العرائش، انظر

S.I.H.M. 1 SERIE PAYS - BAS -1 : 191 - 198

- S.I. H.M. 1 SERIE FRANCE 1 : 512

22 - F. Braudel, LA MEDITERRANEE 2 : 216

23 - رسائل سعدية، ص 155.

24 - F. Braudel, LA MEDITERRANEE , 2 : 127

25 - عبدالعزيز الفشتالي : المصدر السابق ص 99.

26 - S.I.H.M. 1 SERIE ANGLETERRE, 2 : 97

27 - عبدالعزيز الفشتالي : المصدر السابق، ص 208.

28 - الشهاب الحجري : ناصر الدين على القوم الكافرين، ص 22.

29 - المصدر السابق ص 29.

صعوبة اندماج الموريسكيين
في المجتمع المغربي

الحسين بوزينب

إن تجربتنا البسيطة في دراسة موضوع الموريسكيين بينت لنا مدى الغموض الذي اكتنف هذا الأخير بسبب الخلط الذي وقع فيه عدد من الدارسين عندما طابقوا شخصية الموريسكي بشخصية المسلم العربي المضطهد من قبل المسيحيين في الأندلس. ولعل هذا الخلط قد حدث حتى بين الموريسكيين أنفسهم عندما ظنوا ، وهم ما زالوا في جزيرتهم الأندلسية، أن لهم إخوانا في أرض الإسلام سيأخذون بيدهم ويساعدونهم في المحنة التي كتب عليهم أن يعيشوها هناك. وربما كانت هذه المطابقة غير المبنية على عناصر لم يؤخذ فيها بعين الإعتبار عنصر التطور الزمني الذي فعل فعله وباعد بين الشخصيتين، أساس الصدمة التي عرفها أكثر من موريسكي لما وطأت رجلاه أرض هؤلاء ، الإخوان في الدين الذين كان يتصورهم من بعيد.

نعم. لقد كان للعنصر الزمني المتمثل في القرون التسعة التي دام التواجد الأندلسي في إسبانيا ، كما هو طبيعي أن يخلق إنسانا تطبعه خصوصيات جديدة ومغايرة لتلك التي كانت تطبع الفاتحين الأوائل وكذلك لتلك التي ميزت السكان الذين كانوا يعيشون على أرض الأندلس قبل الفتح

المذكور. ومما لاشك فيه فإن الناتج الجديد سيكون عبارة عن تآلف بين الطرفين المذكورين. لذلك فإن عملية طرد الموريسكيين التي نفذتها السلطات الإسبانية آنذاك تحت ضغط المتعصبين من المسيحيين كانت ستطرح لا محالة معضلة تقنية عند الإقدام على فرز من كانوا قد تقرر طردهم. فكيف سيتمكنون من استخلاص ذلك النموذج الذي عزمت الكنيسة المسيحية على إبعاده حتى تتخلص أرض إسبانيا من أي عنصر غير كاثوليكي؟ هل ستتمكن تلك السلطات من تحقيق ذلك دون أن يختلط لديها الأخضر باليابس؟ يكفي في هذا الصدد أن نورد ما عبر عنه كل من دوق مدينة سيدونيا Medina Sidonia وماركيس دي سان خيرمان Marqués de San German وقد كانا مكلفين بتنظيم طرد الموريسكيين الأندلسيين والهُرْنَشِيين. فهما يقولان في رسالة للملك الإسباني قبيل تنفيذ هذه العملية: «... بعدما اجتمعنا للتدارس والتداول طبقا لما أمرتهم به جلالتكم حول طرد الموريسكيين من الأندلس ومملكة غرناطة وبلدة هُرناتشوس. وبعد التمعن والتدقيق في ما أمرت به جلالتكم في الرسالتين المؤرختين يوم 10 من الشهر الحالي، وجدت بعض الصعوبات الجمة لأن جلالتكم لم توكل الماركيس لكي يضايق (apremiar) هؤلاء الناس أو يطردهم بل يترك لهم أمر اختيار الجهة التي سيخرجون منها. لأن مع هؤلاء الناس سنحتاج إلى الكثير من العنف لإخراجهم من منازلهم. فقد اختلطوا اختلاطا كبيرا بالمسيحيين القدامى بحيث لا يوجد أي فرق بينهم وبين هؤلاء...»[1]. إن هذا التساوي أو التطابق الذي اعترف به الدوق والماركيس هو بالضبط ما كان يسعى إلى التوصل إليه ذلك الموريسكي الأندلسي المتصهر في هذا المجتمع. مجتمع استطاع أن يذيب عناصر مختلفة ومتعددة الأصول لينتج إنسانا مغايرا لذلك الذي كون

نواته الأولى. غير أن هذا التشابه والتطابق لم يكن يمس الشخصية الثقافية العميقة للموريسكيين التي بقيت في أغلب الأحيان بعيدة عمّا كانت تتوخاه السلطات المسيحية. وقد نجد في رسالة الموريسكي Francisco Nunez Muley إلى مجلس غرناطة يدافع فيها عن خصوصية ثقافة وتقاليد الموريسكيين الغرناطيين الذين كان قد صدر في حقهم منع للغتهم ولباسهم وتقاليدهم وأعرافهم قبيل حرب البشرات الضارية (1568 إلى 70م) ويحاول إظهار اختلاف الأندلسيين عن باقي المسلمين في المغرب وتركيا وإبراز ما كان يميزهم في شتى مظاهر الحياة اليومية. فيقول نونيث مولاي بلغة إسبانية في غاية الفصاحة عن طريق اللباس الغرناطي: « ... في ما يرجع إلى لباس نسائنا، فليس بلباس مسلم. إنه فقط لباس إقليمي كما هو الحال في قشتالة وفي أماكن أخرى. فالناس يحاولون التميز عن بعضهم في زينة الرأس والتنورات والأحذية. ومن لا يسلّم بأن لباس المسلمين (Moros) (أو المغاربة) والأتراك يختلف اختلافا كبيرا عن لباسهم (أي الغرناطيين)... أما الرجال فكلنا نلبس على الطريقة القشتالية ..[2] ».

ففي هذا الصدد، إذا حاولنا التقرب من التاريخ المباشر لبعض المجموعات الموريسكية سندرك بدون شك تلك الظروف التي تحكمت في صياغة الخصوصية الموريسكية. ونظرا لما اختص به الموريسكيون الهرنتشيون من تماسك قبل وبعد التهجير ونظرا كذلك إلى توفرنا على معطيات كافية لتكوين نظرة معبرة عن مسار هذه المجموعة ارتأينا أن نقدمها كنموذج يمكن أن يوضح لنا بعض الشيء ما نحن بصدده. فمن المجموعات الموريسكية التي وجدت نفسها اضطراريا منفية إلى الشواطىء المغربية سكان بلدة هُرْنَتْشُوسْ Hornachos من منطقة إِسْتْرِمَدُورا Extremadura

الذين سيقومون بدور نشيط في تاريخ البحر المغربي خصوصا في مصب نهر أبي رقراق كما يعرف الجميع. فإذا استرجعنا تاريخ الهرتنشيين بعض الشيء، سنرى أن أغلب المسلمين الذين كانوا يقطنون بلدة هرناتشوس أيام الحكم الإسلامي، سيستمرون فيها بعد سقوطها تحت الحكم المسيحي وسيعترفون بسلطته وبسلطة رهبانية فُرسان سنتياغو Orden de Santiago (التي منحت لها هذه البلدة منذ مجيء الحكم المسيحي سنة 1235) وبالطاعة لتاج قشتالة، وسيقبلون أداء الضرائب وسيتمتعون مقابل ذلك بحرية التدين وتطبيق شرائعهم وعاداتهم وتقاليدهم[1]. وفي 12 فبراير 1502 سيأمر الملكان الكاثوليكيان طرد كل المسلمين الذكور البالغين من العمر أربعة عشر عاماً والإناث البالغات إثني عشرة سنة من مملكتي ليون وقشتالة، على أن لا يرجعوا أبدا إلى هذه المناطق. وأمام هذا القرار المفجع توجهت جماعة المسلمين في هُرْناتشوس وليرينا إلى الملكين الكاثوليكيين ملتمسين منهما، من بين أشياء أخرى، أن لا يبعدوا أبدا عن أرضهم إذا اعتنقوا الدين المسيحي وأن يتمتعوا برفعة الشأن والحرية كباقي المسيحيين القدامى. وقد أجاب الملكان بمرسوم مؤرخ في يوم 10 أبريل 1502 يقبلان فيه ما التُمس منهم[2]. لهذا سنرى الموريسكيين من الآن فصاعدا يتخذون هذا المرسوم حجة لمساواتهم قانونيا في الحقوق مع المسيحيين القدامى. ولنتذكر أن من بين تلك الحقوق التي لم تكن لدى عامة الموريسكيين حق حمل السلاح. غير أن هذا لن يكون عائقا لحدوث صعوبات بينهم وبين المسيحيين القدامى الذين لم يكونوا يعترفون لهم دائما برفعة الشأن والحرية. فكانوا لا يقبلونهم في بعض الحرف الشريفة، مما جعل كارلوس الخامس يصدر مرسوما ملكيا سنة 1530 يحث فيه المسيحيين القدامى على تقاسم تلك الحرف مع الموريسكيين.

وإذا كان الموريسكيون الهرنتشيون قد استطاعوا انتزاع كل هذه الحقوق التي لم يستطع تحقيقها إخوانهم في أماكن أخرى، فذلك لأسباب موضوعية توفرت عندهم وربما لم تتوفر عند غيرهم. فمن جهة سنرى أن الموريسكيين الهرنتشيين قد استطاعوا أن يدركوا في وقت مبكر، كما رأينا سابقا، أن منطق الأشيا، قد تغير وأنه كان ضروريا أن يتعاملوا معه بما كان يتماشى مع المعطيات الجديدة. وذلك بالرغم من أن عددهم كان يفوق بكثير عدد المسيحيين القدامى الذين كانوا يعيشون معهم في البلدة. وهذا الوضع لم يكن يحظى به باقي الموريسكيين في مناطق أخرى من إسبانيا، حيث كانوا أغلب الأحيان في وضعية الأقلية. وقد كانت الأغلبية العددية المتوفرة لدى الهرنتشيين محليا تجعلهم، بدون شك في وضع مريح تجاه تلك الأقلية المسيحية القديمة التي كانت تنحصر في حاكم البلدة وخدامه وفي رئيس الرهبانية العسكرية ومن يعمل معه وفي القسيس وكهنة الكنيسة[٩]. ومما لا ريب فيه، أن هذا أمر لم يكن يريح المسيحيين الذين عملوا كل ما في وسعهم لقلب الكفة لصالحهم. ومن ناحية أخرى ستجد أنه رغم الجهود التي بذلتها الكنيسة للقضاء على الشخصية الإسلامية للهرنتشيين بإدماج ثلاثين عائلة مسيحية قديمة أتوا بها من مناطق أخرى، لم يتمكنوا من التوصل إلى مبتغاهم.

وفي نطاق ذلك التعامل مع المنطق الجديد نجد أن الهرنتشيين يدافعون عن أنفسهم في مناسبة من المناسبات التي اتهمهم فيها المسيحيون القدامى بالإساءة إليهم لجعلهم ينفرون من هذه البلدة ويبتعدون عنها، ويذكرون الملك في مراسلة في الموضوع بالخدمات التي أسدوها لعرش إسبانيا، حيث يقول Pedro Ruiz de Caravia الناطق باسم البلدة، إن موكليه قد اعتنقوا المسيحية

وأسدوا خدمات للملك في احتلال غرناطة وفي معركة الجزائر، الشيء الذي استحق عليه عدد كبير من الموريسكيين عدة نعم النبل Hidalguia التي يتمتعون بها هم وورثتهم. وقد حافظوا دائما على الامتيازات التي يتمتع بها المسيحيون القدامى...»[6].

لقد كان الموريسكيون الهُرنتشيون دائما في نقطة التسديد لدى أعدائهم من المسيحيين الذين لم يدخروا أي جهد لإلحاق الضرر بهم. فكانوا لا يتركون فرصة تمر دون اتهامهم بما كان يعتبره المسيحيون مساسا خطيرا بالمبادئ الأساسية للدولة أي العيش كمسلمين. أو اتهامهم بربط اتصالات مع المغاربة أو الأتراك لمساعدتهم عسكريا[7] أو بتزوير النقود.

غير أن الموريسكيين الهرنتشيين كانوا يدافعون عن أنفسهم مبرزين الأحقاد الشخصية الكامنة وراء تلك الاتهامات كما كانوا يذكرون بالنعم والإمتيازات التي استحقوها مقابل وفاءهم وخدماتهم لملوك إسبانيا. وقد كانوا في غالب الأحيان يخرجون منتصرين من هذه المناورات العديدة التي كانت تحاك ضدهم إلى أن وصل القاضي Lopez Madera إلى هرناتشس فتصرف معهم بقساوة كبرى وأكثر من تقاريره ضدهم، الشيء الذي أثار شكوك الدوائر العليا نحو سلامة الهرنتشيين مما يتهمون به. وقد دشن القاضي لوبيز ماديرا Lopez Madera حملة من المحاكمات كانت نتائجها الأولى تهجيرا فرديا داخليا ما لبث أن تحول إلى طرد شامل خارج الحدود لما تعمم هذا الإجراء على سائر الموريسكيين في إسبانيا. وحتى بعد الطرد سنجد الموريسكيين الهرنتشيين وهم في تطوان يحاولون إظهار التعسف الذي كانوا عرضة له من قبل القاضي Lopez Madera وكاتب الضبط بينا Pina[8] ويبعثون

مذكرة إلى الملك يطلبون منه فيها «أن يأمر بمراجعة كل دعاوي الناس نظرا للأحكام الجائرة التي أصدرها القاضي المذكور والتي ترتب عنها زج بالناس في السفن الشراعية الكبيرة Galera وبإطلاق سراح من تبينت براءته».

«إذا أراد صاحب الجلالة أن يرخص لشخصين من سكان بلدة هرنتش ليذهبا من تطوان بغرض تقديم لائحة الأضرار التي ألحقها بهم القاضي المذكور، والشخصين المذكورين فإنهما سيذهبان تحت حماية صاحب الجلالة»[9].

إن التشبث بالبقاء في الأندلس كان هو القاعدة بالنسبة للموريسكي، وكان الاستثناء هو اللجوء الاضطراري إلى خارج الوطن مرغما. ولا أظن أنه كان للأندلسي رغبة عفوية في التوجه إلى بلاد لا يضبط معطيات الحياة فيها. وربما كان يملك تصورات عن البلاد المجاورة التي كان يرى نفسه مضطرا إلى الالتجاء إليها. فالأخبار عمن سبقوه وعن كيفية استقبالهم كانت تصله بدون شك. فحتى أبو العباس الونشريسي الذي كان راديكاليا كما نقول اليوم في موقفه تجاه موضوع هجرة الأندلسيين وقد أفتى بوجوبها وعدم البقاء مع النصارى، لم يستطع أن يغض الطرف عن قساوة استقبال الأندلسيين وصعوبة عيشهم في البلاد الإسلامية[10] لهذا سيجيب عمن سيطرح عنه مسألة الاختيار بين البقاء في أرض الكفر وأرض الجور بقوله:

«يختار المرء أقلها إثما مثل أن يكون في بلد فيه كفر وبلد فيه جور خير منه، أو بلد فيه عدل وحرام، فبلد فيه جور وحلال أولى منه للمقام». لا نريد أن نقول بهذا أن المواقف كانت دائما عدائية. فقد كان هناك من تفانى في استقبال هؤلاء المهجّرين وهيأ لهم الأمور، خصوصا إخوانهم الأندلسيين

والموريسكيين الذين كانوا قد انتقلوا في فترات سابقة كسيدي علي المنظري في تطوان والذي سنتكلم عنه بعد قليل أو سيدي الزليجي في تونس، الذي كان قد هيأ زاوية ما زالت قائمة إلى يومنا هذا لاستقبال المهجَّرين من إسبانيا. أو ما حدث عفويا لأفقاي لما وجد نفسه في منطقة دُكّالة وقد فر من الإسبانيين الذين كان قد استعملهم للوصول إلى المغرب[1].

ولكننا سنجد من ناحية أخرى مواقف موريسكية متحفظة تجاه المغاربة بتخوف أصحابها من الإتيان بهم إلى هذه الأراضي، كموقف تلك المجموعة المكونة من أربعة عشر عائلة موريسكية كانت قد فضلت الالتجاء إلى فرنسا لما صدر قرار الطرد النهائي. والآن وبعد ما يقارب السنتين من عيشهم بفرنسا ونظرا لبعض المشاكل التي كان يحدثها بعض هؤلاء الموريسكيين تقرر طرد أولئك الذين لا يملكون شواهد تثبت توفرهم على الشغل وعدم التسول والاستقامة الكاثوليكية والعادات السليمة[2]. لهذا كتب الرئيس الأول السيد غليوم دي فير Guillaume de Vair رسالة[3] إلى الوكيل فرانسوا دي بومون François de Beaumont بتاريخ 27 فبراير 1611 يقول فيها: «سيدي، إن الموريسكيين الذين التجأوا إلى Cadière و Cassis، والبالغ عددهم أربع عشرة عائلة تقدموا بطلب لكي لا يرغموا على الإبحار إلى المغرب (Barbarie)، نظرا إلى أنهم مسيحيون صادقون ويتوفرون على وسائل العيش. وقد طلب قناصلة ذلك المكان لصالحهم نفس الشيء، وكذلك النائب الأعلى لأسقف مرسيليا (Monseigneur le Grand Vicaire de Marseille) وكلهم يشهد بأنهم قوم فضلاء جدا ومسيحيون صادقون. لهذا السبب ارتأت المحكمة أن أكاتبكم لكي لا ترغموهم على الإبحار وأن تتركوهم يعيشون هنا حتى تتيقن اليقين الكافي. إنني أكتب لكم هذه الرسالة للغرض المذكور فقط



... وأطلب من الله أن يسدي عليكم العافية ويسعدكم ويطيل عمركم. من إكس (Aix) بتاريخ سبع وعشرين من فبراير ألف وستمائة وإحدى عشر، خديمكم المحب، «G. du Vers».

ولدينا حالة أخرى من نفور الموريسكيين من المغاربة وهذه المرة لا لسماع أخبار أو لتصور ما عن بعد، بل كنتيجة لقاء بهم مباشر وحديث إذا ما نظرنا إلى تاريخ حدوثه. وبدون أن نعلق على هذا الحدث ستترك الوثيقة تتكلم لنا عما جرى:

طنجة 17 دجنبر 1610

«نسخة خوان دي لاس نافاس نونييز Juan de las Nieves Nuñez، كاتب عمومي وكاتب النظارة (سماه) صاحب الجلالة في مدينة طنجة هذه، أشهدُ وأقر وأصرح تصريحا حقيقيا أنه منذ يوم 15 من نوفمبر القريب الماضي من هذه السنة وإلى يومنا هذا أتي من أرض المغاربة إلى هذه المدينة عدد من الموريسكيين والموريسكيات من شتى الأعمار طردوا خارج ممالك صاحب الجلالة وبأمر منه. بأمر من السيد ألونسو دي نورونا Alonso de Noronha عن مجلس صاحب الجلالة والحاكم والقائد العام لهذه المدينة، أبلغت، أنا الكاتب المذكور، هؤلاء الموريسكيين والموريسكيات في الحقل خارج الأسوار، أن لهم كامل الحرية إذا أرادوا العودة إلى أرض المغاربة، ولكن إذا أرادوا الدخول إلى المدينة فسيكون بشرط أن الرجال سيصبحون عبيدا لصاحب الجلالة في السفن الشراعية الكبرى، أما النساء والأطفال فعبيدا لمن أمر صاحب الجلالة.

وقد كانوا يردّون دائما على كل ما يبلغون أنهم أتوا بحثا عن الدين وأنهم غير راغبين في الرجوع إلى أرض المغاربة، وأن الرجال والنساء والأطفال فرحين جدا أن يصبحوا عبيدا في السفن الشراعية الكبيرة وكذا في الجهة ولدى من أمر صاحب الجلالة. وبعد ما اطلع السيد (القائد) العام المذكور على هذا الأمر، ورفقا بهؤلاء الموريسكيين والموريسكيات وبأبنائهم، أمر بإسكانهم داخل المدينة، كما أمر بإعطائهم من ماله الخاص ما يسد حاجة النساء والأطفال، وعددهم حوالي أربعين نفس. أما الرجال، ويتعدى عددهم الأربعين فيعيشون من شغل أيديهم ومما يربحون من عملهم، وقد سجل كل هذا في المحاضر التي احتفظت بها والتي أشرت إليها.

وأن هذه الورقة والشهادة التي كتبتها ووقعتها بتاريخ 17 من شهر دجنبر 1610 أمام Juan de las Nieves Nunez طلبت كتابتها وكتب عليها: Juan de las Nieves.»[113]

هذه إذن حالة يمكن أن نقول عليها إنها عبارة عن نوع من رد الفعل العفوي ضد تصرف لا يعلمه إلا الله، لأننا لم نستطع أن نجد السبب المباشر لهذا النفور الباعث.

ونجد صدى لهذا النوع من التصرف الموريسكي - أي تفضيل العيش كعبيد مع النصارى على الحرية مع المسلمين - في شهادة روخاس كازاناطي Rojas Casanate[114] عندما يقول عن الموريسكيين وقد وصلوا إلى المغرب: «لقد كانوا مسلمين في إسبانيا، والآن نجد أن جل الشباب نصارى صادقين في المغرب، كما تبرهن على ذلك أقوالهم وأفعالهم. فهم يحاولون المجيء عند النصارى ولو عبيدا، كما أثبت ذلك الكثيرون بدمائهم. وتطوان شاهدة على كم منهم قد أحرق حيا لتصريحهم بالعقيدة (المسيحية). وكم منهم

تعرض للجرح بالقصب الحاد والموت ضربا أو وخزا بالدبابيس. فالأطفال في العرائش نفسها قد أحرقوا شابا بعد ما عرضوه لألف سخرية، وقد بُحث على عظامه التي لم تحرق تمام الإحراق تيمنا بها، ولكن لم يوجد لها أثر».

ويورد كابريرا دي كوردوبا Cabrera de Cordoba [15] ما يشبه هذا عند ما قال: «فمن المعلوم أن في أرض تطوان من قد رُجم وقتل بأشكال أخرى من العقاب بعض الموريسكيين الذين كانوا يمتنعون عن الدخول إلى المساجد مع المسلمين».

أما الحالة التي سنقدمها في ما يلي فقد حدثت بعد أكثر من عشر سنوات، أي بعد ما كان لصاحبها الوقت الكافي للتعرف على محاوريه على أرض الاستقبال. إن الأمر هنا يتعلق بشخص اسمه سافر أو ظافر (Zafar) ويقول إنه كان قائدا لقصبة الرباط أو سلا. وقد عثرنا في أرشيف سيمانكاس على مجموعة من الوثائق تخصه، مؤرخة بين 28 أكتوبر 1621 و6 يونيو 1623 سبق لنا أن نشرناها[16]، وتدور كلها على مبادرة أتت منه تكمن في اقتراحه على أحد الوسطاء، تسليم القصبة المذكورة لملك إسبانيا. ويقول هذا القائد الذي كان ملحاحا في مخططه، مبررا نيته هذه بما يلي:

«... وفي ما يخصني والله عليم بذلك، فإنني منذ أيام عديدة وأنا أتمنى ذلك (أي تسليم القصبة). فبالرغم من أن ملك مراكش جعلني أكون مسلما، والله أعلم هل أنني كذلك، ورلأني قائدا عليها، فليس لي من المسلم غير اللباس والإسم. لهذا أريد أن أتدارك ضياعي لأنه لا يجب أن يتبع أي قانون مع هؤلاء الهمجيين، فمن تبعه معهم كان له منهم مقابل ذلك أسوء الجزاء...» [17]

إن المرارة والحقد اللذين عبر عنهما هذا الموريسكي ما هما إلا مؤشر مبكر عن حالة التوتر التي سيعرفها مصب نهر أبي رقراق منذ وصول الموريسكيين إلى هذه القلعة وخلقهم وضعية جديدة بأبعاد حضارية واستراتيجية لم تكن تعرفها المنطقة من قبل. وهذا التوتر سيعرف قمة من قممه سنة 1631 عندما سيقترح [18] الموريسكيون الهرناتشيون على ملك إسبانيا تسليمه القصبة مقابل رجوعهم إلى بلدتهم الأصلية، الشيء الذي يمكن أن يعتبر شهادة على فشل احتضان الهرناتشيين من قبل الوسط الذي استقبلهم بعد نفيهم من إسبانيا. ويمكن اعتبار فتاوي الفقهاء المغاربة [19] التي صدرت في حقهم وجها آخر لذلك التعارض الثقافي الذي لم يكن من السهل على المغاربة إدراكه.

والواقع أن هذا التعارض لم يكن قائما مع المغاربة فقط، بل سنجده كذلك بين الأندلسيين أنفسهم. فمن أسباب المشاكل التي كانت تحدث في مصب أبي رقراق الخلاف الذي كان قائما بين الهرناتشيين وأندلسي الرباط[20] والذي اتخذ شكل صراع حول مراقبة مداخيل الجمارك وغنائم الجهاد البحري. وربما كان السبب العميق في هذا الخلاف انقسام عقدي تطور مع مرور الزمن وسط المجتمع الأندلسي قبل النفي وامتد بعد ذلك إلى المهجر. وقد استطعنا أن نعثر على شهادات بعض الرهبان المسيحيين الذين كانوا يقومون بمهمة فك الأسرى المسيحيين في البلاد الإسلامية تصف الغيظ الشديد الذي كان يحس به الموريسكيون تجاه إخوانهم الذين اعتنقوا الدين المسيحي. فيقول الراهب خيرونيمو دي أزابويا Jeronimo de Azabu عن مدينة تطوان: «كان يحكم تلك الأرض موريسكيون أندلسيون يتمنون شرب دم أبناء قومهم الذين اعتنقوا العقيدة الكاثوليكية وإنزال أشد العذاب بهم»[21].

استقبال المغاربة للأندلسيين

إذا حاولنا ترصد الهجرة من الأندلس وخصوصا إلى المغرب فإننا سنصطدم لا محالة بعقبة أولى تتمثل في صعوبة تحديد الفترات التي كانت تتم فيها هذه العملية. وذلك لأن التنقل بين العُدْوَتين خضع دائما لتقلبات الأحداث في كل من البلدين. فالأندلسيون المسلمون واليهود كانوا إذا غادروا بلادهم (قبل صدور قرارات التهجير الإجبارية) فذلك بحثا عن استقرار سياسي يغيب عنهم من حين لآخر ولم يكن بسبب المسألة الدينية إلا عندما سقط الحكم الإسلامي في غرناطة أو بالضبط لما صدر أول قرار يضع المسلمين في مملكة قشتالة أمام الاختيار بين التطاي أو الخروج منها (11 فبراير من سنة 1502). ولكن قضية عيش المسلمين تحت حكم النصارى كانت قد طرحت على الفقهاء قبل ذلك فأفتى فيها أغلبهم بعدم البقاء تحت إمرة النصارى. وأشهر فتوى في هذا الاتجاه تلك التي أصدرها أبو العباس الونشريسي ونجدها في كتابه «المعيار» تحت عنوان «أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر»[22]. وسنجد المغراوي وهو فقيه من وهران يفتي العكس سنة 1504 ويبيح للموريسكيين البقاء في أرضهم واعتماد التقية والصمود حتى يأتي الفرج على يد الأتراك ويقول لهم: «وإن جبروكم على شرب خمر فاشربوه لا بنية استعماله، وإن كلفوا عليكم خنزيرا فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم ومعتقدين تحريمه وكذا إن أكرهوكم على محرّم. وإن زوجوكم بناتهم فجائز لكونهم أهل كتاب. وإن أكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه وإنكم ناكرون لذلك بقلوبكم ولو وجدتم قوة لغيرتموه ...»[23].

إن حالة الموريسكيين تميزت عن حالة المدجّنين التي أفتى فيها الونشريسي وغيره بمعرفة المشكل من زاوية جديدة تمثلت في التشدد الذي أظهرته السلطات الدينية تجاههم وتراجع التسامح الذي طبع فترة المدجنين.

إذا كانت الهجرة أو المغادرة عملية قاسية في حد ذاتها لمن كان عليه أن يقوم بها، فكيف سيكون أمر النزول عند الغير، علما بأن المهاجر لا يعرف ردود الفعل التي تنتظره في المهجر؟

إن طبيعة موضوع كهذا يفرض أسئلة أولية لا مناص منها، مثل: ما هي الظروف الملموسة التي وجد فيها الأندلسيون أنفسهم أثناء الخروج من بلدهم، وكيف كان استقبالهم في المهجر من قبل السلطات والسكان، وهل كان هناك تنسيق ما بين الطرف المهاجر والطرف المهاجر إليه، وهل كان هناك من يقوم على ترتيب الأمور في المهجر وتسهيل مأمورية الوصول (نوع من لجان الاستقبال) أم أن الأشياء كانت تتم بعفوية وعشوائية . . .

كل هذه تساؤلات تحتاج إلى أبحاث جادة للإجابة عنها. واليوم لدينا أدبيات كثيرة عن موضوع الموريسكيين يمكن أن نجد فيها أجوبة لبعض هذه التساؤلات ولكن تبقى علامات استفهام كثيرة تنتظر نفض الغبار عن الوثائق التي دوّنت الهجرات الأندلسية في شتى الفترات.

ففي ما يخص جانب الاستقبال والدعم في البلاد المهاجر إليها، زيادة على ما قلناه سابقا بخصوص سيدي الزليجي في تونس والمنظري الخ، وجدنا في وثائق نشرناها[23] في وقت سابق، إشارة إلى هذا الموضوع تخص الموريسكي شابيز Chapiz وهو رجل ثري كان يسكن غرناطة ومنزله ما زال قائما إلى يومنا هذا حيث تستعمله مقرا لها مدرسة الدراسات العربية التابعة للمجلس الأعلى للبحث العلمي. فوثيقتنا تقول:

وقال خيرونيمو دي زونيكا (Geronimo de Zuniga) إن بالبرابرطولوس Palera Bartolome أخبره بأن في كل من طليطلة وأكنيا وبسترانا وبلد الوليد ومرسية يوجد موريسكي من أغنى الموريسكيين وأعلاهم شأنا مكلف من لدن الجميع بتشجيع ومساعدة أولئك الذين سيهاجرون. وكانوا مكلفين كذلك بجمع بعض الأموال الموزعة التي كانوا يجمعونها ويبعثونها إلى طلوسا (Toulouse) لوضعها في صندوق جعلوه هناك تحت سلطة شابيز Chapiz وغيره، وذلك لمساعدة ومؤازرة الموريسكيين الوافدين على ذلك المكان الفاقدين ثروتهم لإيصالهم بعد ذلك إلى مرسيليا قصد الإبحار من هناك إلى بلاد المغرب (Berberia)».

وقد كان الموريسكي شابيز Chapiz حسب المصرح المذكور يعتبر أن فرنسا هي أحسن أرض في العالم.[25]

قد يبدو من باب تحصيل الحاصل أن نقول إن مغادرة الوطن الأصلي غالبا ما يحدث تحت ضغط ما ولا يأتي عن طيب خاطر أو لمجرد شهوة في تبديل موطن بآخر. وطرحنا لهذه الملاحظة البديهية يتوخى فقط تقديم الأسباب الموضوعية الداعية إلى الهجرة (ربما لفهم المنتظر من المهجر).

فإذا تتبعنا حالات الهجرات الأندلسية المتعددة التي وقفنا عليها سنجد أن الجماعية منها قد تركت ورا ءها صدى خاصا في الكتابات التاريخية وأثرا بارزا في المجتمعات التي اندمج فيها هذا العنصر الأندلسي.

لقد تطرقنا سابقا إلى حالة الهُرنتشيين وعاينا عن كثب جملة من التفاعلات التي كانت لهذه المجموعة الأندلسية مع المجتمع المغربي. وقد ارتأينا أن نتطرق كذلك إلى حالتين أخريين من حالات الهجرات الأندلسية

إلى المغرب وهما هجرة المنظري وهجرة الدقالي وذلك لما تركته هاتين الهجرتين من أثر في تاريخ المغرب.

عليّ المَنْظري

علي المنظري هو قائد أندلسي كان يحكم قلعة بينار Pinar في مملكة غرناطة التي غادرها بعد استيلاء النصارى عليها متوجها إلى المغرب على رأس مجموعة من جنوده حيث استقر في تطوان التي كانت آنذاك عبارة عن ركام خراب المدينة التي كانت قد تعرضت لغزو برتغالي سنة 1437[26] فأعاد بناءها للإقامة بها وذلك بعد مساندة من علي بن الراشد شريف شفشاون وموافقة الملك الوطاسي محمد الشيخ[27].

إن المنظري سيلعب دورا حاسما في تاريخ مدينة تطوان وفي التصدي للبرتغاليين الذين كانوا يحكمون سبتة وطنجة وأزيلا، وسيكون له دور كبير في الجهاد البحري ضد السفن المسيحية.

فهذا القائد الغرناطي الذي كان قد أتى إلى المغرب لاستجماع قواه فقط والرجوع بعد ذلك إلى الأندلس لمتابعة قتال النصارى، سنجده يستقر نهائيا في تطوان ويبني حياته هنا بعد طي صفحة الأندلس.

لقد استرعت انتباهنا عدة أمور تتعلق ببقاء المنظري في المغرب بينما كان قصده كما يظهر عند خروجه من الأندلس مغادرة تكتيكية لا غير. فسنجده يظهر منذ البداية بجانب الشريف العلمي بن الراشد في الحملات التي كان يشنها ضد المحتلين للثغور المغربية، وكأنه قد وجد امتدادا لنشاطه العسكري الذي اضطر لإيقافه في الأندلس بعد ما ضاعت منه قلعته. فمرافقة

المنظري لابن الراشد لن يتوقف إلا بموت هذا الأخير. وسنراه كذلك يتزوج بالسيدة الحُرَّة إبنة الشريف العلمي علي بن الراشد التي كانت تملك شخصية قوية جعلتها تفرض نفسها على الساحة السياسية في المنطقة وتأخذ زمام الأمور بين يديها لما تقدم زوجها في السن وتعذر عليه مباشرة الأمور، خصوصا وأن فارقاً مهما في السن كان يفصل بينهما. هذه المرأة ستتزوج بعد وفاة المنظري بملك فاس مولاي أحمد الوطاسي سنة 1541.

لم يكن شعور الأندلسيين عند مجيئهم إلى المهجر المغربي أو إلى غيره شعور عائد إلى بيت أهله وذويه. بل كان شعور المضطر إلى اللجوء عند أقرباء ربما لم يكونوا راغبين تمام الرغبة في احتضانه. لهذا، فالأندلسي كان يرى في هجرته هجرة مؤقتة ستمكنه من ترتيب الأمور بعيدا عن ظرفية متوترة ليعود إلى بلده. وهو لم يكن أبدا يتصور غير الأندلس كوطن. وقد كان الأندلسيون في كثير من الأحيان يتركون أمتعتهم النفيسة وأموالهم بين أيدي أصدقاء وأقرباء استطاعوا أن يفلتوا من شباك الطرد آملين في عودة قريبة بعد تهدئة الأوضاع. وسنرى هذا حتى في الظروف التي كان قد صدر فيها قرار الطرد النهائي حيث درجة الرفض لدى السلطات الإسبانية كانت قد وصلت أوجهها. فلنستمع ما جاء في وثيقة [29] عثرنا عليها في أرشيف سيمانكاس وهي مؤرخة في 30 مارس 1614 تتكلم على هذا الموضوع وتقول:

«إن أغلب الموريسكيين الذين حلوا هنا هم من بين أولئك الذين طردوا من الأندلس ومملكة غرناطة والعديد من موريسكيي أراغون، كانت نهاية مطافهم في تطوان وضواحيها. إن هؤلاء الناس عاشوا دائما على آمال الوصول إلى الوسائل التي ستمكنهم من العودة إلى هذه الممالك. ولكن لما رأوا أن

أمالهم قد تبددت، أخذوا يتكلمون كثيرا عن الأموال التي تركوها هنا. وقد سمعت بالخصوص أن منهم من يقولون إنهم تركوا في حوزة بعض الأشخاص من ذويهم في هذه الممالك مقادر من المال إئتمنوها عليها على أن يبعثوها لهم إلى المكان الذي سينتهون إليه أو لأغراض أخرى. والآن، وبعد القيام بتجربات لإرسالها إليهم، امتنعوا عن ذلك ... ».

وعليّ المنظري رغم مقامه الطويل في المغرب والذي قارب خمساً وخمسين سنة سنراه في آخر حياته وحرارة الشوق إلى غرناطة ما زالت متقدة يسأل عن أحوالها ويتمنى العودة إليها وربما وصل به المطاف إلى قبول الدخول في دين المسيح للرجوع إلى بلده الأصلي[29].

هذا كان إذن شعور الأندلسيين. فما هو شعور المغاربة الذين كان عليهم أن يقتسموا مع هؤلاء الأجانب أرضهم وعيشهم؟

إن التاريخ يبين لنا تصرفين متناقضين. تصرف الحاكمين وتصرف السكان.

ففي حالة عليّ المنظري مثلا سنجد أن الاحتضان كان بالخصوص من قبل سيدي علي بن الراشد الشريف العلمي والمجاهد ضد البرتغال المحتل لثغور مغربية. وسنرى أن هذا الشريف سيتوسط للمنظري لدى الملك الوطاسي للحصول على ترخيص لإعادة إعمار مدينة تطوان والإقامة بها[30]. ولكننا سنرى في نفس الوقت أن هذا الاحتضان كان لمصلحة ما. لاننسى أن المنظري يصل إلى تطوان ومعه مجموعة من أتباعه ستلتحق بها فيما بعد مجموعات أخرى ستعزز كلها قوة ابن الراشد.

غير أن السكان الذين وجدوا في وصول هؤلاء الأندلسيين مساساً بمصالحهم المباشرة اتخذوا موقفا معاديا تجاههم وصل الحد ببعضهم إلى التحالف مع البرتغاليين ضد هؤلاء النازحين [31].

سعيد بن فرج الدغالي

يمكن اعتبار سعيد بن فرج الدغالي من أبرز المحاربين الغرناطيين الذين لعبوا دورا بارزا وحيوياً في السياسة المغربية لتلك الفترة وكذا في الحياة الأندلسية بضرباته المفجعة ضد الشرافي، الإسبانية. فقد انتقلت هذه الشخصية المحاربة إلى المغرب قبل حرب البشرات الضاربة (1568 إلى 70)، واندمجت في الآلية السياسية المغربية بكل تناقضاتها وقامت بنشاط عسكري كان له وقعه الحاسم في تغليب كفة الميزان لصالح جانب ضد آخر في الدولة السعدية. وتقول بشأنه الباحثة الإسبانية گارسيا أرينال (M. Garcia Arenal): «إن الأخبار القليلة والمتفرقة الواردة حول الدغالي استطاعت أن ترسم لنا شخصية جندي المناسبات (مرتزق؟) (soldado de fortuna) جسور بشكل لافت للنظر ولبق وبعيد الهمة. فمن مهاجر مجهول ومقاتل وفرسان سبصبيح صاحب جاه وقائد عسكري كبير وغني في الجيش النظامي المغربي يملك القدرة على التأثير بجانب السلطان. ولم يكن يتورع في الإخلاص للأشخاص والسياسات وربما ظن أن هيمنته على دوالب الدولة كانت كافية للقيام بمحاولة انقلاب على أحمد المنصور» [32].

زيادة على ما ذكرناه حول شخصية الدغالي فإن المصادر التاريخية المغربية تقدمه لنا في صورة مستبد بالجالية الأندلسية المهاجرة إلى المغرب، فقد قال عنه أبو القاسم الزياني [33]: «في عام سبعين وتسعمائة (1562-1563)

أمر الغالب بجمع أهل الأندلس الذين خرجوا في الجالية على يد شيطان كان من أهل قرية بجبل غرناطة اسمه سعيد بن فرج الدغالي وأخاه أحمد خرج بتطوان وكانا يحربين بها فنزلا على كبير دولة الغالب الحسن بن أبي بكر، فزين للغالب جمع أهل الأندلس على يد هذا الدغالي فرسم له بذلك ودار عليهم في بلاد المغرب وجمعهم طوعا أو كرها وكتب منهم في الديوان أربعة عشر ألفا ونقلهم إلى مراكش فأقطعهم الجانب الغربي منها وهو روض الزيتون سكنى ... من المزارع والضياع واتخذوا فيه البساتين، وأعطوهم السلاح وسموا قائدا... عليهم الدغالي (...) وكان أهل الأندلس أكرههم على الجندية وقهرهم عليها وولى عليهم من لا يرضون ولايته فكانوا يتمنون له النكب ليخرجوا من ربقة الرقية إلى الحرية» .

هكذا نرى أن الأندلسيين الذين ابتعدوا من طغيان النصارى سيسقطون في شباك ذويهم وفي لعبة مصالح لم تكن في حسبانهم لما قرروا ترك أرض الأندلس، خصوصا وأنهم كانوا في مرحلة لم يكن فيها الخروج إجباريا من الأندلس.

إن حالتي عليّ المنظري وسعيد بن فرج الدغالي لمعبّرتان تعبيرا واضحا عن دينامية الهروب من المشاكل الشخصية والسقوط في مشاكل الغير دون أن يحسب لذلك الحساب الكافي، وهذه الدينامية ستتكرر في حالات أخرى خلال العقود المقبلة في الرباط وتطوان مثلا. فسنرى حدوث تعارض للمصالح بين زيدان وموريسكيي القصبة في مناسبتين اللتين أوردهما محمد رزوق [٨٤] لما قال: «وقد اصطدم هذا الطموح (أي طموح الأندلسيين إلى السلطة وتعزيز قوتهم) بسلطة الوصاية التي كان يفرضها زيدان، إذ أمر هذا الأخير قائده على

القصبة عبد العزيز الزعروري باغتيال العياشي أو القبض عليه فتفاوض في ذلك شيوخ الأندلسيين وأعيانهم. لكن الأندلسيين فضلوا البقاء بجانب المجاهد وحمايته من أي مؤامرة تحاك ضده.

واصطدم الأندلسيون مع زيدان للمرة الثانية عندما بعث لقائده السالف الذكر بأن يبعث له بالمزيد من الأندلسيين لإخماد فتنة وقعت بدرعة. لكن أندلسيي القصبة رفضوا هذا العرض، خاصة أنهم يعلمون المصير الذي آل إليه 400 من مواطنيهم «إذ طالت غيبتهم بها (الصحراء) فهرب أكثرهم».

إن نفس هذا السيناريو سيتكرر في تطوان. فلقد كانت تطوان معبرا طبيعيا وملائما للقواد الموريسكيين الوافدين من إسبانيا. غير أن المشاكل الداخلية التي كانت تعيشها هذه المنطقة كانت تؤثر سلبا على هؤلاء الوافدين وكانت تجعلهم يتحملون عواقب هذه الوضعية التي وجدوا أنفسهم قد أقحموا فيها عن غير رضاهم. فـ كوادا لاخارا M. Guadalajara الذي كان قريبا من الأحداث يحكي لنا الجو المخيم آنذاك على المنطقة وعلى ظروفها الحياتية في خضم النزاع الذي كان قائما بين زيدان والشيخ المأمون والذي كان المنتسي، مقدم تطوان، قد اتخذ فيه موقفا مناصرا لزيدان سنة 1608. فيقول: «... لقد كثر (قواد) آخرون يحضرون تطوان، وهي أرض غنية قد امتلأت بالمناصرين لزيدان من أشخاص وطوائف. وقد اقترحوا عليه جدوى التغلب هناك على بعض الصعاب التي ستسمح بجمع قدر مهم من المال وذلك لغرض تهديد تسليم (العرائش) حتى يتسنى جمع تلك الأموال. وقد حاول جوانسين (Juanetin) التشويش على الخديعة بذرائع حيوية وناجعة. وقد أبلغ (الشيخ المأمون) أن النهاية الشاملة ستحدث خلال أيام قليلة. ومن أجل امتثال سكان

القصر الكبير والعرائش لأوامره بجب إرغامهم بعقاب أهل تطوان. ولكن سرعان ما وجد الحل لهذه المعضلة لأن المدينة خضعت لحكم الملك (الشيخ المأمون) بعد ما فر المقدم النقسيس إلى الجبال وكفر المتهمون عن عقابهم بالمال. ولما رأى القواد أن مخططاتهم تضمحل بسرعة نصحوا الملك بالتأني خمسة عشر أو عشرين يوما إضافيا حتى يتسنى تحصيل ثمانين ألف إسكودس فرضت على الموريسكيين المطرودين من إسبانيا والقاطنين في تطوان ... »[35].

وقد دوّنت لنا الوثيقة التي نشرناها ضمن الدراسة التي قمنا بها بالمشاركة مع الأستاذ فيكرز Wiegers [36] تصرفا شبيها بالذي رأيناه سابقا. فتقول وثيقتنا بخصوص بعض الموريسكيين الذين كانوا قد أسروا بالقرب من جبل طارق عندما كانوا يحاولون الخروج من إسبانيا: « ... ففي تلك الشواطئ وغيرها يعرف الجميع أن موريسكيي الأندلس ومناطق أخرى يجوزون إلى المغرب بعائلاتهم ونسائهم. ولما كان هذا الشاهد دي أرطيكا (Fco. de Orte-ga) أسيرا في مدينة تطوان، تعرف على الكيفية التي جاز بها الموريسكيون الذين ذكرهم من إسبانيا إلى المغرب والذين كانوا قد اصطحبوا معهم أكثر من تسعة آلاف دوكادوس نقودا وقطعا ذهبية. وقد أخذ منهم الملك مولاي الشيخ الثمانية أو التسعة آلاف دوكادوس وأرسلهم إلى الخدمة الحربية. أما نساء هؤلاء الموريسكيين فيوجدن في تطوان وهن يصرخن من أجل المجيء إلى إسبانيا، وهن اللاتي أخبرن الشاهد بكل هذا » .

ويُورد B.Vincent y A.Dominguez [37] شهادة Rojas Casanate الذي عايش أحداث وصول الموريسكيين إلى المغرب، والتي تمشي في نفس الاتجاه الذي

قدمناه سابقا. فهما يقولان: «لقد جند منهم مولاي زيدان الآلاف من الجنود لفرض الحرب التي كانت دائرة بينه وبين مولاي الشيخ. وبعد ما هزمه هذا الأخير وجد الموريسكيون أنفسهم مضطرين إلى الفرار عبر الجبال حاملين أمتعتهم القليلة على ظهورهم ويجرون نساءهم وأطفالهم وهم يلعنون المغرب وملوكه، وبأصوات عالية أمام الملأ يمزجون أسفهم وثناءهم على إسم المسيح».

هذه إذن أمثلة دونها التاريخ عن بعض حالات الهجرة وكيفية إستقبال المغاربة للأندلسيين الوافدين عليهم. لقد بين لنا النزر القليل من الكتب التاريخية المغربية التي تعرضت لهذا الموضوع الحسابات التي كان يحسبها الملوك المغاربة تجاه موضوع الموريسكيين في إطار المعطيات الإستراتيجية الدولية المفروضة عليهم في تلك الأونة. لا ننسى أن ما يمكن أن نعبر عنه بالثلاثي المحترس المكون من المغاربة والإسبان والأتراك العثمانيين الذي كان يترصد الفرص لإنقضاض كل طرف فيه على الآخر. ولا ننسى أن هذه الوضعية كانت تملي اتباع سياسة حذرة تدبر فيها الخطوات المزعم اتباعها تدبيرا رصينا يتلافى جعل طرفين ضد الطرف الثالث. والمصادر التاريخية تعج بالإرشادات إلى النجدة التي كان الموريسكيون يطلبونها من المغاربة والعثمانيين وإلى الوعود التي كانت تعطى لهم ... الخ. وستجد لأول مرة في الوثيقة التي نشرناها والتي قدمنا بعض أجزائها، الإشارة إلى اعتذار الشيخ المأمون وزيدان عن عدم التمكن من تقديم النجدة بسبب الحروب التي كانت دائرة بينهما. فبمجرد ما سينتهيان من محاربة بعضهما البعض سيقدمان المساعدة للموريسكيين!![38].



الهوامش

(1) أنظر وثيقة أرشيف سيمانكاس الحاملة للرقم 148 ضمن الرزمة E 2639

(2) Mercedes Garcia Arenal. Los Moriscos. Madrid. Editora Nacional.1975 p 49.

(3) Julio Fernandez Nieva. "El entroncamiento entre Moriscos y Cristianos viejos

El caso de Hornachos en Extremadura. Nuevos datos. In les Morisques et leur temps. Paris. Les Editions du CNRS.P.275.

(4) أنظر المقال السابق. ص. 276.

(5) أنظر المقال السابق. ص. 277.

(6) أنظر المقال السابق. ص. 284.

(7) Hossain-Bouzineb - Gerard Wiegers. Tetuan y la expulsion de los Moriscos تطوان خلال القرنين 16 و17. تطوان. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. 1996. ص. 93.

(8) إن إسمي القاضي Gregorio Lopez Madera كاتب الضبط Juan de Pina يردان معاً في مجموعة من الاستنطاقات تدور كلها حول موضوع خروج الموريسكيين سرياً من إسبانيا أو اتهامات أخرى ضدهم وذلك في شهر ماي من سنة 1609 أي شهور قليلة قبل صدور قرار الطرد النهائي الذي عم أهالي الأندلس ومرسية وبلدة غرناطة (12 يناير 1610).

(9) أنظر مقال J. Fernandez Nieva المذكور. ص. 290-291 .

"Que Mande ver todos los pleytos de las personas que ay por injustas sentencias del dicho Alcalde padesciendo en las galeras, y dar livertad a los que constare que estan en ellas sin culpa."

"Que si S.M. da licencia para que dos vecinos de la villa de Hornachos vengan a Tetuan a dar relacion de los agravios que el dicho Alcalde hizo, vernan devajo del amparo de S.M.".

(10) أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي. المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب. خرجه جماعة من الفقهاء، بإشراف الدكتور محمد حجي. الرباط. نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، 1981، الجزء الثاني. ص. 440.

(11) Guy Turbet-Delof. "Documents sur la Diaspora Morisque en France au XVII Siècle". In Actes du II Symposium International du CIEM sur: Religion, Identité et Sources Documentaires sur les Morisques Andalous. Deuxième tome. Tunis, Institut Supérieur de Documentation. 1984. p. 164. "D'après la notice n°. 171 du catalogue de l'exposition (organisée par les Archives départementales des Bouches-du-Rhône: sous le titre: Sept siècles d'échanges avec l'orient,... nov. 1982-fév. 1983) cette lettre fait partie d'un cahier de cinquante-six feuillets relatant les démarches du procureur susnommé, aux fins d'exécution d'un arrêt du parlement d'Aix, en date du 13 janvier 1611, portant expulsion des Morisques réfugiés en Provence. Au terme d'une enquête à Martigues, Cassis, la Ciotat, la Cadière, Six-Fours et Toulon (26 Janvier-14 Mars 1611), Beaumont fit rembarquer pour Rome et la Barbarie quatre cents Morisques, Mais il semble qu'il ait sauvé de l'expulsion un nombre à peu près équivalent de ces apatrides: ceux qui purent fournir des certificats de travail, de non mendicité, d'orthodoxie catholique et de bonnes moeurs, dont plusieurs figurent dans ce dossier".

(12) أنظر المقال السابق، ص. 163:

Monsieur, les Morisques qui se sont retirés à la Cadiere et à Cassis, qui sont environ quatorze familles, ont présenté requeste afin qu'on ne les contraigne point de s'embarquer pour aller en Barbarie, attendu qu'ils sont bons crestiens et qu'ils ont bon moien de vivre. Les consuls dudit lieu en ont faict aussi instance pour eulx et le grand vicaire de Monseigneur de Marseille ensemblement a atesté qu'ils estoient fort gens de bien et bons crestiens. C'est pourquoy la cour a treuvé bon que je vous escripvisse de ne les points contraindre de s'em-barquer, ains les laisser vivre la jusques a tant qu'on voie si s'en porta asseurer. je vous fais ce mot seulement pour cet effect, en lequel (pensez (?) je (cerray (?)) priant Dieu vous donner, Monsieur, sainte, longue et heureuse vie. D'Aix ce vingt sept fevrier Mil six cens unze. Vostre plus affectionné serviteur, G. du Vers."

(13) Chantal de la Veronne. "Morisques et Mudejares dans les presides.

(14) A. Dominguez Ortiz - B. Vincent. Historia de los Moriscos. Madrid, Biblioteca de la Revista de Occidente, 1979, p. 233.

(15) Op. cit p.233.

(16) Hossain Bouzineb. "Plática en torno a la entrega de la alcazaba de Salé en el siglo XVII" AL-QANTARA, revista de estudios arabes. Madrid, vol. XV, Fasc. 1,1994. pp. 47-73.

(17) أنظر المقال السابق، ص. 65.

(18) Georges S. Colin. "Projet de traité entre les Morisques de la Casba de Rabat et le Roi d'Espagne en 1631". Hespéris t. XLII. Rabat. 1955, p. 21

(19) أنظر ما أورده محمد رزوق حول هذه الفتاوى في كتابه "الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16و17". الدار البيضاء. أفريقيا الشرق. 1989. ص.194 وما بعد.

(20) أنظر المرجع السابق، ص. 193 وما بعد.

(21) Hossain Bouzineb - Gerard Wiegers. "Tetuan y la expulsion de los Moriscos" en
تطوان خلال القرنين 16و17. تطوان. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. 1996 ، ص.78 .

(22) أبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي. المعيار المعرب. الجزء الثاني، ص. 440 .

(23) L. P. Harvey. Primer Congreso de Estudios Arabes e Islamicos. Cordoba 1964. Madr. Permanente de Estudios Arabes e Islamicos. 1964, p. 174 y ss. (ed. Comit.

(24) أنظر مقالنا السابق، ص. 93.

(25) أنظر مقالنا السابق، ص. 94.

(26) Guillermo Gozalbes Busto. Al-Mandari, el granadino, fundador de Tetuan. Granada. Consejo Municipal de Tetuan. 2a. edicion, 1993. p. 27.

(27) محمد داود. تاريخ تطوان. تطوان. مطبوعات معهد مولاي الحسن. ب.ت. الجزء الأول، ص. 89-90.

(28) أنظر مقالنا السابق، ص. 104

(29) Guillermo Gozalbes Busto, Al-Mandari ... p 172.

(30) محمد داود، المرجع السابق، ص. 90.

(31) محمد داود، المرجع السابق، ص. 97 : "... سكان القبائل المجاورة لتطوان كانوا قد استاؤوا أولا من بناء هذه المدينة بدعوى أن أرضها تقع في ملاكهم، وأن مرافقها هي مراعي لماشيتهم، وأن سانئها وعمارتها يضيقان عليهم ويضران بمصالحهم، والسكيرج قد سمى من أولئك الجوار بني حزمر، ولعله سمى منهم بني صالح وبني سالم ... وقد زاد السكيرج أن بني حزمر كانوا بالفعل يحاربون الأندلسيين ويهدمون لهم ما يبنونه من الدور، بل ذكر سيدي العربي الفاسي في تقييده أن بعض سكان تلك القبائل قد استصرخ النصارى ولكن الله سلم المسلمين الخ."

(32) Mercedes García Arenal, Vidas ejemplares: "Saed Faray Al-Dugali, un granadino en Marruecos (M. 987/1579)" Lamalif Almeria, no 3 diciembre de 1992 p.66.

(33) أبو القاسم الزياني، "الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب"، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 658 د،ص. 350.

(34) محمد رزوق، المرجع السابق،ص.190.

(35) أنظر مقالنا السابق، ص. 76.

(36) أنظر مقالنا السابق، ص. 82.

(37) A. Domínguez Ortiz - B. Vincent, Historia de los Moriscos, Madrid, Biblioteca de la Revista de Occidente, 1979, p. 233.

(38) أنظر مقالنا السابق، ص. 93 :

"Le dijo el dicho Pelaez a este to que quando se queria ir el dho. Chapiz, le abia embiado a llamar para despedirse del, y le abia dado quenta de que los Moriscos destos Reinos abian tratado primero con los Reyes de Fez y de Marruecos que les ayudasen con alguna buena armada por Larache, y que a la desalada en menos de un mes abria mas de cinquenta mill Moriscos armados con ellos, y que ambos Reyes que eran Muley Zidan y Muley Jeque, hermanos, le Respondieron que por estar ocupados en sus guerras no podrian tan presto, que si se desocupasen, que de Muy buena gana."

الموريسكيون بمنطقة مضيق جبل طارق

(الثلث الأول من القرن 11هـ / 17م)

حسن الفكيكي

تهدف هذه المساهمة إلى محاولة إضافة الجديد لصالح الدراسات الأندلسية المغربية بصفة عامة، ولما يدعى بالمباحث الموريسكية بصفة خاصة. وأعتقد أن الأكاديمية قد أحسنت الاختيار بطرح هذا الموضوع شعوراً منها بقصور الجانب المغربي في هذا المجال وتأخره عن باقي بلدان المغرب الكبير وجيراننا الإيبيريين خاصة[1].

ويعود قصورنا ولا شك إلى قلة ما لدينا من المصادر والمادة التاريخية، رغم أهمية الهجرات التي تلقتها بلادنا وميزة القرب الجغرافي الرابط بين الضفتين الشمالية الإيبيرية والجنوبية المغربية[2].

اخترنا التركيز على نموذج منطقة مضيق جبل طارق من مجال الشمال الغربي المغربي لإبراز ما كان لها من الدور في حركة الهجرات الموريسكية إلى المحيط المجاور قبل انتقالها إلى باقي الجهات والمدن المغربية الأخرى. واعتبرنا مدينة تطوان وحوزها كنموذج استقبال واستقرار الأسر الموريسكية وتفاعلها في المجتمع التطواني.

وحتى لا نتيه زمنياً حددنا إطار المساهمة بالبحث عن المادة التاريخية واستغلالها خلال الثلث الأول من القرن الثالث عشر الهجري (17م). أي طرح

الموضوع قبيل الإعلان عن موعد الطرد من جهة أولى، ثم عرضه إثر أزمة المسألة الموريسكية المتمثلة بأوجها في حدوث أكبر موجات الهجرات الناتجة عن قرار طرد عام 1609/1017 من جهة ثانية.

لا يخفى على أحد أن المعاناة الموريسكية لم تبدأ في مستهل القرن الحادي عشر، بل كانت لها سوابق بدأت بوجهها الحاد في بداية القرن العاشر الهجري، أواخر القرن الخامس عشر الميلادي[3]، بانتهاء الوجود الإسلامي بالأندلس وبقرار التنصير الإجباري المفروض على الأندلسيين منذ سنة 1499/905 [4]. وأيضاً بتوالي المأساة خلال سنوات القرن العاشر الهجري بعد الانتفاضات الموريسكية بمناطق الاستقرار بالأندلس وبلنسية ومُرسية واكْسْترمَدُورا[5].

وازدادت معاناة الأندلسيين بانسداد أبواب الهجرة الحرة إلى بلدان المغرب الكبير بقرارات من الدولة والكنيسة الكاثوليكيتين، نتيجة وجود مواقع من الساحل المغربي الريفي محتلة من طرف الإسبان[6]. وللبرتغال من مدن ساحل المضيق سبتة والقصر الصغير وطنجة وأصيلا من الشمال الغربي المغربي[7].

شكلت تلك المدن حزام حراسة بَحْرية ومحطات مراقبة رهيبة، مضافة إلى المدن الأندلسية الساحلية من ألمْرية ومالَقة وجبل طارق وطريف وقادس، يقظة لإيقاف كل الهجرات السرية الفردية والجماعية المحظورة على الأندلسيين[8]. وبالطبع هناك تحديات متمثلة في جريان من التسربات ممتدة على طول القرن العاشر الهجري (16م). والذي يليه، ومن تلك التسربات ستقدم النماذج التي أعددناها لتلك الغاية[9].

وتصور الأمثلة المخصصة لهذا العرض بمجموعتها الأولى آخر التسربات الجارية قبل أن يعم الطرد غالبية ما تبقى من الطوائف الموريسكية. أما مجموع الأمثلة الثانية فهي مخصصة للتعرف على النصيب الذي حازه الشمال الغربي من عملية الطرد العام[10].

ولا تدّعي الأمثلة المقدمة أنها دراسة شاملة للموضوع، بل هي مجرد عيّنات ونماذج قليلة من العدد الكثير الذي هو في حاجة إلى الاكتشاف. فما هي الظروف التي عاصرتها هذه النماذج ؟

للتحدث عن هجرات سنوات القرن الحادي عشر الهجري السابقة لقرار الطرد العام، نشير إلى أن المعلومات الأساسية جاءتنا من محاضر استجوابات الأسرى الذين تم افتكاكهم من تطوان بعد العودة إلى مواطنهم وذلك ما بين سنتي 1607 و1609م، وأضفنا إليها بعض الشهادات العامة المحيطة بسجلات محاكم التفتيش، علاوة على بعض المراسلات. وللأمثلة المقدمة علاقة بالوضع المغربي الداخلي.

فعلى الرغم من أن بداية القرن الحادي عشر لم تكن وضعيتها شبيهة بالحالة السياسية التي عرفها مغرب القرن العاشر الهجري، فإن الهجرات الأندلسية لم تتأثر باضطراب حبل السياسة الداخلية إثر وفاة أحمد المنصور وتنازع أبنائه على العرش ابتداء من سنة 1012/1603. والسبب المشجع على توالي الهجرات ظهور بعض الانفراجات السياسية وسط موجة الاضطرابات.

وأولى تلك الانفراجات ما تجلى من موقف المولى زيدان الإيجابي تجاه القضية الموريسكية. ولكن المشجع الأقوى هو وجود مدينة أندلسية في مقدمة الشمال الغربي المغربي بجميع مواصفات الحضارة الأندلسية[11]، حيث كان وجود العائلات الأندلسية بمثابة العنصر الحي من الموجهة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. كانت تطوان مدينة أندلسية في بلادنا أكثر من أي



مدينة أخرى، حريصة على تتبع أخبار الأندلسيين ومعاناتهم، متشوفة إلى مدّ حبل المعونة وتخفيف المعاناة.

ونضيف إلى ذلك وجود بادية ذات طابع مغربي أندلسي منذ ما قبل سقوط الدولة النصرية بالأندلس، إذ أن أصولها لم تكن بعيدة عن الأجيال الأندلسية المهاجرة. وبفضل هذا المشجع أصبحت مراسي وقالات ساحل منطقة المضيق على أتم الاستعداد لاستقبال المهاجرين.

تلك هي النظرة التي كانت تدين بها رئاسة مدينة تطوان على يد الزعامة المحلية. ولا نقصد بالزعامة المحلية سوى الأسرة الحاكمة من آل النقسيس. ربما كانوا هم أنفسهم من أصل أندلسي أيضاً أو أن جذورهم مغربية شمالية قبل أن تكون أندلسية[12].

ويهمنا من آل النقسيس المقدّم أحمد بن عيسى خاصة، فخلال حكمه (1008-1022)، تلقت تطوان الهجرات الأولى التي عرفتها بداية القرن الحادي عشر الهجري، "[13] وهو صاحب التعهد باستقبال الموريسكيين اللاجئين إلى مراسيه النشيطة، ومدينة تطوان على عهده هي التي ستتكفل باستقبال موجات المهاجرين المطرودين"[14]. وانطلاقاً من هذه النظرة الشاملة ندخل في مرحلة تقديم المعطيات المستخلصة من المصادر المعتمدة. وفي وسعنا وضع بعض تواصل الموضوع، بدءاً بالهجرات السابقة لموعد إعلان الطرد العام.

الهجرات قبيل قرار الطرد (1008/1599م - 1017/1609م)

لا ريب أن الأندلسيين الواصلين إلى ساحل المضيق هم من أولئك الذين لم يفارقهم أمل النجاة طوال مدة طويلة[15]. حقاً كانت هناك فرص قليلة محدودة لاجتياز مياه المضيق، ولكنها لم تكن منعدمة خلال الفترة المتراوحة بين فصلي الربيع والخريف[16]. وتصنف الهجرات الداخلة في نطاق هذا الجزء الأول من العرض إلى قسمين: مباشرة، وغير مباشرة.

أ) الهجرات المباشرة من السواحل الأندلسية

لا يخفى أن لأمثلة الهجرات المقدمة ارتباطاً بما كانت تدبّره الكنيسة والدوائر الإسبانية منذ بداية القرن المؤرخ له من تحضير لطرد الموريسكي، فهذا ما يمكن استخلاصه من زيارة فليبْ الثالث لبلنْسِيَة عام 1599. ويمكن أن نقول إن الخبر لم يكن بالسرية التامة مثلما أراد له مدبّروه، فالموريسكيون كانت لهم وسائلهم العديدة لتنسم الأخبار والحصول عليها بأوسع نطاق [47].

ونعني بالهجرات المباشرة تلك التي تمّت من مراسي الساحل الأندلسي إلى ساحل المضيق دون المرور بالثغرين المحتلين سبتة وطنجة. وعلى الرغم من عدم صعوبة التعرف على مواطن المهاجرين أحياناً وعدم التأكد من مراسي الاستقبال مرة أخرى، بل ومن احتجاب أسمائهم بسبب إخفاء هويتهم، فإنه يمكن الإشارة إلى مواطن غرناطة وإشبيلية وأراغون وإكسترمادورا ولشبونة والغرب البرتغالي.

أما مراسي الانطلاقة فهي منحصرة في مراسي الضفة الإيبيرية الجنوبية والغربية. ونجد في هذا الإطار في الدرجة الأولى مرسى موتريل وهو بساحل البشرات واقع عند مصبّ وادي ألفيو (Guadalfeo) بين غفرة وشالوبينية. ونضيف إليها مدينة مالقة، إذ أن ظروف الإبحار منها كانت ميسرة أكثر من المراسي الأخرى [48]. علاوة على جبل طارق، والطريق من قادسْ منفتح لناحية إشبيلية التي كانت موريسكية بالدرجة الأولى. وتلقت منطقة المضيق الهجرات أيضاً من لشبونة والغرب البرتغالي.

وعلى الرغم من أن معلوماتنا لحدّ الآن جدّ محدودة عن وسائل الهجرة المستعملة، إلا أن سبيل النجاة الوحيد هو توفير الوسيلة البحرية. غير أن التوصل إلى تلك الوسيلة لم يتأت لأصحابها إلا بعد التجول من منطقة داخلية

إلى أخرى ساحلية بحثاً عن المنفذ المناسب، علاوة على الالتجاء إلى الاستخفاء وراء حجاب التقية والتحايل للاستيلاء على السفن أو تحويل اتجاهها والنزول في أقرب محطات الاستقبال على ساحل المضيق.

وإلى جانب مراكز الانطلاقة هناك ما يقابلها من مراسي الاستقبال. ومثلما سنلاحظه فإن التوفيق لن يحالفنا في الكثير من المرات للتعرف على أسماء الأسر المهاجرة، مما سيجعل ذلك سؤالاً مفتوحاً ينتظر الإجابة.

1) بِلْيُونَش : أولى المراسي التي نالت اختيار المهاجرين بفضل مجاورته لسَبْتَة من الناحية الغربية. يتم العبور إليه في آخر المرحلة على حين غفلة من حراسة كل من جبل طارق وسبتة ويبعد عن الأخيرة بنحو ثمانية كيلومترات، كما أن الطريق البري منه مأمون إلى تطوان عبر شعاب مرتفعات مجكسة.[19]

2) ساحل أنجرة : اختارت بعض الأسر الموريسكية النزول بساحل أنجرة الممتد بين مدينتي سبتة وطنجة المحتلتين آنذاك. وتشير على الخصوص إلى كل من مرسى القصر الصغير وادي أوليان على الرغم من الحراسة الموضوعة عليهما من طرف طنجة، ومن مدينة طريف بالجهة المقابلة، يدل على ذلك خرجات سفن طنجة نحو مرسى وادي أوليان خاصة كلما وصل إليها الإعلام من قادس أو من طريف.

3) قالة وادي اليهود : جون صغير واقع غرب طنجة شكله وادي مصب وادي اليهود المعروف بهذا الإسم من خلال مصادر القرن الخامس عشر البرتغالية.[20]

4) نقط نزول مجهولة : هناك من الجماعات التي تجهل محطات نزولها بساحل المضيق، ولكن التأمل في نقط الانطلاقة الساحلية وظروف الإبحار

جعلنا نقدر أن نقط النزول لن تختلف عما توصلنا إليه في الأمثلة السابقة، أي مراسي ساحل قناة المضيق المشار إليها.

والمهم هو التعريف بالهجرات التي تقدمها معطيات الوثائق المعتمدة. لقد صنفنا تلك الهجرات إلى الأسر الفردية ومجموعات الأسر. وبذلك الترتيب سيتم التعريف بها. ولحسن الحظ أننا نعرف بعض أسماء الأسر الفردية المهاجرة.

أقدم ما وصل إلى علمنا ضمن النطاق الزمني المخصص لهذا البحث شيخ طالبيرة المدعو حسب الشكل الإسباني المقدم لنا (Alcaide Habentuth) وإذا كنا غير مرتاحين الآن إلى الشكل الذي نرده به إلى أصله العربي فإننا نقترح أن يكون الإسم ابن تونة.

ومما نعلم عنه أنه من مدينة طالابيرة (Talavera) إقليم لاريدة (Lerida) الشمالي، نصب نفسه عالماً وفقيهاً مكلفاً بتوعية الطوائف الموريسكية للحفاظ على القواعد الإسلامية والتمسك بدين أسلافهم، فالتفّ حوله عدد من الموريسكيين ليعلمهم دينهم مهما كانت الظروف التي كانوا يجتازونها. بينما أقبل هو من جهة أخرى يدبّر خطة الهجرة بمشاركة من معه بعد انضمامه إلى جماعة الباعة المتجولين (Caramancheles) تمكّن من تدبير خطة اجتياز البحر إلى الساحل المغربي هو وجماعة أخرى نجهل عددها ومرسى الانطلاقة والنزول معاً. ولكننا نضع في مقدمة الاقتراحات ساحل أنجرة حسبما سنلاحظه مما سيأتي من اجتياز الجماعات إلى المنطقة. ولا نعرف من أسماء الناجين معه سوى من دعاه المصدر المعتمد باسم شيشي(Chechi) بعد أن فشل في إقناع التاجر الموريسكي الهورناتشي خيرونيمو دي روخاس (Geronimo de Rojas) بالعبور معه.[21]

والغريب أن محضر محكمة التفتيش ذكر أن ابن تونة أصبح حتى بعد عبوره من أكبر علماء المغرب مما يدعونا إلى مزيد البحث للكشف عن هوية



هذه الشخصية. وفي 1600/1009 كان مستقراً بمدينة فاس على سبيل الترجيح أيضاً [22].

وحوالي سنة 1011هـ/1601م فرّ بالتعاون المدعوان رافائيل گارسيا (Rafael Garcia) وهو من أهل إشبيلية برفقة سيبستيان لوبيس (Sebastian Lopez) الذي هو من مالقة، اجتمعا بهذه المدينة وتم لهما الفرار بعد التمكّن من الاستيلاء على سفينة كان بها ثلاثة إسبانيين.

وبوصول المهاجرين الفارين إلى تطوان كشفا عن اسميهما. فالأول هو المسمى أحمد المفضل ويدعى الثاني أحمد لأغير. باعا المسيحيين الثلاثة أرباب السفينة إلى موريسكي آخر سمّته الوثيقة بوطيب (Botetbo) أو بوطيبو (boteyo) [23] وأسرتا المفضل وبوطيب معروفتان بتطوان منذ ما قبل بداية القرن الحادي عشر باختصاصهما في بيع الأسرى [24].

وأول من نعرف من الناجين من ناحية مرتريل (Motril) هو المدعو قاسم برميخو (Cazim Bermejo) (الأشقر أو الأحمر) ثبت وجوده بنفس التاريخ، أي يوم 23 صفر 28/1018 ماي 1609 بتطوان، وهو من القادمين في التاريخ القريب، ونستطيع تقدير مرتبته. إذ أنه سرعان ما أصبح من خلصاء المقدم أحمد النقسيس ومن مستشاريه في شؤون السياسة والجهاد حسبما يظهر [25].

ولدينا معلومات عن المهاجر سيدي الشاط (الطويل)، ربما كان انتقاله من سانتا ماريا مارسي قادس [26]. وهو من موريسكيّي إشبيلية.

وأسرة الشاط معروفة بأنجرة الداخلية منذ ما قبل هذا التاريخ مما يؤكد أن الأسرة كانت لها فروع بإشبيلية [27].

اشتغل سيدي الشاط (Zidi Achet) بمجرد وصوله بالتجارة مثلما كان في إشبيلية، (Botecasin) لا ندري متى عبر والظروف التي مر بها. ويدل مصدر الخبر أن الهجرة كانت قبل ذلك [28]، أي أن الشاط سبق له أن عبر خلال

السنوات الأولى من القرن 17. ففي سنة 1004/1606 كان بتطوان منشغلاً بالتجارة مثلما كان بإشبيلية. وبعد سنتين احتل مكانته بجوار أحمد النقسي.

وحسب شهادة تعود إلى سنة 1016هـ/1607م فإن الهورناتشي المدعو علي ابن إبراهيم (Alla Brahem) حل مع أفراد أسرته بتطوان بعد جولة من المعاناة؛ طويلة. كان علي الهورناتشي قد انتقل من قرية هورناتشوس إلى غرناطة، حيث قضى أربع سنوات بحثاً عن وسائل العبور مع جماعة أخرى ومن غرناطة انتقل إلى مالقة لنفس الغاية ومن هناك تحول إلى قادس ليعود بعدها إلى غرناطة، إذ أن الهورناشيين كانوا يتمتعون بامتياز التجول أحراراً في مجموع أنحاء إسبانيا. وبعد قضاء سنة بغرناطة عاد إلى مالقة ثانية، ومن هناك ركب البحر إلى قادس، ليتمكن أخيراً من النجاة إلى ساحل المضيق بتحويل اتجاه السفينة عند بلوغها مياه مدينة طريف هو وجماعة أخرى من الموريسكيين المتنصرين. وبذلك نجوا إلى ساحل أنجرة [26].

ولم تقتصر الهجرات الأندلسية السرية إلى منطقة مضيق جبل طارق على الأسر الفردية بل هناك توافد جماعي أيضاً حطّ رحاله بمراكز الاستقبال المذكورة. ويمكن تقديم ثمان جماعات مما أمدتنا به الوثائق المعتمدة. وبالطبع لن نتمكن من تقدير أعداد أسرها واكتشاف أسماء بعضها، وحسبنا الإشارة إلى أهمها.

أقدم مثال لدينا من المجموعة العابرة إلى ساحل أنجرة يعود إلى ربيع الثاني/جمادى الأولى من سنة 1007هـ/ نوفمبر عام 1599، حين علمت طنجة بقدوم سفينة أندلسية محملة بالأموال والألبسة وبعبورها باب بحر المضيق الغربي قادمة من إسبانيا من جهة الغرب دون تحديد نحو الساحل المغربي. ولذلك اقترحنا خروجها من قادس ومن مرسى سانتا ماريا، أي أن الأسر



المهاجرة كانت من أهل ناحية إشبيلية أو من الملتجئين إليها. وقد تم لحاكم طنجة لحاق المركب بوادي أوليان بالقرب من الساحل بواسطة بركانتيين فلم ينج من المهاجرين الأندلسيين نحو البر سوى جماعة منهم [30].

ويوافق هذا التاريخ ما سبق أن قدمناه عن عبور الشيخ ابن تونة وجماعة من مرافقيه. ولا نحتاج إلا لشهادات مؤيدة لإثبات ذلك. هذا هو الذي جعلنا نميل إلى عبور الجماعة وشيخها إلى ساحل أنجرة قبل التحاقها بجهات أخرى، منها مدينة فاس [31].

أُسَرٌ من مالقة عبرت في تاريخ متراوح بين سنتي 1012هـ/1603، وبين 1013هـ/1604، وهي مكونة من سبعة أو ثمانية موريسكيين وتسعة نساء، وعدد من الأطفال. استولى الرجال على السفينة بعد عبور مياه مدينة جبل طارق، التي تمكنت من تعقبها بمساعدة سفينة أخرى من سبتة دون طائل، وبذلك نجت الجماعة الموريسكية إلى المرسى [32].

ولدينا حالة عبور واحدة إلى قالة وادي اليهود، ففيه وجد في ذي الحجة من سنة 1011 / ماي 1604 مركب مهجور، علم بعد البحث أنه لمواطن من الغرب البرتغالي استولى عليه الأندلسيون وعبروا على متنه منذ أيام. ويدل بحث طنجة عن معرفة اتجاههم أنهم توغلوا نحو الداخل، غير أنه يصعب تحديد مستقرهم الأخير [33].

وحسب شهادة ماي 1609 فإن جماعة من الأسر الأندلسية وردت بأفراد عائلتها على تطوان حوالي عام 1014هـ/1606 وتمكّنت من نيل حظوة وعناية المقدم أحمد النقسيس [34].

وإلى بَلْيُونَشْ أبحرت جماعة أخرى في محاولة فاشلة. لا نعرف ظروف وصول الأسرة إلى جبل طارق ولكننا نعلم أنها استقرت بالجبل مدة من الزمن

إلى أن تهيأت لها فرصة النجاة. تمت المحاولة عام 1015هـ/1607 من طرف ثلاثة موريسكيين برفقة ثلاث نساء، تمكنوا من الاستيلاء على مركب والاتجاه به إلى المرسى[35].

على أن المثل الصريح المعبر عن الهجرة من قادس هو الذي يتحدث عن الفرار من مرسى سانتا ماريا (Santa Maria) في نفس التاريخ. نُفِّذت الهجرة من طرف موريسكيين تمكنا من الاستيلاء على مركب بعد أسر صاحبيْه اللذين بيعا بتطوان[36].

ومن تلك الجماعات المهاجرة إلى تطوان من لم يتحقق لها التخلص من معاناتها بصورة تامة، ونشير كمثال إلى تلك التي حلت بتطوان بعد أن نجت بأموالها حوالي سنة 1015هـ/1607، ولكن الشيخ المأمون الذي صادفت وجوده بالمدينة[37]، سلبها جل ما كان لديها، ودفع بالرجل للخدمة العسكرية معه في محاولته ضد العرائش والقصر الكبير لا شك[38]. ويدخل استيلاء أحوال الأندلسيين ضمن العقوبة التي فرضها محمد الشيخ علي أهل تطوان بعد فرار أحمد النقسيس إلى بني بوزرة والتجائه إلى زاوية سيدي أحمد الفيلالي[39].

ودلت شهادة 28 ماي عام 1609/22 صفر عام 1018 نفسها على وصول عدة أسر إلى تطوان بكامل أفرادها. وترجع أحداث الشهادة إلى سنة 1606/1014[40]. وسجل تقرير 23 مارس 1609/18 صفر 1018 ورود جماعة من الموريسكيين على تطوان من إسبانيا وذلك سنة 1607 وهي مجهولة الموطن والاستقبال[41].

الخلاصة أن هذه الأمثلة رغم قلتها وتقطع أخبارها والغموض التاريخي المرافق لها، فإنها تصور لقطة من فصول المعاناة والهجرات الأندلسية ومحاولة الأسر الموريسكية سبق موعد الطرد العام وأخطاره المنظرة للالتحاق بساحل مضيق جبل طارق.

وإليك الجدول الملخص لهجرات هذا الصنف الأول من الهجرات :

تاريخ	المهجر	الانطلاقة		أسر	الاستقبال
1599	قادس		مجموعة	ساحل أنجرة	
	؟	ابن ثوثة شبيتي		؟	عالم
1603	مالقة	أحمد المفضل		؟	تاجر عبيد
		أحمد		؟	
1604	مالقة		7 أو 8 أسر	بليونش	
	الغرب		مجموعة أسر	واد البهرة	
قبل 1606	مرتريل	قاس برميخو		؟	كاتب القسيس
1606	قادس	سيدي الشاط		؟	" "
1606	؟		مجموعة أسر	؟	
1606	؟		" "	؟	
قبل 1607	قادس	علي بن إبراهيم		ساحل أنجرة	
1607	جبل طارق		3 أو 4 أسر	بليونش	
"	قادس		مجموعة أسر	ساحل أنجرة	
"	"			؟	
"	؟		مجموعة أسر	؟	
"	؟		" "	؟	

2) الهجرات غير المباشرة

وحتى تكتمل لدينا صورة أحداث الهجرات الأندلسية نقدم الآن أمثلة الأسَر المهاجرة من المركزين المحتلين سبتة وطنجة أو من الجزائر، مستخلصة من نفس المصادر. ونقدمها على غرار نفس المنهجية.

الهجرة عبر الثغرين المحتلين

اختارت جماعة من الأسر الأندلسية طريقة الهجرة التدريجية غير المباشرة إلى منطقة المضيق بالانتقال أولاً إلى كل من سبتة وطنجة المحتلتين الواقعتين آنذاك تحت الوصاية الإسبانية نيابة عن الدولة البرتغالية، إذ أن الوصول إليهما كان أسهل بصفتهما مركزين مسيحيين.

وتجدر الملاحظة أن العادة قد جرت بالثغور المحتلة على إطلاق لفظ الموريسكي على عدد من مغاربة الشمال الغربي الذين اعتنقوا المسيحية لسبب من الأسباب وكانوا في خدمة حاكمي مدينتي سبتة وطنجة اللتين يهمنا أمرهما. وهذا الصنف غير داخل في الإحصاء الذي نحن بصدد تقديمه.

وتدل بعض محاضر استجوابات الأسرى الإسبان وسجلات محاكم التفتيش على أن عدداً لا يستهان به من الموريسكيين الأندلسيين كان موجوداً بكل من سبتة وطنجة. غير أن أخبار سبتة في بداية القرن السابع عشر أوفر من شهادات طنجة، لارتباط سبتة بتطوان في المباحثات الخاصة بافتكاك الأسرى، مصدر معلوماتنا الأساسي.



لا تعرف عدد الأسر الموريسكية المستقرة بسبتة قبل سنة 1609 إلا من خلال الإحصاء المقدم بعد سنة الطرد، ولكن التأمل في الأمر يدل على أن نفس الإحصاء مطابق بصورة من الصور على وضعيتها التي كانت عليها خلال السنوات السابقة. إذ أنه لم يختلف كثيراً عما كان عليه سواء سنة 1601 أو سنة 1614.

ومن المفيد إلقاء نظرة عما تخفيه سجلات الولادة المحفوظة بكنيسة المدينة لمن يرغب في تأكيد ذلك أو لمن أراد المزيد من التوضيحات [42]. وهذا هو مجمل الإحصاء المقدم لنا من خلال المصادر معاً يعود إلى السنوات المباشرة للطرد العام:

التاريخ	العدد
5 نوفمبر 1601	160 موريسكي
10 يونيه 1611	200 موريسكي
2 مارس 1614	170 موريسكي

بحث الموريسكيون السبتيون عن الفرار إلى أقرب القالات الخارجة عن حدود المدينة، واحدة منها واقعة على بحر الرمل غرباً، واثنتان أو ثلاثة على بحر أبي بسول جنوباً.

استغل مدبّرو الفرار من الموريسكوس عادة السبتيين البرتغاليين للتجوّل بالقرب من ساحل المدينة على ظهر مراكب الصيد الخارجة بقصد النزهة، بعد الحصول على ترخيص من حاكم المدينة خلال أيام العمل وإذن قيّم الكنيسة أيام الراحة والأعياد. والحالات التي نقدمها هي :

1) من مرسى بليونش المعلوم لدينا: لا نعرف من الهجرات التي تلقاها مرسى بليونش سوى مثالين فقط يعودان إلى سنة 1015هـ/1607 وذلك بسبب قربه والحراسة الشديدة المفروضة عليه. ففي المرة الأولى نجا ثلاثة موريسكيين، وتبعهم في المرة الثانية ثلاثة آخرون وعدد من النساء.

2) قلعة مثنة أو كاستيبيخوس (Castillejos) المسماة كذلك من طرف الإخباري زورارا (Eanes Gomez de Zurara) في بداية القرن الثامن الهجري (15م)، إشارة إلى وجود آثار قلعة قديمة تعود إلى القرن الرابع الهجري، وهي واقعة بمصب وادي المتاول حسب البكري، ويسميه الإسبان وادي كونديسا (Condesa)[43].

فإلى هذا المكان وصل سنة 1015هـ/1607 موريسكي جندي مع زوجته كان بتلك الصفة بسبتة، استطاع كسب وُدّ حاكم المدينة البرتغالي ألونصو دي نورونيا (Alonso de Noronha)، وتجول على ظهر مركب صيد عدة مرات إلى أن تمكن في آخر جولاته من النزول في قالة كاستيبيخوس، حيث وجد في استقباله أهل قرى الرمل وبني مصالة وأبي قورس[44]. ويظهر أن الشخص جد هام، إذ أن التقرير جعل منه المخطط الحربي لجيش محمد الشيخ المأمون السعدي أثناء حربه لأخيه زيدان[45].

4) مصبّ وادي نكرو: وادي نكرو واقع على بعد نحو اثني عشر كيلومتراً من سبتة على ساحل بحر أبي بسول بالقرب من المكان المعروف حالياً بالريستينكا (Restinga) والاتجاه إليه يسهل التسرّب لتضرس المكان ووجود قرى قريبة مثل قرية عليان وبوجميل القديمة[46].

ونعرف أيضاً من الأسَر الناجية إلى مصبّ وادي نكرو تلك التي تمّت لها النجاة يوم 21 صفر 1016/17 يونيه 1607. كان منفذ عملية الفرار قد حلّ بالمدينة في منتصف ماي السنة، ترافقه أسرته المكونة من أربعة أشخاص.

وميزة الأسرة أن رئيسها أتى برسائل من لشبونة توصية إلى حاكم المدينة ألفونصو دي توروتيا متنكراً بصفة جندي منتمي إلى حامية وهران، مما مكنه من كسب احترام السلطات المحلية. ظهر هذا بتمكنه من القيام بعدة جولات على ظهر مركب صيد بترخيص من الحاكم.

اختار رئيس العائلة يوم الأحد لتنفيذ مخطط الفرار بواسطة مركب مكترى بعد الحصول على رخصة قبيس سبتة لكون ذلك اليوم هو يوم الأحد وفي الوقت الذي ابتعد فيه المركب عن المدينة أرغم الفارون سائق المركب بتحويل الاتجاه نحو الساحل المغربي إلى أن وصلوا إلى مصبِّ وادي نكور ومنه قطعوا الطريق إلى تطوان.

والمهم لدينا المعلومات المتضاربة التي اعترضت طريق الكشف عن هويته بعد اهتمام سبتة بملفه غاية الاهتمام. علم بعد البحث الأول أن المعني بالأمر من قرية هورناتشوس،حيث كان بها مكلفاً في الجهاز العدلي (Alcaide Ministro de la justicia) ثم فرَّ إلى لشبونة بعد أن افتضح أمر مشاركته في تزوير السكة. ومعه إحدى زوجات المفروض عليهم.

وعلينا أن نصدق بصفة أكثر التحقيقَ الذي أجري بعد ذلك بناء على شهادة تاجر إسباني اتصل شخصياً بالفار أثناء وجوده بتطوان، وآخر ممن سبق أن اتصل به في سبتة. فحسب الأول فإن الشخص الفارَّ على ما صرح به هو نفسه من غرناطة، انتقل إلى لشبونة موهماً أنه ضابط بحامية وهران وبتلك الصفة حل بمدينة سبتة.

وأقر الشاهد الثاني أن الفار من وادي آش بغرناطة وأنه كان يدعى خوان كونثاليص (Juan Gonzalez). وسبق له أن كان مساعداً في الجهاز العدلي لمدة ثلاث سنوات (Alguazil Mayor) بمدينة باظة (Baza) [47].

4) النزول بمرسى غير مصرح به : وعلى الرغم من أن محطة النزول غير مصرح بها من طرف بعض الشهادات المعتمدة فإنها في نظرنا لن تخرج عن المراسي المذكورة بعد إضافة الدعمو أنذاك مرسى المقار المعروف حالياً بالمضيق.

ومن تلك الحالات تقدم المثال المسجل في صفر 1018/ماي 1609 وهو يخص فرار موريسكي آخر إلى تطوان اسمه أحمد بمعية أسرته وماله، وقد توجه إلى مدينة فاس لوجود أهله بها، حيث كان بها نحو سنة 1603 أو 1604 مما يقرب لنا تاريخ الهجرة [45]. وإليك الجدول التالي:

تاريخ الهجرة	مكان الانطلاقة	أسرة	مجموعة أسر	مركز الاستقبال	المرتبة
1603	سبتة	أحمد			
1607	-	فرد واحد		بليونش	
-	-	3	3 أسر	-	
-	-	أسرة واحدة		قلعة مشنة	جندي
-	-	-		قالة وادي	موظف عدلي

الهجرات من خارج شبه الجزيرة الإيبيرية

هناك حالات كثيرة سابقة لا تدخل في الدائرة الزمنية المخصصة لهذا البحث أتيحت لأصحابها فرصة الابتعاد عن شبه الجزيرة الإيبيرية، إما [illegible] قراصنة الأتراك الذين كانوا يجوبون مياه الساحل الإسباني

الشرقي خاصة. وتمدنا الوثائق المعتمدة بعدة أمثلة وإن كانت قليلة، ولكنها نماذج من الوسائل التي التجأ إليها الموريسكيون لرفع شبح المعاناة منذ وقت سابق.

من الجزائر

إذا تخطينا إيجابية موقف الدولة العثمانية تجاه المعاناة الموريسكية، وجدنا أن الأندلسيين علقوا أمل النجاة أكثر على ظهر السفن التركية[49]. فالقرصان الجزائريون الأتراك كانوا على اتصال بمضيق جبل طارق ومراسيه الهامة، ومرسى مدينة تطوان في مقدمتها، وذلك منذ الربع الأول من القرن العاشر الهجري، يربطهم بها التعاون في المجال البحري ضد السواحل الإيبيرية، وكان الموريسكيون القاسم المشترك في تلك العلاقات والعنصر القائم بدور إعداد مخطط الغزوات الخاطفة للسواحل الأندلسية. ولن نحتاج إلى التذكير بأن محطة نزول السفن الجزائرية لن تكون سوى مرسى تطوان.

ربما كانت أقدم إشارة إلى الهجرة من الجزائر خلال الفترة المؤرخة ما ذكره جندي من سبتة وقع أسيراً بيد مجاهدي تطوان وبقي تحت نظر الأندلسي أحمد بوطيب (Boteibo) إحدى عشر سنة، فقد ذكر أن جماعة من الموريسكيين وصلت إلى تطوان بجميع أموالها، بعد أن فرت إلى الجزائر، أي أنها حلّت بتطوان في بداية القرن الحادي عشر[50].

ومن جملة الأمثلة التي تقدمها ما قام به الرايس المعروف مراد البرتقيز بنقل الأسرى بين الجزائر وتطوان من جهة إلى أخرى. يعود المثال إلى ما قبل سنة 1607، نقل معه من جملة من نقل من الموريسكيين اثنين تمكنا من التعرف على اسميهما وموطنهما، فهما من ناحية قاطالونيا. فالأول من "فيا فيليشي (Villa feleche) اسمه أحمد من ناحية سرقسطة (Zaragoza) أما الثاني فهو من "تيرير (Terrer) بالقرب من سرقسطة ومن جهة قلعة أيوب

(Calatayud) واسمه علي كانا قد انتقلا معاً إليها من جهة إشبيلية[31].

وفي نفس الشهادة يظهر أن اسمه عليٌ وهو من إشبيلية انتقل من الجزائر إلى تطوان سنة 1609 مع جماعة أخرى أثناء وجود الشيخ العامرون بإسبانيا[32].

وهناك شخص آخر لم يذكر اسمه فر إلى الجزائر ثم وصل إلى تطوان بفضل علاقات السفن التركية بمرساها حسب شهادة ماي 1609[33].

تاريخ الهجرة	مكان الانطلاقة	أسرة	مجموعة أسر	مركز الاستقبال	المرتبة
قبل 1607	الجزائر	أحمد	جماعة	مرسى تطوان	
-	-	علي		-	
قبل 1609	-		جماعة	-	
-	-	أسرة واحدة		-	
1609	-	علي	جماعة		

منطقة المضيق ونتائج الطرد الموريسكي من القضايا التي لا زالت تشغل بال الباحث المغربي فإننا في الواقع لا نتوفر على أخبار وافية وواضحة لحد الآن بالنسبة لمنطقة المضيق [34]. كل ما نعرف أن الأساطيل الإسبانية عبئت لطرد الموريسكيين من مناطق جغرافية متباعدة [35]، وأن الاختيار وقع على مرسى قرطاجنة لجمع المطرودين [36]، ولكننا نجهل باقي تفاصيل الطرد، خاصة أثناء إلقاء الموريسكيين وراء أسوار حصني سبتة وطنجة.

من الملاحظات التي لا يمكن إغفالها أن فترة الطرد المورسكي [illegible] ة حكم محمد الشيخ المأمون السعدي على منطقة جبل طارق [illegible] 1610 بواسطة قائده حمّو بوديبرة. وعلى الرغم مما تعلمه من سر، معاملة المأمون لأهل تطوان الأندلسيين وتجريدهم من أموالهم وإجبارهم على العمل بجيشه، فإن التاريخ الموثق لم يقل بعد كلمته في الموضوع.

ونورد هنا ما استخلصناه من بعض البحوث المنجزة بصدد إحصائيات الوافد الأندلسي. فإذا كان أحمد المقري التلمساني قد أشار إلى استقبال تطوان للمهاجرين دون التوصل إلى تحديد العدد[57]، ففي إمكاننا التذكير ببعض الإحصائيات المقدمة من طرف بعض الباحثين[58].

وإذا كانت هناك مبالغة في تقدير العدد المقدم من بعض المصادر حين جعلت نحو سبعين ألف مهاجر من حظ تطوان وحدها ومن المطرودين الإشبيليين الواصلين إلى سبتة فقط.[59]، فإن هناك إحصائيات مقبولة، متمثلة فيما هو منسوب إلى دوق مدينة صيدونيا معبرة عن وصول نحو عشرة آلاف مهاجر[60]. وهذا العدد قريب من الذي نقله هنري لوباري مما خصه للخارجين من سبتة وطنجة معاً، حينما ذكر أن العدد الواصل إلى سبتة بلغ أربعة آلاف وسبعاً وستين مهاجر من ناحية إشبيلية.

وكيفما كان مدلول تلك الإحصائيات فإن نتيجتها بصفة إجمالية دالة على توصل المنطقة بعدد كبير جداً من المهاجرين، تفرقت الجموع التي نزلت بسبتة إثر الطرد بين تطوان وشفشاون والقصر الكبير والعرائش والأحواز[61]. وهناك ما يتبقى البحث عن الأسر الأندلسية الوافدة، ولا شك أن النتائج ستكون باهرة إذا ما تمّت تلك البحوث التي لا زالت تلقى إعراضاً من طرف الباحثين.

وإذا صدقنا الرواية الشفوية المتوارثة عن روايات قديمة فإن نتائج النمو السكاني بمدينة تطوان المترتبة عن الطرد الموريسكي متجلية في ظهور حومة السانية بأعلى حومة العيون ابتداء من سنة 1020هـ/1611م، وهي التي كانت آنذاك معروفة برياط الأندلس[62].

وما يمكن التأكد منه أن جماعة من الأندلسيين المطرودين كانت قد التجأت إلى سكنى الجبال المقابلة لمدينة تطوان من ناحية الجنوب، مما يجيز لنا الإشارة إلى بني حزمار أو بني بعز. ونعني بتلك الجماعة التي أرادت سنة 1622 الانتقال إلى الجزائر حيث كان لها أقرباء هنالك وتم أسرها من طرف القراصنة الإنجليز[63].

وذكر المؤرخ الإسباني: Alejandro Correa de Franca من القرن الثاني عشر الهجري (18م)، أن تطوان كانت آنذاك تعج بالأسر التي أصرت على الاحتفاظ بأسماء وألقاب أندلسية، مثل كاردناس، كابريرا، مندوثا، لوكاس، بايس، أوليفاريس مارتينس[64].

وبخصوص أسرة كاردناس نعرف أنها من المهاجرين الإشبيليين الواصلين إلى تطوان خلال هذه الفترة حسبما يعبر عنه ظهورها سنة 1615. أول من نعرف من أفرادها المدعو أحمد كاردناس (Cardenas) وهو أخ أو قريب لقاسم كاردناس كاتب المقدم القسيس والمدعو قبل ذلك إرنان شانيز الأندلسي (Hernan Chaniz)[65].

على الرغم من أن المصادر تذكر أن طنجة آوت عدداً من المطرودين الأندلسيين لا يقل عن الداخل إلى سبتة إذا صدقنا ما وجدناه في بعض المراجع، فإن ما تلقته طنجة من إشبيلية فقط هو أربعة آلاف ومائتا موريسكي من المطرودين[66].

ومن المعتقد أن الخارجين من طنجة تفرقوا على الجهات الداخلية والجنوبية من الشمال الغربي، مدناً وبوادي، مثل أصيلا وشفشاون والقصر الكبير والبوادي سهلاً وجبلاً، باستثناء من رحل إلى جهات أخرى أكثر بعداً في البلاد. ويمكن التساؤل عن الجماعات التي نعرفها بجبل حبيب بني كرفط وبني مصور جهات أخرى[67].

ويمكن ملاحظة أن عدداً من الأندلسيين المهجّرين المستقرين بتطوان وحوز منطقة جبل طارق عبروا عن رغبتهم للعودة إلى الأندلس لأسباب ردها الكتّاب من رجال الدين إلى حنين المهاجرين للعودة إلى المسيحية.

وسيخضع هذا الطرح للمنهج التاريخي ليقول فيه كلمته، مما لا مجال لاجتهاد في هذا البحث الآن[68].

وإذا أردنا الخروج بحصيلة عامة بناء على استقراء هذا النزر القليل من الشهادات فإن النازحين من مضيق جبل طارق وجدوا المناخ المناسب بتطوان للعمل إلى جانب رئاسة الزعامة المحلية ومقدمي الجهاد من آل النقسيس، وهي حصيلة لا مجال للحديث عن تفاصيلها قبل الحصول على المزيد الكافي من المصادر.

وحسبنا في الختام تقديم الملاحظات التالية :

1) فبحثاً عن تكوين فكرة عامة عن نتائج الفترة المستخلصة لصالح الهجرة وسكان منطقة المضيق تقدم التصنيف العام الدال على التراتب الاجتماعي [illegible]ة تطوان خلال الفترة المؤرخة، فهو حسبما نراه كما يأتي :

[illegible]ر أندلسية بلغ اهتمامها بتجارة الأسرى، وأصبحت عائداتها من موارد مدينة تطوان هامة، نعدّ من تلك الأسَر أسرة المفضل (1607م) وأحمد برطيب (1607-1612) وأحمد بوردان (1609-1612-1614-1615) وكابريرا (1621)

والبشير (1625) وعلي غيلان (1625).

- هناك أسر كانت مكلفة من طرف نظام آل النقسيس بمباشرة مباحثات الأسرى الأجانب بتطوان وطنجة، مثل إبراهيم التبان (1636)، وأسرة كارديناس التي منها الإخوان أحمد والقاسم (1615-1625)، وأحمد البلغري (1625).

- أسر مختصة بخدمة جهاز آل النقسيس التنقيبي والسياسي، منها أسرة الشاط (1609) وقاسم برميخو (1609)، ومن اسمه بنداق (Bendac) أو بندهاق الأندلسي (1621) وفرج الأندلسي (1633) والحاج موريسكو (1646) إلى جانب عدد من الهورناشيين، أمثال النجار الموريسكي والأبيض بو القاسم وإبراهيم قاسم وأحمد صبرون. كل هذه الأسماء وغيرها تحتاج إلى أبحاث خاصة بها، ولن نستوفي قسطاً من حق الأسر الموريسكية إلا بكشف الغموض وإزاحة الستار عن هوياتها.

- إذا حاولنا جمع حصيلة الوافدين إلى تطوان من خلال الإحصاءات المقدمة سنجد أن هناك واحدا وثلاثين أسرة فردية وتسع مجموعات مجهولة العدد. وبالطبع نقدر أن هذا العدد لم يستقر بمجمله في المدينة.

4) رغم ما قد تحمله اعترافات الأسرى المستندة على مشاهداتهم ومسامعهم من حقائق تاريخية فإن ذلك لا يمنعنا من وضعها رهن الاختبار والتمحيص، فهي في الأخير ليست سوى روايات شفوية غير ممحصة وقابلة للتحقيق والأخذ والرد، شرط توفر ما يقابلها من المعطيات والبيانات.

- إننا ما زلنا في حاجة ماسة إلى أمثلة ونماذج أخرى لتركيب تاريخ منطقة مضيق جبل طارق وعلاقاتها بالتوافد الأندلسي خلال القرن الحادي عشر الهجري.

- إننا لا زلنا مفتقرين إلى وسيلة الكشف عن هوية الأسر الأندلسية

المهاجرة وأدوارها على الصعيد المحلي والنطاق الوطني خلال القرن المؤرخ له. فلا بدّ من العودة إلى القائمة العامة التي قدمها بعض الباحثين لفرز كل أحوال الأسر والتعريف بظروف عبورها ومكانتها ودورها في مجتمع الشمال الغربي المغربي والخروج بها من مجرد العموميات العابرة إلى التفاصيل الغنية المتوخاة.

– لم تنل بواديي منطقة المضيق خاصة والشمال الغربي المغربي بصفة عامة حقها من البحث بعد، مثلما حظيت به بعض المدن أمثال تطوان والشاون.

الهوامش

1) الإشارة موجهة إلى ما حققه الأستاذ كييرمو غونثالس بوستو (Guillermo Gonzalez Busto) منذ عدة سنوات من الأبحاث عن الموريسكيين بالمغرب عامة وأندلسيي تطوان والشاون ومصب أبي رقراق خاصة.

2) لا تظهر جدة الدراسات الأندلسية بالمغرب إلا فيما قدمه الأستاذ محمد رزوق عن الهجرات الأندلسية إلى المغرب وما حرره باحثون مغاربة أمثال عبد الوهاب منصور ومحمد حجي عن بعض الشخصيات الموريسكية البارزة في الميدان العسكري والثقافي.

3) بدأ الظهور في القرن الثالث عشر الميلادي في المناطق التي وقعت بيد ملوك الاسترداد.

4) محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، ص. 58، البيضاء - 1991. ويقدم لنا المجهول صاحب نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر مجموعة من أسماء الأسر المهاجرة إلى الشمال الغربي في آخر القرن التاسع الهجري. كما أن المصادر الإسبانية والبرتغالية تمدنا من حين لآخر بهجرة بعض الجماعات إلى مختلف جهات الشمال الغربي.

... كانوا كلهم موريسكيين (H. Lapeyre, Geographie, p. 185.186.239).

... 1497/903 وصخرة باديس سنة 1564/972.

7) تم احتلال الثغور من طرف البرتغال بدءاً من سبتة عام 818/1415 ثم القصر الصغير عام 863/1458 فأصيلا وطنجة عام 876/1471.

8) يقول أحمد بن قاسم الحجري أفوقاي في تلك الهجرات: «واعلم أن الله تعالى قضى على بقية المسلمين من بلاد الأندلس وأيضاً فيما لهم في بلاد المسلمين الثغور المختلفة أن النصارى [illegible] من يرد عليهم من المغرب شيئاً كثيراً»، ناصر الدين على القوم الكافرين، تح. محمد رزوق، ص 32 (1987 الرباط). ومن المهاجرين: القشتالي وأفقاي وطنشور [illegible] سنة 1993 [illegible] الأستاذ.

G.G. Busto : La antroponimia morisca en Marruecos, p.400. Centre d'Etudes et recherches Ottomanes Morisques de Documentation et d'Information , Zaghouan 1995.

9) هناك ما يدل على أن الشمال الغربي المغربي كان منطقة استقبال للهجرات الأندلسية، ليس فقط مدينة تطوان والشاون والقصر الكبير، بل في البوادي أيضاً. وليست هناك أي دراسة خاصة تجمع شتات المعلومات عن الهجرات ومواقع الاستقرار بهذه البوادي، بل هناك فقط بعض الإشارات والملامح التي لا تغني عن البحث المستفيض. تحدثت هذه المصادر [illegible] عن المهاجرين [illegible] وتجدر الإشارة أيضاً إلى [illegible] بين طنجة وأصيلة (G.G. Busto, Los Moriscos , p. 102).

10) عن محاكمة الموريسكيين أنظر أيضاً محمد الشنتوف، محنة الموريسكيين في إسبانيا، تطوان 1990؛ عبد الله حمادي، الموريسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس، 1492-1616.

11) محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، ص. 250.

12) Guillermo Gozalbes Busto, Los Moriscos en Marruecos, p. 177 .

13) محمد داود - تاريخ تطوان، 1/337. هناك ما يخالف ذلك من أنه عكس ذلك (B.N. Mss. 2022, f.611; 2281 fol. 58. Mss.4380 fol. 16. 16v) (G.G. Busto, Los Moriscos, p. 113).

14) هناك تعهد أحمد النقسيس وردت صحته بالإسبانية في بحث الأستاذ [illegible] ندوة تطوان خلال القرنين 16 و17، ص 106 يتعهد فيه باستقبال الموريسكيين [illegible] بالمراسي التابعة في إيالته (A.G.S. Estado , L. 220).

15) A.G.S. Estado L.2644 بتاريخ 30 مارس 1614 (أعمال ندوة تطوان خلال القرنين 16 و17، تطوان 1996 ص. 104).

16) يمكن الإشارة إلى النصف الأول من القرن العاشر الهجري. (محمد رزوق، الأندلسيون ص. 128) أنظر مثلاً ما كتبه الأستاذ كميرو كرتناسي بوسطو من أعماله المذكورة هنا وخاصة بحثه المعنون : Etat de la Morisologie durant les trente dernières années منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات. زغوان – يناير 1995.

17) راجع إشارات القطر عند بداية القرن السابع عشر وذكر القرار السري له بتحقيق إلا يوم 30 يناير 1609، لصالح القرار العلني يوم 4 أبريل 1609.

18) Nicolas Cabrillana Ciézar , Malaga y el corsarismo norteafricano. Cuadernos de la Biblioteca española de Tetuan , p 181 19-20 1979.

19) عن المرسى وعمليات القرصنة. أنظر دعوة المغرب، 1378/4 ومثال محكمة في المراقبات الواقعة بين سبتة وتطوان. (أنظر حسن الفكيكي، مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور الشمالية المحتلة. مرقون، ص 136).

20) حسن الفكيكي، مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور الشمالية المحتلة. دكتوراه الدولة مرقونة، 1979.

21) Louis Cardaillac , Un affrontement polémique , p 421. Paris 1977

22) ب. حكم الموريسكي خيرونيمو دي روخاس (Jéronimo de Rojas) سنة 1601 في محكمة التفتيش بطليطلة. (Inquisicion de Toledo , Legajo 197 , 51)

23) ما عدا محمد ابن عروس أبو الوطن – الذي وصل إلى القسنة بالإسبانية.

24) نعرف من أهل المنطقة في بداية القرن الحادي عشر أحمد بن محمد بن أحمد بن المفضل العرباطي. (علي النابلسوتي، البعثة المغربية في السفارة التركية، ص. 116). ومن الأمريس أيضاً أنظر (Los Moriscos en Marruecos) في كتابه الموريسكيون بالمغرب (Guillermo Gozalbes Busto) منشورة 1992 ص. 89-103-109 ؛ أيضاً صورة تطوان خلال القرنين 16 و 17، ص. 82. (A.G.S. Estado L 2639)

25) Hossain Bouzineb, Gérard Wiegers, Tetuán y la expulsion de los Moriscos, doc. 1. A.G.S Estado L 2639.18 ؛ تاريخ تطوان في القرنين 16 و 17 ص. G.G. Busto , Los Moriscos, p. 70.

26) تقرير 28 ماي 1609. صورة تطوان خلال القرنين 16و17.ص.101.

27) تعرفنا من الأسرة علي المجاهد علي الشاط شيخ أنجرة عام 830/1426 أثناء حصار البرتغال آصيلا (كرينة [illegible] ...غداح، الفكيكي- مقاومة الرهبرة الإسبري بالثغور الشمالية المحتلة. أطروحة [illegible] الرباط 1991.

28) أسر صاحب البحر سنة 1603 وأطلق سراحه في مارس 1607، فقضى جزءا من الأسر بالجزائر وانتهى إلى تطوان. وكان يحمل بطاقة المقدم أحمد النقسيس A.G.S (Estado, L. 2639) تطوان ص 81 الوثيقة 1.

29) أخذت الشهادة بقرية فورناشوس يوم 18 ماي 1608، أعمال ندوة تطوان خلال القرنين 16 و17، ص. 102.

30) Fernando de Menses. Historia de Tanger , p. 110 Lisboa 1732 .

31) Inquisicion de Toledo, L. 197/5 .

32) Nicolas Cabrillana Ciezar , Malaga y el comercio p. 181

33) F. Menses . Historia de Tanger . p. 118-119

34) ندوة أعمال تطوان خلال القرنين 16و17 ص. 101.

35) أعمال ندوة تطوان خلال القرنين 16 و 17.ص. 81 (A.G.S. Estado L. 2639)

36) ندوة تطوان خلال القرنين 16 و 17، ص. 84 (A.G.S. Estado L. 2639)

37) يحتفظ أحمد النقسيس بالولاء لشيخ المأمون إلى سنة 1608 حينما يستولي زيدان على مراكش. ويضطر الشيخ إلى إسبانيا لطلب الإعانة على أخيه زيدان في نفس السنة ويعود سنة 1610 ليسهل تسليم العرائش للإسبان يوم 20 نوفمبر من نفس السنة. (داود تاريخ تطوان، 139/1).

38) H Bouzaneb et G. Wiegers, Tetuan y la expulsion de los Moriscos . أعمال ندوة تطوان خلال القرنين 16و17.ص. 81 (Doc. 1 A.G.S. Estado L. 2639)

39) أخبار نقلت عن شاهد عيان تاجر جنوي كان في خدمة محمد الشيخ بتطوان.

(Guadalajara . y Xavier, F.M. de Prodicion y destierro de los Moriscos de Castilla Hasta el Valle de Ricote con las desensiones de los hermanos de Chariles , y pressa en Berberia de la fuerça y puerto de Larache . Pamplona , 1614) عن أعمال ندوة تطوان خلال القرن 16و17.ص.80.

40) الوثيقة رقم 2 ضمن تطوان في القرنين 16و17، ص 101 (A.G.S. Estado L. 2639)

41) ضمن تطوان خلال القرنين 16و17، ص 84 (A.G.S. Estado L. 2639)

42) هناك بحث في هذا الموضوع قدمه الباحث الإسباني كارلوس بوسك مون في مجلة Cuadernos de la Biblioteca Española de Tetuan, p. 191, 1978

43) أنظر حسن الفكيكي، مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور المغاربية المحتلة، 105/1

44) المرجع السابق

45) الوثيقة ضمن تطوان خلال القرنين 16و17، ص 84 (A.G.S. Estado L. 2639)

46) حسن الفكيكي، مقاومة 1/109-110

47) P. De Azevedo, A inquisição em Ceuta e Tanger no principio do século 17, documento 7 p. 417-425, Cuadernos de la Biblioteca Española de Tetuan, 17-18 (1978)

48) ضمن أعمال تطوان خلال القرنين 16و17 ص 83.

49) محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، ص 124

50) حسب محضر 28 ماي 1609 (المصدر السابق (تطوان خلال القرنين 16و17، ص 100)

51) مراد البرتغالي من أصل تركي من سكان تطوان ورياس البحريين، كانت له فركاطة يغير بها على مدن الساحل الإيبيري، سيما ضد سبتة وجبل طارق. قتله محمد الشيخ السعدي ترضية للإسبان [مجهول، تاريخ الدولة السعدية، ص 95)

52) محضر 28 ماي 1609 ص 98

53) المصدر السابق ص 98

54) قرار الطرد منشور بمجموعة Colección de Documentos Inéditos para la Historia de España, T. LXXXI p. 290.

55) Juan Regla, Le transfert des Morisques espagnols en Afrique du Nord.

محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب

Etudes sur les Morisques en Tunisie, p. 85.

56) خرج أهل Benaguacil من قرطاجنة وأهل Magacela نحو 600 من مالقة يوم 17 نوفمبر 1610
(H. Lapeyre, Géographie p. 185.186.295)

.52

58) انظر في المجموع المقدم من طرف محمد رزوق- الأندلسيون ص.127.126.

59) BN. Mss 565 , f. 158 v

60) Damian Fonseca , Justa expulsion de los Moriscos de Espana , 207-220. H. Lapeyre. Geographie p. 411.412.

61) Juan Penella , Le transfert des Morisques espagnols en Afrique du Nord , in Etudes sur les Morisques en Tunisie, p. 85). Lapeyre. Geografie p.207.

62) رواية محمد داود عن محمد السكيرج، تاريخ تطوان، ج1/82.

63) مراسلة 7 يناير 1622 (SIHM. Angleterre . T. 527.530)

64) A. Correa de Franca, Historia de Ceuta .Mss. B.N. Madrid . n 9.941, p.118.131.

65) B.N. Mss. 9741 Fol.89 Gillermo Gonzales Bustos, Las Moriscos en Marruecos p. 113.114.

66) H.Lapeyre. Geographie, p.152.

67) لا تزال قرية بجبل حبيب تدعى بالأندلس تذكر عنها الرواية الشفوية أن أهلها من المهاجرين الأندلسيين.

68) من المعلوم أن الأستاذ أحمد المدور من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة يعد أطروحة دكتوراة الدولة حول مدينة تطوان ويتوفر على ما يمكن له القول الفصل التاريخي في هذا الباب.

اللقاء الإسلامي-المسيحي : المناظرات الموريسكية-المسيحية

عبد العزيز شهبر

حين تطلق عبارة "اللقاء الإسلامي - المسيحي" الآن ، يراد بها ذلك الخطاب الذي تفرزه نخبة من القسيسين المسيحيين والعلماء المسلمين، يعترف فيه كل طرف بالآخر رغم ما قد يكون بين الطرفين من اختلاف في المبدإ فيقر له بحريته الاعتقادية والمذهبية، ويحترمه كما يريد أن يكون، ويعمل وإياه على تطويع نقاط الاتفاق بينهما لتصبح منطلقاً لإقرار السلام بين الأديان و الثقافات و الشعوب. فاللقاء بهذا المعنى يقترب من الحوار وينشد التعايش والتسامح. وهو وإن كانت تواجه فيه الآراء وتتقارع لا يهدف إلى تحقيق ردة الآخر، ولا يحمله على الشك في عقيدته. إنه يتجاوز التعدد في الايديولوجيات والثقافات والأديان بالتسامح:

> On ne peut répondre au pluralisme seulement par la tolérance... la coexistence-ou mieux la cohabitation- pourrait suffire à établir des rapports pacifiques ..[1]

ولا يتعلق الأمر في هذا البحث بهذا النوع من اللقاء الإسلامي - المسيحي بل بآخر أدى إليه تاريخيا. إن اللقاء موضوع هذا البحث هو لقاء

إلغائي للآخر، رافض لوجود ذات معتقدة مخالفة له، لها قناعاتها وعباداتها. وهو لقاء متكلس على الذات، متعصب لها. ويمكننا تقسيمه إلى نوعين اثنين:

١- لقاء موجه لغاية ارتضاها واختطها طرف مسلم وآخر مسيحي وهو لقاء محاورين متناظرَيْن حسبما يقتضيه منهج الجدل والمناظرة : مثلا: القائد المنظري والقسّ فرناندو كونطريراس ،مترجم أسقف بلنسية خوان ريبرا والموريسكي التطواني ... الخ . إنه لقاء بطرفين ضروريين ولازمين لقيام أية مناظرة.

٢- لقاء أحادي، وهو لقاء مسيحي بالإسلام، أو لقاء مسلم بالمسيحية عبر مصادر مكتوبة

لا عبر مناظرَيْن أحدهما عارض والآخر معترض. مثلا: قصائد الموريسكي خوان ألونصو أراغونيس في مناقشة المسيحية وخوان أندريس في رده على "الشريعة المحمدية" ... الخ.

وهذا النوع الثاني لقاء مفترض، وهو وإن كان يشترك مع الأول في الدفاع وإلغاء الآخر ورفضه كذات معتقدة و تدميره، فإنه يتميز بكونه يتسم بسمة الاحتمالية. فهو غالبا ما يكون مفترضا متصوَّراً ومجيبا عن أسئلة محتملة الطرح على المسلم إذا كان لقاء مسلم بالمسيحية أو على المسيحي إذا كان لقاء مسيحي بالإسلام.

ولما كان الطرفان الموريسكي والمسيحي يهدفان إلى تحقيق الردة لبعضهما البعض، ولما كان كل واحد منهما يتطلع إلى إحداث أثر هادف

ومشروع في اعتقادات الآخر، نحو تحقيق الصواب، اندرجا كمتناظرين ضمن حد المناظرة: «النظر من الجانبين في مسألة من المسائل قصد إظهار الصواب فيها» [4].

غير أنه ينبغي الإشارة، إلى أن استعمال عبارة " المناظرات" الموريسكية المسيحية هي على سبيل التجوز فقط، فهي إن كانت تصْدُق باعتبار كونها تحققت بوجود جانبين متناظرين وبدعوى وبمآل أو نتيجة، فإنها لم تستوف شروط المناظرة في كثير من الأحيان، خاصة حين كان المتناظرون يعمدون إلى تحقير الطرف المناظر مما أخرج جهودهم من نشدان الصواب إلى تعميق الخلاف. ويمكن للواقف على كتابات هؤلاء أن يستنتج ذلك من المعجم المستعمل فيها: Falsedad , refutacio , Disputa, confusion, Defensio ووفقا لأقسام اللقاء الإسلامي ـ المسيحي الذي نحن بصدده، اخترت أن أقف على ما يلي:

1- مسيحي يناظر موريسكيا (لقاء مباشر).

2- مسيحي يناظر الإسلام (لقاء مفترض).

3- موريسكي يناظر مسيحيين (لقاء مباشر).

4- موريسكي يناظر المسيحية (لقاء مفترض).

وكل ذلك من خلال المصادر التالية:

- Vida del Siervo de Dios. Exemplar de Sacerdotes, el Venerable Padre Fernando de Contreras, Padre Gabriel de Aranda, Sevilla 1692.

- Defensio Fidei in causa neophytorum Sive Morischorum Regni Valentiae, totiusque Hispaniae. Et tractatus de iusta Morischorum ab Hispania Expulsione. Jaime Bleda.Valencia 1610.

- Cronica de los moros de Espana. Jaime Bleda. Valencia 1618.

- Expulsion Justificada de los Moriscos espanoles y suma de las escelencias christianas de Felipe Tercero. Pedro Aznar Cardona.

- Catechismo Para Instrucción de los nuevamente convertidos de Moros. Impresso por orden del Patriarcha de Antiochia y Arzobispo de Valencia Don Juan de Ribera. Valencia 1599.

- Confusion de la secta Mohametsca y del al-Coran. فقيه شاطبة
Juan Andrés Valencia 1515.

- Descripcion del Solemne Baptismo que se celebró en la Santa iglesia Metropolitana de la ciudad de Sevilla de 46 Mohametanos que se reduxeron a nuestra Santa Fé por la predication de los padres Tirso Gonzalez. Juan Gabriel Guillen, Juan de Losada y Francisco de Gamboa... el dia 8 de Mayo de 1676. Don Diego de Robles.

- Segunda parte de la vida y penitencia que en el monte Arsanio Junto a Roma Hizo una mujer natural de Valladolid la qual avia Sido renegada en turquia y como convertio a dos hijos, a la madre y su buen fin. Compuesto por Marco de Briçuelo Valencia 1678.

– رسالة الموريسكي أنطونيو دي أوكانيا 1610.

- Poema Romance: El Moro el Cristiano طبع بقرطبة بدون تاريخ

- Disputa Contra Judios y cristiano. Manuscrito de la Biblioteca Nacionnal de Madrid Nº 4944.

- Poemas de Juan Alonso Aragones . Manuscrito de la Biblioteca Nacionnal de Madrid Nº 9067.

1- مسيحي يناظر موريسكيين

إن الواقف على الكتابات المسيحية المندرجة تحت هذا العنوان، يستنتج أنها تحاول في أغلب الأحيان استغلال أسئلة يطرحها مسلم، فينطلق المناظر المسيحي من إدعاء تسفيه شريعة السائل إلى الكرز بحقيقة الأناجيل والقطع بمشروعية المسيحية ورجحانها. ويعمل رواد هذا النوع من المناظرة على حمل المعترض على نفي اعتراضه بنفسه وإلانتها، إلى الاقتناع التام بالمسيحية. كما سنرى في هذه النماذج المنتخبة:

كورطبراس والقائد المنظري

Intenta el Venerable Padre la conversion del Alcayde Al-mandari y darle palabra de hazerse Cristiano.

تحت هذا العنوان ورد حوار مثير بين القائد المنظري مؤسس تطوان والقس الإسباني فرناندو كورطبراس، الذي تفرغ للتبشير وتثبيت أسرى المسيحيين بشمال أفريقيا على المسيحية. فقد حدث أن القائد المنظري أخذ يتحدث عن الدين محاولا التأكيد على أنه من الصعب على أي كان ترك الديانة التي نشأ عليها، وقطع المنظري أنه لا يمكن أن يعتبر مسلما حقيقيا ذلك الذي كان يعتقد في دين الإسلام.

ويظهر أن القائد تحدث من خلال حقيقة عاشها، فرغم تعميد الملكين الكاثوليكيين ومن خلفهما لمسلمي الأندلس بقي جم غفير من هؤلاء المتنصرين يبطن الإسلام ويظهر المسيحية، وهو أمر عكسته ممارسات الموريسكيين، الأمر الذي أدى إلى مجابهة جدلية يومية حسب الباحث لوي كردياك [1]، نقلت أطوارها قرارات الأحكام الصادرة عن محاكم التفتيش.

كان رأي القائد المتطري عبارة عن ادّعا، ضروري لانطلاق المناظرة فعمد القس كونطريراس إلى تقديم اعتراض ناسف للدعوى ومؤكد لغاية تترافق ودوره كقس كارز بالإنجيل ومبشر واعظ يقول:

«في البداية سيدي معك حق. لأن الذي كان في النور لايصيب في شيء إذا دخل قاعة مظلمة، فتراه يضيع في نفس القاعة. هكذا، فالمسيحي الذي أضاءت أنوار شريعة المسيح عقله يضيع حين ينتقل إلى ظلمات شريعة محمد.

فأنا سيدي على يقين أن المرتد عن المسيحية لا يمكن أن يكون مسلما حقيقيا أبدا (كما تقول أنت)، وأنا متأكد أن لا أحد من هؤلاء يصير مسلما في قلبه، كما أنه لايترك شريعة المسيح. فهو وإن اعتقد في أن شريعة محمد أحسن، مدفوعا بمنافعها ومسحوبا بشهوته الفاسدة، يظل يبحث عن سعة شريعتنا فيرغب في الفوز بلذات هذه الحياة وينسى الحياة الخالدة. ولايرتاح ضميره أبدا ويظل ضميره يؤنبه بأنه ترك الأحسن فلا ينخدع. وهذا محال.

وإنني لم أجد أحدا من هؤلاء المرتدين لايبحث عن الصواب الذي يصفح عن الشر الذي اقترفه حين عدل عن شريعة عيسى المسيح، ولايعيش على ألف ندامة، ولايتوق إلى الرجوع إلى الرب، ولايخاف أن يأخذه الموت وهو على شريعة المسلمين، ولا يبحث عن طريق وشكل الفرار من بينكم. ولا يحس باتباعه للنصارى. فهو حين يجد نفسه دون شهود من شريعتكم لايحبها ولايفضلها. وهذا دليل واضح سيدي: فهو إذا كان اختار شريعة محمد لم يخترها ليقطع برجحانها على شريعة النصارى.

وأما المسألة الثانية: لايمكن للمسلم الذي يرتد عن الإسلام أن يكون

مسيحيا حقيقيا، فيجب أن أقف عليها:

هي معادلة للإقتناع بأن الذي عاش في الظلمات ووجد نفسه في النور يريد أن يترك النور ويعود إلى الظلمات لأنه يعتقد إنها الأحسن.

وحسب التجربة، إن كثيرا من المسيحيين، اتبعوا نور شريعة المسيح عيسى حين عرفوا أخطاء شريعتكم. وقد عرفت منهم كثيرا بقوا غاية في النقاوة طول حياتهم، ماداني أنفسهم أي ذنب خطير، وما اقترفوا أي خطإ يضيع ما تلقوه من نعمة حين تعمدوا. إنهم أنقياء وصلوا إلى درجة الكمال حتى صدق عليهم ما قاله الرب لأحد أنبيائه "أشرق النور لمن كانوا في الظلمات"[4]. وإذا حدث وعاد بعضهم إلى شريعة محمد ـ ولا يمكن أن أنفي هنا ـ وهجر دين عيسى المسيح فلأنه لم يوافق وحي الرب حتى يكون مسيحيا حقيقيا.

ولا قيمة لأولئك حتى يقاوموا ما كانوا عليه من نزوات حين كانوا مسلمين وليس لكونهم يقطعون بدونية شريعة عيسى المسيح ورجحان شريعة محمد، بل لأنهم لايجتهدون في اتباع تعاليم الديانة الكاثوليكية»[5].

واستمر كونطريراس في نفس السياق الوعظي، فقارن "المسيحية" بالشريعة المحمدية"، وفصّل القول في شرح الأقانيم الثلاثة وكيف تبقى واحدة في ماهيتها وإن انقسمت إلى أب وابن وروح قدس[6]، وبين المغزى من صلب المسيح.

ولما كان الغرض من هذا اللقاء بين القس كونطريراس والقائد المنظري هو تحقيق ردة الآخر وإبطال ما هو عليه من معتقد وإلغائه، فقد أنهى القس

عرضه قائلا: «قل لي، هل سمعت أن مسيحيا انقلب إلى مسلم ساعة موته؟، طبعا لا يمكنك قول ذلك. أما أنا فأؤكد لك أن كثيرا من المسلمين تنصروا ساعة اقتراب أجلهم، فعدلوا عن الإسلام وبحثوا عن المسيح عيسى وتشدوا التعميد. فالشريعة التي يرتضيها الناس للموت جديرة بأن تختار للحياة، والتي يفر منها الناس ينبغي أن لا يُعتقد فيها»[7].

يقول جبرائيل أندرا Andra Gabriel إن القائد المنظري سمع كلام القس باحتشام شديد، وإنه اقتنع إلى درجة أنه وعد بالارتداد عن الإسلام[8]، والتمس أن يمهل أياما يزداد له فيها الإطلاع على مبادئ الشريعة المسيحية.

إن نص المناظرة يوحي أن نتيجة هذا اللقاء بين المنظري ذلك الموريسكي الذي ترك بلده بعد أن غلب عليها النصارى والأب كونطريراس الذي اشتهر بتثبيت أسرى المسيحيين في شمال أفريقيا على العقيدة الكاثوليكية، كانت طبيعية حيث أن الطرفين انتهيا إلى الصواب، غير أن النص على ما يبدو لم ينقل جميع أطوار المناظرة، فالقائد المنظري وهو الموريسكي المجاهد، لم يتدخل لا مانعا ولا معترضا، فقد اكتفى بطرح الإدعاء، وأعلن بعد أن قدم القس اعتراضه إذعانه للنتيجة واقتناعه بالطرح.

ولا ينبغي أن نستغرب لهذا إذا تذكرنا أن الكتاب، حيث نص المناظرة، هو تأليف في مناقب وفضائل أحد رجالات الكنيسة الكاثوليكية Siervo de Dios (خادم الإله) فرناندو كونطريراس، ونحن حينما نقرأ الفصل الثامن من نفس الكتاب نستخلص أن القس كونطريراس تابع محاولته الإقناعية، حتى إنه عز عليه أن ينقل راجعا إلى إشبيلية تاركا المنظري على دين الإسلام. يقول أرندا Aranda: «وقبل أن يعود إلى إشبيلية حاول الأب بكل الأشكال

تنصير القائد المنظري وعز عليه أن يعقب راجعا إلى إشبيلية ويترك القائد مسلما بينما يمكنه اعتناق المسيحية .. أية فرصة أحسن من المجيء مع الأب إلى أرض المسيحيين حيث يمكنه التعمد دون مضايقة واعتناق شريعة عيسى المسيح كما فعل الكثيرون ممن هم على نفس مذهبه»[2] لقد كان هذا انطباع رجل مبهور بمناقب شيخه، وهذا الكلام يعكس مدى خطورة هذا النوع من اللقاء الذي تحقق بين المسلمين الموريسكيين والمسيحيين والذي تمكن فيه الطرف المسيحي من تحقيق تنصير فيما سمّي بالمسيحيين الجدد، الذين أظهروا النصرانية ثم هُجِّروا إلى أرض الإسلام فعادوا إلى إظهار الإسلام. إن الأب كنطريراس وهو يناظر القائد المنظري يعلم أنه لا يخاطب مخاطبا خالي الذهن، فالقائد يعلم من المسيحية أشياء، ولهذا كان خطابه له خطابا وعظيا إقناعيا، كما لو كان معتقدا بتحقق النتيجة: "الارتداد عن الإسلام" قال:

«سيدي، وإن كنت أرغب في مغادرة تطوان كثيرا نظرا للعنف الذي أُسِرْتُ به، وللإرباك الذي تسبب لي فيه مُلككَ، فإنه يعز علي أن أذهب وأُخلِّفَ حبيس المعتقد الفاسد الذي يأمرك فيه محمد.

والفِعَالُ الحسنة التي لقيت منك، تأسرني وتجعلني أتألم لبقائك على دين الإسلام، بينما بإمكانك أن تصبح مسيحيا.

إعلمْ سيدي، أن ليس بيدك تمديد الحياة الزمن الذي تريد، لأن ذلك بيد الرب، يمنحك ذلك لفعل الخير، ولكن إذا سخرتها للشر فقط، يسحبها منك حين تحتاج إليها أكثر. إعلمْ أن ما بقي لك من الحياة قليل، لأن سنك كبيرة، وإنك أنفقت أغلب أيامك في إشباع رغباتك، فأنفق القليل الذي بقي لك من العيش موافقا للعقل. وإذا اعتقدت أنك تائه، فإلى متى تنتظر إصلاح

أخطائك؟ ما الذي يمنعك؟ القيادة؟ إن التبجيل كأمير تجده بين ذويك. فهل سيكون من الأفضل أن تبقى لك السيادة بعض الوقت ثم تذهب إلى النار مهانا بالشياطين إلى الأبد؟ وإذا رأيت أن تعيش مسيحيا، بقليل من الإعتبار في الأرض المجاورة ـ وهو أقصى ما يمكن أن يحدث لك ـ فاعلم أن هذا هو الطريق لكي تكون مع الله إلى الأبد. وإذا كان حبك لنسائك يحول دون اتباعك للطريق حيث نجاتك، فليخرجْنك من النار لحبّهن لك على ماهُنْ عليه من اتباع الشريعة البائسة.

فلينتظرك هذا السيد الذي جعل نفسه على هذا الصليب فقط ليخلصك، إنه ينتظرك لإسعافك. وإذا لم تعتنق الربح الذي يمنحه لك الآن سيمد ذراعيه لكي يبعدك عنه ويُسْلمك السعير الخالد»[1].

وينهي الأب كونطريراس كلامه بدعاء للقائد.

وقد سلك هذا القسّ نفس الطريقة في مناظرة بعض الموريسكيين من أهل تطوان، انه يتدخل بعرض مفصل وعظي عند صدور أي ادعاء من الآخر، جاء في الفصل الثاني عشر من نفس الكتاب:

«إعلم أن طريق السماء هي كمن يريد أن يعبر نهرا كثير المياه بقنطرة مبنية على عشرة أعمدة. ولكي يتمكن السالك من العبور يتعين أن تكون تلك الأعمدة متواصلة دون أن ينقص أي واحد منها. ولكن، إذا حدث وجاء تيار النهر عظيما وحمل معه عمودا أو عمودين من وسط القنطرة، وظهر لك أن مابقي من الأعمدة أربعة فقط في البداية ومثلها في النهاية، فهل يمكن أن تعبر القنطرة؟».

قل لي، أليس عيبا أن يصل البعض إلى الوسط ويصل غيرهم من

القادمين من الضفة الأخرى دون أن يجتازوا؟. أقول ماذا يضيرك إذا كانت
باشياء جيدة وموافقة للعقل وتسمح لك بالقيام بأشياء مضادة
لها يعاقب عليها حتى في بلاد [الكفار] بقسوة؟ أي حسن يمكن أن يحصل
لشريعة مرفوقة بالنقائص؟ أي طريق إلى السماء، تسلك بأعمال تؤدي إلى
النار؟. اعلموا أن العمى هو الذي يريد الشيطان أن يسوقكم به إلى
النار.أنظروا، واعلموا أنكم بشريعتكم تحيدون عن الطريق»[11].

ومن نتيجة هذا الخطاب الوعظي تَنَصَّر مجموعة من الموريسكيين في تطوان روى أخبارهم جبرائيل أرندا[12]، كما تنصر جملة من اليهود عقد لهم نفس المؤلف الفصل الثالث عشر من كتابه.

مترجم خوان ريبيرا أسقف بلنسية وموريسكي من تطوان

ورد نص المناظرة في الحوار الأول (وهو بمثابة مقدمة) من كتاب

Catechismo para instrucción de los nuevamente Convertidos de Moros وطبع ببلنسية سنة 1599.

وحسب المعطيات التي يقدمها ذلك الحوار الأول، فإن المناظر كان مترجما للأسقف خوان ريبيرا Juan Ribera أسقف بَلَنْسِيَة. وكان هذا الأسقف ينظم جلسات وعظية باللسان القشتالي يدعو فيها المسيحيين الجدد إلى التشبث بديانتهم الجديدة ويعرض عليهم ما ينفرهم من دين الإسلام الذي كانوا عليه. وكان المترجم يقوم بترجمة خطب الأسقف ريبيرا فور انتهاء هذا الأخير منها، كان يترجمها إلى اللغة العربية وإلى ما سماه باللغة الزناتية (البربرية لسان زناتة).

أما الموريسكي، فكان تاجرا من مدينة تطوان، كان يتردد على ساحل الأندلس ويتوغل بترخيص داخل إسبانيا، كان عارفا بالأعشاب ويحسن معرفة ملاءمتها لبعض الأمراض المستعصية.

والواقف على نص المناظرة بين ذلك الموريسكي والمترجم يلاحظ أنها لم تكن من طبيعة مناظرة الأب كونطريراس للقائد المنظري، وإن كانت تنتهي إلى نتيجة مماثلة: اقتناع الموريسكي. وإذا كانت المعطيات التي توفرت لنا حتى الآن لم يؤكد ارتداد المنظري فإن الطرف الموريسكي في هذه المناظرة تنصر، وتحققت الردة التي وسمت هذا النوع من اللقاء.

نقرأ في الحوار الأول:

«الطالب : حفظكم الرب يا أبت.

المعلم : وليكن معك أنت أيضا يا أخي. من أي البلاد أنت؟ فقد بدا لي أنك غريب أجنبي في الكلام والعادة.

ط: نعم، وإن كنت أتردد على هذه الضفة الأندلسية ومملكة غرناطة وقد تاجرت بتصريح في مالقة وجبل طارق.

م: إذن أنت من الساحل المقابل.

ط: نعم أنا من بربريا . من مكان يسمّى تطوان الواقعة على بعد عشرين [illegible] الإفريقي.

م: أي غرض ساقك إلى هذه البلاد؟

ط: أريد أن أكون مسيحيا، وأتمنى رؤية هذه الأرض، وقد مُنحت

تصريحا في مالقة من أجل هذا.

م: أي معتقد لك وإلى أي ديانة تنتمي؟

ط: أنا مسلم بالطبع والشرع. وقد ناقشت كثيرا من اليهود الموجودين بكثرة في تلك البلاد، وهم علماء.

م: وما الذي يظهر لك في ذلك الشرع؟

ط: لا يبدو لي جيدا، ولست مقتنعا به كما أني لست أحط من شأنه، ولست مقتنعا بشريعة أسلافي. وهذا ما حملني إلى ضرورة معرفة الديانة المسيحية.

م: ما هو عملك؟ وما هي طريق عيشك؟.

ط: أورد بضائعا وأخذ أخرى. وعندي معرفة يسيرة بالفلسفة التجريبية والأعشاب وأعرف ملاءمتها على الأمراض حتى المستعصية منها، وحين يعرفني الناس ويثقون بي أستفيد من صنع الأدوية، وبثمنها أعيش.

م: هل صحيح أنك تريد أن تصبح مسيحيا، أو اتخذتها ذريعة للتوغل في هذه البلاد؟

ط: ليس هناك أي شيء، فأنا لا أحب تضييع الوقت، فقط أنشد خلاصي وأروم اتباع طريق الحق، من أجل هذا فقط أتيت.

م: قل لي الحقيقة هل تريد ذلك من قلبك؟

ط: لماذا تضغط علي.

م: لأنني رأيت كثيرا منكم يدعون حين مجيئهم إلى هنا نفس ماتدعيه

ويُخفون أغراضا أخرى مغايرة، فيكونون جواسيسا في هذه الممالك المأهولة [illegible]لتكم، أو يأتون رغبة في الاغتناء. فيظهرون المسيحية حتى [illegible] وهو نفس ما يفعله المسيحيون الذين يذهبون إلى أرضكم ويظهرون دينكم، وأقول هذا لأنك قد تنخدع لهذا أو ذاك، فإذا كنت جاسوسا فالأمر خطير، وحينما سيكتشف أمرك سيحيق بك ما حاق بالآخرين، وإن كنت تروم الغنى بإظهار المسيحية فإنك كمن دخل طريق النجاة برجل عدنيسة...»[15].

إن من شروط المناظرة التكافؤ بين المتناظرين، وهما في هذا النموذج متكافئان مترجم وتاجر. وما سيقدمه المترجم ليس إلا جذاذات اجتمعت له من خطب الأسقف ريبرا. وسوف يأمر الأسقف بطبع تلك الخطب حين سيتحقق من دورها في التنصير والتثبيت. لقد بدا ذلك التاجر الموريسكي مُهيّأً لتلقي فعل نتيجة هذا اللقاء، كما ارتاح الطرف المناظر إلى المناظَر حين اقتنع برغبة هذا الأخير في اعتناق المسيحية وخلال حوارات الكتاب ستقف على جملة من المواضيع التي غالبا ما ترددت في مناظرات القساوسة للمسلمين مثل:

- الدليل على أن شريعة محمد لا توصل إلى الحق.
- فساد حياة صاحب الشريعة.
- فساد شريعة الإسلام.
- اعتناق الناس للإسلام خوفا لا اعتقادا.
- القرآن كتاب الأكاذيب والخرافات.
- مصدرية القرآن.
- المسيحية هي طريق الحق.

- تفسير عقيدة التثليث.

- التمييز بين طريق النبوة وطريق الفلاسفة . . .

فارسان يتناظران

إننا هنا أمام نموذج آخر من نماذج لقاء المسيحي بالمسلم لقاء مباشرا. إنها مناظرة بين فارسين أحدهما مسيحي والآخر موريسكي مسلم، وصلتنا على شكل قصيدة رومانثية. يقوم الموريسكي فيها بالاستهزاء بطقوس النصارى وباعتقادهم بألوهية عيسى عليه السلام وبتمثال العذراء.. ويدعو المسيحيين إلى مبارزته مبارزة شريفة بالكلمة والسيف. إلا أن الفارس المسيحي الذي قبل النزال يهزمه بالسيف ويجبره على اعتناق المسيحية فيذعن الموريسكي ويسأل عن بعض ما يراه مانعا من اعتناقه المسيحية مثل: عذرية مريم بعد ميلاد عيسى، ويلتمس التعميد وتنتهي القصيدة بإعلان اعتناق الموريسكي للمسيحية..

Vé un retrato de M A R I A Santisima y dice suspenso

Mas Cielis qué es lo que veo

Confuso estoy y aturdido .

Quien el atrevido fué,

que con un osada brio,

Sacan las Espadas.

Moros y a Cristiano me apercibo,

y te respondera ahora

aquesta abrazada aroma

este carbon de Mahoma.



Rifien. aqueste cayo de alà

aqueste aliesto tizon,

esta rara maravilla. castigando tu soberbia

con esta corba cuchilla.

Cristo. Habla menos y obra más,

que me enojan tus razones.

Moro. Obro. y hablo. porque soy rayo yo en las ocasiones.

Mas hay de me. que la tierra.

que pisaba, me ha faltado !

Cae él Moro en tierra.

Crist ya estas vencido. tirano,

y castigada tu infamia:

Dios no le confiesas, à y si

y de tu secta te apartas,

te he de cortar la cabeza.

y en la punta de mi lanza

la he de llebar por vandera

para, triunfo de mi espada.

Dios confiesa, à Ea Moro

su Madre Soberana.y

Moro, valeroso Cristiano,

tu valiente espada, éset

levantar, à y ayudarme

que ya vencido en batalla,

si me vence el argumento,

te prometo mi palabra

de recibir el Bautismo,

y asistido de la Gracia,

confesar de Dios el *Nombre*,

y su Madre Soberana.

Crist. Pues con aquesta propuesta,

levanta, Moro levanta:

levantar, à Ayudale el cristiano

propon tu en la Gracia

de MARIA, he de vencerte,

que aunque el estilo me falta,

que da la filosofia,

para casos de importancia,

como lo es este misterio,

llevando el Norte del alma,

que es MARIA, en mi respuesta

espero victoria larga.

Moro. Digo, que no puede ser,

naciesse ese Dios y Hombre

quedando Doncella casta

que de una Doncella intacta.

Esta es mi dificultad

que me aturde y me desmaya,

parir y quedar doncella,

me parece cosa falsa

Crist. No tienes que poner duda,

que en esa no cupo mancha:

No habras visto en un cristal

allá en tus barbaros ritos,

que el Sol entra y sale en él;

y que jamas rompe el vidrio;

Pues asi entro el Sol Divino

de Jesucristo en MARIA,

quedando aquel cristal fino



de Santidad tan perfecto,

como antes lo había sido:

luego usando el sumo Bien

del privilegio esquisito de sentidad, salvo

de aquel Cristo terso y limpio

de MARIA, Sin que hubiese menester su Ser Divino,

romper los candados bellos

de aquel celestial recinto

وكثيرة هي النصوص الرومانثية التي عكست نفس الإحساس الذي عبر عنه المسيحي في النص السابق El Moro y el cristiano ، ويحضرني هنا على سبيل المثال، قصيدة لدون ديبغودي روبلس Don Diego de Robles تخلد تنصر ستة وأربعين مسلما بمدينة إشبيلية يوم 8 ماي سنة 1626 على يد القسيسين ترسو غونزاليث Terso Gonzalez ، وخوان غبرييل Juan Gabriel ، وخوان لوسادا Juan Losada ، وفرانتشيسكو دي غمبُّوا Francisco de Gamboa، وقصيدة أخرى تحكي تنصر سيدة من بلد الوليد وابنيها بجبل أرسانيو Arsanio قريبا من مدينة روما، والقصيدة الأخيرة نشرت سنة 1638.

2- مسيحي يناظر الإسلام (القاء مفترض)

يندرج ضمن هذا العنوان ما كتبه القسيسون عن الإسلام في الرد على الأسئلة التي يحتمل أن يطرحها المسلم على المسيحي، أو يمكن أن يفكر فيها المسيحي خاصة ذلك الموريسكي حديث العهد بالمسيحية.

وقد برر قسم من كتابات هؤلاء القسس قرار طرد الموريسكيين من الأندلس بما تسبب فيه هؤلاء الموريسكيون من بدع وما أثاروه من فساد في مجتمع ينبغي أن يكون خالص المسيحية. وفي سياق هذا التبرير قاموا بالرد [illegible] شائنة مبادئه قاطعين بفساده وبرجحان المسيحية عليه.

فـ خايمي بليدا Jaime Bleda يحصي البدع التي ينشرها الموريسكون في المجتمع النصراني، وإن كان هؤلاء الموريسكيون قد عُمّدوا، ويذهب إلى حد القول باقتراف القسس للذنب حين يحيون القدّاس بمحضر تلك الغوغاء، يقول:

Experientia etenim comprobatae apostasiae à fide usque ad mortem, quem etiam obierat, nulla christiani animi signa edentes, ipsorum infidelitas demonstratur: absque manifestatis indiciis (14).

فالموريسكي رغم تعميده يبقى على ما كان عليه ولا يخلص للمسيحية، ويقول في Cronica:

Si viviendo quietos los Moros, y pacificos, se les podia hazer guerra, y merecian Ser desterrados de España. Segun la grave doctrina que se ha referido, continuando sus enormes, y atroces maldades, y tratando de turbar la paz de la republica christiana, bien merecian Ser desterrados del mundo (15).

ونفس المعنى نجده يتردد عند بدرو أثنار كُردُونا Pedro Aznar Cardona (16) وقد خصص الرجلان أبوابا من كتبهما المذكورة لتبيين كيفية معرفة أعداء الكنيسة، والدليل على عداوة محمد وأتباع محمد للمسيح، وبيان فساد شريعة محمد وفساد نبوة محمد، ووقفا على جزئيات متعلقة

بالنص القرآني ومصداقيته... إلخ. غير أن أعنف ما كتب في باب هذا اللقاء المفترض، كان من طرف القس خوان أندريس فقيه شاطبة سابقا. فقد ألف هذا القس كتاب: Confusion de la Secta mahometana y El Coran في الرد على الإسلام واستغل معرفته السابقة بالقرآن وكتب السنة النبوية في رده. وقد استغل صاحب الكتاب في تنصير مسلمي غرناطة وبلنسية وأراغون وبرشلونة وغيرها بطلب من الملكين الكاثوليكيين فيرناندو وإيزابيلا. وطبع كتابه لأول مرة في بلنسية سنة 1515 وطبع طبعة ثانية بإشبيلية سنة 1537، وثالثة بغرناطة 1560 وترجم إلى الألمانية من طرف Cristobal Celso وطبع بهامبورغ سنة 1598 وأعيد طبعه بالألمانية سنة 1598، وترجم إلى الفرنسية من الإيطالية من طرف غوي لوفير Guy Le Fevre بإشبيلية وطبع بباريس سنة 1574 وترجم إلى الإيطالية سنة 1537 بإشبيلية من طرف دومنغو دي غاستلو Do mingo de Gastelu وأعيد طبعه سنة 1540 بإشبيلية وبالبندقية سنة 1545 وترجم إلى اللاتينية من طرف يوهان لوتزباخ وطبع سنة 1646. وقد تعمدت إيراد هذه المعطيات لأنها تعكس أن كتاب فقيه شاطبة المتنصر حظي باهتمام كبير في الأوساط المسيحية، ويبدو أن فعله في تثبيت المسيحيين الجدد كان كبيرا، واستثمر كذلك حتى في صراع الكاثوليكية والبروتستانتية. وقد أقلقت علاقة الموريسكيين بالبروتستانت الكنيسة الكاثوليكية وقد وقف الأستاذ لوي كردياك على هذا التقارب الموريسكي البروتستانتي بتفصيل في كتابه الموريسكيون والمسيحيون المجابهة الكلامية [37].

يترجم خوان اندريس لنفسه فيقول : «ولدتُ في شاطبة، وتعلمتُ ودرست الشريعة المحمدية على يد والدي عبد الله فقيه شاطبة، وخلفته فقيها على نفس المدينة بعد وفاته، وبقيت ضائعا زمنا طويلا، مجانبا للحقيقة، وحدث أنني في سنة 1478 حضرت جلسة وعظية في الكنيسة الكبرى بمدينة بلنسية، كان ذلك يوم ذكرى سيدتنا سيدة أغسطس .. وأنار ذلك الوعظ ظلمات بصيرتي، فتفتحت لذلك عيوني ونشطت، ولما كنت أعرف الشريعة المحمدية فقد فهمت بوضوح كم هي فاسدة ومناقضة.

وتعمدت بعد ذلك، وتبعا لما سمعته من قول عيسى المسيح في حق يوحنا وأندريس والصيادين الآخرين في بحر الجليل، سميت نفسي تبركا خوان أندريس، وشرعت مثل القديس بولس في الوعظ ونقض ما كنت أعتقده وأؤكده، ونصَّرْتُ، بعون الرب، كثيرا من المسلمين في مملكة بلنسية، ووجهتهم نحو الخلاص وانتزعتهم من النار التي كانوا سائرين إليها.. واستُدعيتُ من طرف أكثر الأمراء مسيحية الملك دون فرناندو والملكة ايزابيلا لكي أتوجه لوعظ المسلمين في غرناطة بعد استردادهما لها، وتنصر بمشيئة الرب، هناك، كثير من المسلمين، أنكروا محمدا وتوجهوا نحو المسيح بفضل وعظي... واستدعيت بعد أيام قليلة إلى مملكة أراغون حتى أعمل على تنصير مسلمي تلك الآفاق..

وللغاية نفسها شرعت في ترجمة كل شريعة المسلمين: القرآن وكتب السنة.. من العربية إلى الأراغونية بأمر من السيد الأستاذ مرتين غارسيا أسقف برشلونة ورئيس هيئة التفتيش بأراغون وألفتُ ذلك الكتاب حتى يعلم المسلمون الجهلة الخطأ الذي هم عليه والذي وضعهم فيه النبي المكذوب محمد ...»[181].

دريس يناظر الإسلام من خلال مصادره والغاية من تأليفه الآخر غير المسيحي على اعتناق المسيحية وزيادة يقين المسيحي برجحان مسيحيته. وقد صرح خوان اندريس أن كتابه مجادلة Dispu-ta ضد الإسلام وقد قدم لفهرس محتويات الكتاب، الذي جعله بعد المقدمة مباشرة بما يلي: «المجد والنصر للمسيح عيسى سيدنا وربنا ولأمه المقدسة سيدتنا بيلار. نبدأ هذا الكتاب الموجز، والذي يقترب من أن يكون " دشبوتة " مجادلة ضد الشريعة المحمدية وضد قرآنها والسنة، مؤكدين بأن هذه الشريعة مزيفة وغير ممنوحة من طرف الرب، وأن القرآن مزيف ومُعَدٌّ من طرف محمد وليس كلمة الرب كما يدعي المسلمون. وإن محمدا ادّعى أن القرآن من عند الله أرسله إليه بواسطة الملاك جبريل ويتكون الكتاب من اثني عشر بابا.[19]

وينبغي الإشارة هنا أن أفكار خوان أندريس أثرت في كثير ممن ولجوا هذا الباب " باب الرد على الإسلام" بعده، مثل لودفيغو مرانشيو صاحب Productus ad Refutationem Al-coran الرائد في الرد على القرآن[20] ، وجبرائيل الصهيوني في De Nominibus orientalium urbibus nec. non indigenarum Religione: ac. moribus tractatus Brevis.[21]

وخلاصة القول هنا أن رواد هذا الصنف من مناظرة الإسلام حاولوا الانتصاف للمسيحية مما أسموه بالديانة المحمدية. وقد اعتمدوا في ذلك نفس المنهج الذي سلكوه في مناقضة الفرق المسيحية المنادية بإصلاح المسيحية. لقد كانوا يهدفون إلى تحصين أتباعهم المسيحيين وحمل الموريسكيين الذي ظلوا يعيشون بينهم على اعتناق المسيحية والارتداد عن الإسلام.

د. موريسكيون يناظرون المسيحية والمسيحيين (لقاء مباشر ومفترض).

إن باب مجادلة النصارى و أهل الملل الأخرى ومناظرتهم، باب جليل برع فيه علماء الإسلام، وخلفوا فيه دررا من التصانيف لا زالت شاهدة إلى الآن على ثراء المكتبة الإسلامية في هذا الفن وتعدد مناهج المؤلفين فيه. فالرد الجميل لالهية عيسى بصريح الإنجيل، وأجوبة الحياري في الرد على اليهود والنصاري، و إفحام اليهود، و السيف الممدود في الرد على أحبار اليهود، والفصل في الأهواء والملل والنحل، والرسالة المختارة في الرد على النصارى، ورسالة راهب فرنسا إلى المسلمين وجواب أبي الوليد الباجي، والنصيحة الإيمانية في فضيحة الملة النصرانية، ومقامع هامات الصلبان ومراتع روضات الإيمان، ورسالة السائل والمجيب، وناصر الدين على القوم الكافرين[1] ودشبوتة كونتر خوديوش اي كريشتيانوش[2] ... الخ. كتب تنوعت مناهج أصحابها على الرغم من طرقها لنفس الموضوع، فمن واقف على حمل الأناجيل والتوراة قاصد إلى إيضاح تناقضها ومواطن التحريف فيها، إلى ناقد لسندها مبين للزائف منها، إلى سالك لمنهج عقلي في دحض عقائد أصحابها، إلى جامع بين كل تلك الأمور.

ولم يند الموريسكيون الذين خاضوا في هذا الباب عن مناهج سلفهم، لقد ظلت مناظراتهم للأساقفة والرهبان منسجمة مع مناهج متقدميهم خاصة وأن دعاوى هؤلاء الأساقفة والرهبان المعترضين على شريعة الإسلام لم تتغير.

ولعل وقفة يسيرة على نصوص تلك المناظرات تكفي لاستخلاص الطبيعة التي كان عليها لقاء الموريسكيين بالمسيحيين. ففي حين كان المسيحيون يسرفون في الحط من الإسلام وينعتونه ونبيه بأبشع النعوت، ويسعون إلى نسف الآخر المسلم ومصادرة حقه في أن يكون ذاتا معتقدة مخالفة، كان المجادلون الموريسكيون المسلمون يستمدون مشروعية مناظراتهم لأولئك المسيحيين من «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن»[22] و«ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن»[23]. وقد رأوا في مجادلتهم للنصارى نوعا من الجهاد، ورأوا في تنقل القسيسين وتجولهم في دار الإسلام شرا مستطيرا حتى إن الشهاب الحاجري وهو موريسكي يقول: «ولو تحقق سلاطين المسلمين من سوء فعل القسيسين والرهبان وأنهم يحتالون على أكثر من يرجع مسلما من النصارى ليرتد في خفاء عن دين الإسلام، وأن يكون عدوا للمسلمين، لا يتركون أبدا واحدا منهم في بلادهم. وهذه نصيحة مني إليهم، وما قلت فيهم فهو صحيح لا شك فيه»[24]. وخاض الشهاب الحاجري مجادلات مع رهبان من فرنسا وبلاد الفلاند. ونفس الأمر تحقق لأبي عبد الله الكاتب ومحمد القيسي وقد كتب هذا الأخير مجادلته للنصارى واليهود باللغة القشتالية الألخميادية وتوجد نسخة خطية من هذه المجادلة في المكتبة الوطنية بمدريد تحت رقم 4944 ج، في الورقة 39 منها:

Aquí comienza el libro que hizo al-faqih Muhammad al-qaysi el cual fue Alimam de la mezquita de azzaytuna de Tunis y fue katibuha en Lérida del Reino de Aragon catalana, y despues murió allí el era muy cierto sabidor y todavía se disputa con los cristianos y sabía les mostrar todos los puntos de los

Evangelios los cuales de acogido de este libro pasado que habia hecho Abdelláh al- katib que fue katibu en Francia y luque dize en este acapamiento de lo dize alguysi bien que no es grande mas es muy bueno que ayuda a los razones del primero .

فكتاب القيسي كان عبارة عن مجادلة لفريلية ليردا في مملكة أراغون وقاطلونيا استرشد فيها بمجادلة عبد الله الكاتب لقرلية فرنسا والواقف على مخطوطة 4944 من المكتبة الوطنية بمدريد يعجب لطريقة الكتابة (الإسبانية بأحرف عربية) ولطريقة استحضار كل من عبد الله الكاتب ومحمد القيسي لنصوص القرآن الكريم والتوراة والأناجيل، ويستنتج استفادة هذين المناظرين المسلمين من كتابات الغزالي وابن القيم [25].

والهدف الأساسي لمخطوطة كونترا خوديوش اي كرشتيانوش "مجادلة لليهود والنصارى" هو تثبيت الموريسكيين. فالكتاب وإن كان عبارة عن مناظرة بين القيسي وفريلية إسبانيا كتب بالخط العربي باللسان الذي عم الأندلس بعد الاسترداد فهو موجه إذن إلى تلك الفئة الموريسكية التي قد تكون أظهرت المسيحية بدار الكفر أو إلى تلك الفئة التي هاجرت إلى دار الإسلام وأقلعت عن قناع المسيحية الذي كانت أظهرته تقية. والتي أصبحت هدفا للمنصرين حتى داخل دار الإسلام وهو الأمر الذي استنكره الشهاب الحاجري، وسوف ترتكز الكتابات الموريسكية من هذا الصنف على بيان غموض قول المسيحيين في المسيح، انقطاع سند الأناجيل، نقض بنوة عيسى عليه السلام، وذكر بشارة عيسى بمحمد ﷺ. وهذه الموضوعات ترددت في أغلب كتب المسلمين الذين جادلوا المسيحيين حتى أولئك الذين كانوا على

النصرانية واعتنقوا الإسلام وكتبوا في فضح مزاعم المسيحيين مثل انسلمو تورميدا Anselmo Turmeda المعروف بعبد الله الترجمان بعد إسلامه أو عبد الله الكاتب الأسير الذي اعتمد عليه القيسي في «دشبرته» وهو مؤلف «تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب»[22] والجامع بين الكتب المذكورة أعلاه أنها جاءت على شكل مناظرات بين مؤلفيها وقساوسة في لقاءات مباشرة بدار الإسلام كما هو الحال لقسم من «ناصر الدين مع القوم الكافرين» دارت فيه مجادلة بين قسيس اسير بمراكش وأفوقاي أوبدار المسيحية كما هو الحال لكتاب القيسي وعبد الله الترجمان.

وقد عكس محمد الأنصاري في رسالة السائل والمجيب استعداد قساوسة النصارى لمناظرة المسلمين بقول:

«وإني لما رميتُ بسهم الإضطرار، عن قوس الأقدار، إلى بلاد النصارى ـ أبادهم الله ـ وطال المقام بين أظهرهم، اطلعت على عنادهم وفهمت لغتهم وكتابهم، واجتهدت في البحث عن أصول دياناتهم والقواعد التي هي رأس شريعتهم رأيت من ركاكة نصوصهم، وتضاد منصوصهم ما تمجه العقول ويخالفه المعقول، فلما رأت أساقفتهم، أني قد رأيت أحكامهم، وفهمت أقلامهم، حشروا إلي خفافا وثقالا، وسارعوا إلي مناظرتي ركبانا ورجالا، فدارت بيني وبينهم مجادلات ومحاورات في مجالس عدة . . . »[23].

ومن الموريسكيين الذين ناظروا المسيحية القاءا مباشرا] تذكر خوان ألونصو أراغونيس الذي اعتنق الإسلام ورحل من الأندلس إلى تطوان حيث تعلم اللغة العربية، ثم رحل من تطوان إلى تونس ليرشد إخوانه الموريسكيين اللاجئين إلى الأندلس إلى تعاليم الإسلام الصحيحة بلسانهم القشتالي وقد

… نصر بقصيدتين رومانثيتين ناقش في إحداها التثليث والهبة … ، وروح القدس، وناقش قول المسيحيين في الأنبياء ، وادعاء نزول الأنبياء ، إلى الجحيم في انتظار تخليص المسيح لهم. وكان بين الفينة والأخرى يلقي باللائمة على البابوات الذين بدلوا وحرفوا وزوروا ، ويكثر من الإحالة على الأناجيل وكتب الأنبياء ، وقرارات المجامع الكنسية [28].

يقول: [29].

Cuerbo maldito, español
pestífero can zebero.
questás con tus tres cabezas
en la puerta del infierno.
lebrel lanudo y ladres
idólatra en todo estremo.
interna y externamente.
con atos y pensamientos.
internamente pensás
que el Criador de los zielos
en tres dioses personales.
ques idolatrar interno.
ys al padre anzianoåFigur
y ques cano en el sujeto

como los cansados viejos.

Quien tal pinta, tal lo piensa

que la pintura, es modelo

de lo quel corazon siente

en sus intimos secretos.

ويقول:

quél mismo Cristo enseño

ser profeta y mensajero.

los papas lo hizieron Dios

como ansecristos perfetos.

Y los apostoles sacros

les contaron el credo

quen su premitiba iglesia

confesaron y siguieron.

Este fue el papa Silvestre

con sus obispos trezientos

en la gran Costantinopla

en el conzilio nizeno.

[illegible]لا:



No quiro cansarme más

falto de zenzia y razon

y de flojos fundamentos.

Otros de mi patria amada

e sabido respondieron

ansi por lengua latina

como por romanze y verso.

No pudistes responder

a las cuestiones que hizieron

y queréys conmigo agora

tanbién probar los azeros

إن خُوان ألونصو أراغونيث يناظر المسيحية كمعتقد شوّش إيمان إخوانه الموريسكيين المسلمين ،إنه يقوم بمهمة لصالح الإسلام تعادل ما قام به خوان اندريس لصالح المسيحية، وهما إن كان يتشابهان بكونهما ارتدا عن دينهما الأصلي الإسلام بالنسبة لفقيه شاطبة والمسيحية لخوان الونصو اراغونيث ،وفي الغاية والهدف ،فإن خوان ألونصو يرجع لأنه نظم مناظراته شعرا ليسهل حفظها ويسهل انتشارها بين الموريسكيين وغيرهم.

[illegible]ل إن اللقاء الإسلامي ـ المسيحي ،الموريسكي ـ المسيحي اتسم بالإلغائية ورفض الآخر، وكان لقاء منكفئا على الذات متعصبا لها إلى حد الدغمائية.

الهوامش

1- Orientations pour un dialogue entre chrétiens et musulmans. Secretarius pro Non christianis P.3 3ed. Ancora. Roma 1970

2- انظر في أصول الحوار، وتجديد علم الكلام. د. طه عبد الرحمن ص 45 و 70 - 71. ط الأولى 1987.

3- Moriscos y cristianos, un enfrentamiento polémico (1492-1640). Trad. Mercedes García Arenal, P. 21-85, Madrid 1979.

أو الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون، المجابهة الجدلية (1492 - 1640)، لـوي كردياك، تعريب الدكتور عبد الجليل التميمي، ص 19 - 88. منشورات المجلة التاريخية المغربية وديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، تونس 1983.

4- سفر أشعياء، الإصحاح التاسع، 2.

5- Vida del venerable padre siervo de Dios Fernando Contreras.

6- نفسه ص. 492.

7- نفسه ص. 492.

8- نفسه ، ينقل جبرائيل أراندا هنا عن كتاب موسكيرا Relacion de la Vida del siervo de Dios ويقول: إن الذين حضروا المجلس فهموا نص الأمر

9- نفسه ص. 506.

10- نفسه ص. 506 - 507.

11- نفسه ص. 565.

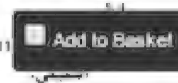
12- نفسه ص. 597 - 599

13 - Catechismo para los nuevamente convertidos de Moros; libro primero, dialogo primero , P. 1 - 3.

14 - Defensio fidei tratado; I P. 31

15 - Cronica de los Moros de España

16- Expulsión justificada de los Moros de Españ



17- ... 11 - 144 من الترجمة الإسبانية أو ص 121 - 133 من ترجمة عبد الجليل التميمي.

18- Confusion... Folio 3v-4v.

19- نفسه ورقة 7 .

20- طبع بروما سنة 1691 ، وطبع مع ترجمة القرآن إلى اللاتينية لنفس المؤلف في بادوا Padova سنة 1698 . (توجد نسخة منه بمكتبة تطوان).

21- طبع بأمستردام سنة 1653 (توجد نسخة منه بمكتبة تطوان).

22- سورة العنكبوت آية 46.

23- سورة النحل آية 125.

24- ناصر الدين على القوم الكافرين : ص 140. الحاجري احمد بن قاسم، تحقيق د. محمد رزوق. منشورات كلية عين الشق الدار البيضاء، 1987. وانظر محمد المنوني: مناقشة أصول الديانات في المغرب الوسيط .مجلة البحث العلمي العدد 13، س 5، دجنبر يناير 1968 ،ص 2.

25- بخصوص مخطوط 4944 والجدل الديني أنظر.

Islam and the West. The Moriscos, a cultural and social history. Anwar G. chejne. P. 69 - 95 Albany 1983.

26- Miguel de Epalza, la Tuhfa, autobiografía y polémica contra el cristianismo de Abdelah al Turju (fray anselmo Turmeda). Roma 1971.

ومثلها " النصيحة الإسبانية بفضح الملة النصرانية " للمنطبب نصر بن يحيى.

27- رسالة السائل والمجيب الباب 35. (مخطوطة خاصة).

28- Moriscos y christianos. Cardaillac. P. 162 - 167.

29- انظر ترجمة هذه النصوص في ملحق البحث.

الموريسكي خطاباً
في الخطاب غير التاريخي

إسماعيل العثماني

إن الضوء الذي نسلطه في هذه الندوة على الموريسكيين باستعمال طاقة مغربية (لكون المحاضرين كلهم مغاربة) من أجل التعمق في دراستهم سعيا وراء تعميق معرفتنا بهم يستدعي النظر إلى الموضوع من زوايا غير تاريخية أيضا. فبعد كل الحديث الهام الذي صدر من زملائي حول الهجرة والتهجير والهجرة المتبادلة، أسبابها ودواعيها، ظروفها التاريخية والاقتصادية والاجتماعية والعقائدية، وما ميّز هذه الظواهر من ظلم من لدن المهجّرين ومعاناة بالنسبة الى المهجَرين وما إلى ذلك من سرد تاريخي واستقراء للوثائق، لا بأس أن أهاجر بكم من فضاء الإحصائيات والمواقع والأوصاف والرحلات إلى فضاء الأدب حيث تذوب أجساد الموريسكيين وتفكيرهم التاريخي ليصبح الموريسكيون خطابا في الإبداع الأدبي الإسباني قبيل وبعيد قرار فيليبي الثالث المفجع الصادر سنة 1609. ولا أتبنى هذه المقاربة تطفلا أو لغرض الإحماض وإنما إيمانا مني بأن هذه العلمية ضرورية لاستكمال الصورة التي نتوق إلى وضعها أو تركيبها للموريسكيين في المغرب بعبارة أخرى إننا بدراسة الموريسكيين في الأدب الإسباني سنتأكد من دور الخطاب

المسيحي المتقنع بقناع أدبي في صناعة محنة الموريسكيين وتفسيرها، ومادامت الاستراتيجيات المتبعة في هذا الإطار تهم الموريسكيين عامة فإنها ...ـسكيين في المغرب كذلك.

ونظرا لأن دراسة الأحداث والظواهر التاريخية لازالت تعتمد عندنا في العالم العربي على الوثائق والتواريخ فقط، مما يشكل عقبة رئيسية أمام تطور الدراسات التاريخية كاهتمام عملي، فإنني لا أستبعد أن يعتبر بعض الحاضرين مداخلتي خارجة عن المحور الرئيس للندوة. لهؤلاء أقول إن الموريسكيين في الواقع، علاوة على كونهم مجموعة من الرجال والنساء والأطفال، هم أيضا فكرة معينة وتصور خاص في ذهن الإسبانيين، يتعلق الأمر بصورة بدائية دنيئة عن الموريسكيين (والمسلمين عامة)، ومن ثم بخطاب له تأثيراته ينبغي تشريحه بتحليل استراتيجياته. والتاريخ خطابا ينتسب إلى خطاب أشمل يضم الخطاب الأدبي وخطابات أخرى، ذلك الخطاب الذي وظفه الإسبان ضد المسلمين بالأندلس بعد سقوط غرناطة.

إن حضور المسلم في الخطاب التاريخي والثقافي القشتالي تحت أسماء مختلفة مثل مورو، موريكو، موريو، موريسكو، أربيكو أو الأرابي يرجع إلى القرون الوسطى ويمتد تاريخيا إلى يومنا هذا. وقد تميز هذا الخطاب عموما بالنظر إلى المسلم من فوق وربط سلوكه بالشر والجهل والخيانة والعنف والتخلف الحضاري في حين لجأ بعض الكتاب والفنانين إلى رَمْنَسَة (من الرُّمَنْسِية) شخص المورو والموريسكو والمسلم بصفة عامة كاستراتيجية نحو إثبات الذات الإسبانية المتعالية والتحرر من بعض العُقَد الشخصية والحضارية عن طريق الفنتازيا والخيال، كما هو الشأن على وجه الخصوص في بعض أدبيات ما يصطلح عليه الإسبان ب «الإبنسراجية» (El Abencerraje)

لقد مر على محنة الموريسكيين أكثر من أربعة قرون ولكن إسبانيا بصفتها البلد المسؤول عن المحنة لازالت تتعامل مع ملف الموريسكيين تعاملا يشوبه الغموض الإيديولوجي تارة والإهمال الرسمي تارة أخرى. إنه في الواقع نفس الموقف الذي اختارته الجهات الرسمية الإسبانية تجاه ماضيها، خصوصا ما يتعلق منه بفترة حكم المسلمين وما تركوه خلفهم من حضارة، ويتجلى ذلك على المستوى الأكاديمي في الاهتمام الضئيل نسبيا بهذا الموضوع من طرف الأساتذة والدارسين الأسبان الذين كثيرا ما عالجوا موضوع الموريسكيين وفق استراتيجية ترضي الخطاب الرسمي. لابد أن نستثني من هذا التعميم بالطبع- مع تحفظنا حيال بعض استنتاجاتهم أمثال أمريكو كاسطرو، وخوان غويطيصولو، وميكيل دي إبالثا، وف. ماركث بيانويبا، وماريا صوليضاض كراسكو أورروغويتي، وغليس دي فوينتيس ومرثيديس غرثيا أرينال وآخرين قليلين غيرهم.

إن تهجير الموريسكيين النهائي من اسبانيا سنة 1609م يرجع أساسا إلى أسباب سياسية تتمحور حول القرار التاريخي الذي اتخذه الملك فيليبي الثالث في حقهم. وقد ساهم في صياغة ذلك القرار شخصيات بارزة في الكنيسة والدولة وهي التي يذكرها عموم الباحثين. ويعتبر كتاب ميغيل آنخل دي برنس المُعَنْوَن «الموريسكيون في الفكر التاريخي» مرجعا مفيدا في هذا النطاق لأنه يعرض علينا (معظم) الأفكار والآراء التي وردت عن المسؤولين الدينيين والسياسيين وعن المؤرخين والدارسين حول الموريسكيين منذ البداية إلى حدود الثمانينات في حين لازلنا نفتقر إلى دراسة معمقة وشاملة ...ب الأدبي الإديولوجية فيما يتعلق بالموريسكيين خطابا، ...ا انطلاقاً من أن الكتابة الإبداعية لها علاقة بالتاريخ

والتطورات الاجتماعية كما يتبين ذلك من التنظير الحديث للخطاب يتضمن إشارة هامة الى العلاقة القائمة بين سطح النص ورسالته الايديولوجية، لأن ما من كاتب إلا ويرمي سواء بطريقة واعية أو شبه واعية إلى إيصال رسالة معينة إلى القارئ أو المتلقي.

الخطاب اليوم لم يعد يُعرَّف فيلولوجياً ولا لغوياً فحسب، وإنما من وجهة نظر ثقافية شاملة مما جعله يكسب بعداً ايديولوجياً لا يمكن تجاهله عند تحليل خطاب معيَّن. هذا على الأقل هو ما يستنتجه الباحث من تعريف الخطاب عندما يطّلع على أعمال منظّرين بارزين مثل ميخائيل باختين وميشيل فوكو وإدوارد سعيد. والخطاب لا يقصد به المرء صنفا من النصوص دون أخرى، لأن الخطاب يعني كل شكل من أشكال التعبير، ومن ثم فهو يهم الآداب والعلوم والفنون وأشكالا تعبيرية أخرى دون التمييز فيما بينها.

كيف ساهم الأدباء الأسبان يا ترى في تشكيل الخطاب الذي مهّد لترحيل الموريسكيين أو في الخطاب الذي ساد بعد تهجيرهم، خصوصا ونحن نعرف أن أدب العصر الذهبي الإسباني (Siglo de Oro) كان في الغالب يخدم جهازي الكنيسة والدولة؟ حقاً، إن قضية الموريسكيين قضية تاريخية بالدرجة الأولى لكن الحضور القوي لهؤلاء في الخطاب الأدبي الإسباني كَسَب للموضوع فضاءه الخاص ضمن دراسة الأدب الإسباني. وسأحاول فيما يلي القيام بقراءة جديدة لبعض النصوص الأدبية بهدف تصحيح التأويلات الموضوعة لها والكشف عن إسهام الأدباء المعنيين في تكريس الأحكام
[illegible] موريسكيين.

[illegible]ن من المناسب في هذا المقام أن أقدم تحليلاً أشمل لظاهرة [illegible] في الأدب الإسباني، لكن احتراماً للوقت المسموح به سأقف عند مؤلفين اثنين هما ماتيو أليمان وميغيل ضي ثيربانطيس، علماً منا بأنهما، وهذا أمر بديهي في سياق الأحداث، كان لهما موقف خاص من قضية الموريسكيين. كسب أليمان شهرته ماضياً وحاضراً لكونه صاحب الرواية التي تمثل الأدب الشطاري أحسن تمثيل، نقصد: «حياة قُزْمان الفاراقي» بينما يعتبر ثيربانطيس الأب الروحي للرواية الحديثة على الإطلاق. لكن اختياري لم يقع على أليمان وثيربانطيس نظراً لشهرتهما العالمية وإنما لما لرسالة خطابَيْهما (الأدبيين) من تأثير على الرأي العام من جراء تلك الشهرة نفسها.

لا بأس أن نذكر أن الحملة التي استهدفت الموريسكيين من خلال زرع الرعب في المواطنين الكاثوليك ونشر خطاب الحقد والكراهية بين الأخيرين تجاههم كان وراءها جهاز الكنيسة مُدعماً من قبل مؤسسات الدولة. ولم يتردد بعض الرهبان والمنصِّرين في تأويل الإنجيل تأويلاً يلائم الصورة السلبية التي قرروا وضعها للموريسكيين ضمن استراتيجية مكثفة، حتى وإن لم تكن دائماً منسقة، للقضاء على وجود المسلمين بإسبانيا. هذا هو ما تثبته الوثائق التاريخية والدراسات العديدة التي أُجْرِيتْ على يد أ. كاصطرو، لويث بارالط، أنور شجن، ميكيل ضي إيبالثا، وغلميس ضي قوينتيس وغيرهم. والجدير بالذكر أن هناك فرقاً واضحاً على مستوى اللغة والشكل بين كتابات رجالات الكنيسة والدولة والموريسكيين أنفسهم (بغضّ النظر عن المضمون) من جهة والكتابات الإبداعية التي سنعالجها من جهة أخرى باعتبار أن الأولى تتبنى أسلوباً سهلاً ومباشراً بينما تلجأ الأخيرة إلى التعبير بالرمز والمجاز.

لكن ثمة قاسم مشترك يجمع الكتابتين الدينية والأدبية: يتعلق الأمر بالموقف الإيديولوجي المعادي للموريسكيين بصفتهم يجسّدون العقيدة الإسلامية، مما يؤهلنا لاعتبار الخطاب الموريسكي خطابا موجّها ضد الإسلام بالدرجة الأولى. بعبارة أوضح، إن محاربة الإسلام هي التي كانت تملي على المساهمين في ذلك الخطاب، من كتّاب وشعراء، ودُعاة ورهبان وسياسيين، الاستراتيجية التي ينبغي اتباعها في تعاملهم مع مسلمي إسبانيا.

عُرف عن القسّيس بيضرو ضي ليون (1535-1632) ارتباطه الشديد بالمهمشين والمظلومين من خلال ارتياده لسنوات عديدة السجن المركزي بإشبيلية وتنقلاته بين مُدن وقرى جنوب إسبانيا، وقد نمّى ذلك الارتباط لدى القسّيس إحساساً عميقاً بالتضامن والتسامح ونصر الحق وروحاً انتقادية لاتصمت أمام المنكر حتى ولو صدر من سلطة عليا. هكذا لم يتردد ضي ليون مثلا في الاعتراف للمسلمين بخصال كانوا يمتازون بها حقاً: الكرم، والنزاهة والنظافة والتضامن واحترام الآخرين إلخ. في وقت كان الخطاب الرسمي يتهم فيه المسلمين بأبشع مساوئ الأخلاق. إذن كان بيضرو ضي ليون صوتاً متمرداً إلى حد مّا على الخطاب المهيمن، ولكن سرعان ما ينتفي هذا التمرد ويخفت صوته حين يطرح موضوع الإسلام نفسه على القسّيس، حيث نجد هذا الأخير يرضى بالسياسة الرسمية التي ترى في هذه العقيدة خطراً يجب إبعاده من إسبانيا (راجعْ كتاب بيضْرو خيريرا بورغا). في الواقع، إن النظرة المزدوجة للإسبان (المسيحيّين) إلى الموورو والموريسكي كان لها أصحابها منذ فتح المسلمين الأندلس، وهي نظرة انفردت بها أقلية مثقفة نسبياً في إسبانيا. وقد أفرزت هذه النظرة ازدواجيتها بحدةٍ بعد سقوط غرناطة حيث نلاحظ من جهة استعمال الإسبان للمسلم (الموورو) كعملة تقارنية في

كتاباتهم الإبداعية. فتُنسب إلى البطل المسيحي نفس القيم والخصال التي [كان] يشهد الصديق والعدو على تحلي المسلم بها على أرض الواقع، مثل الشجاعة والكرم والنبل. والغرض من ذلك هو تجريد هذا الأخير من هُويته ضمن مخطط يائس لاسترداد تلك الثقة في النفس التي كان المسيحي قد فقدها (في الماضي) أمام المسلمين. ونلاحظ من جهة أخرى دفاعاً متصاعداً عن المسيحية على حساب الإسلام حتى وإن لم يكن ذلك بارزا للوهلة الأولى في غالبية النصوص.

نسبت قراءات باحثين كـ «طرشونة» و«ماركث بيانويبا» إلى قصة «عثْمين وذراجة» (Darraja y Ozmín) دوراً أسلوبياً أو شكلياً داخل البنية العامة لرواية «قزْمان الفاراقي» بينما دوْر هذه القصة الرئيسي في رأيي هو الإسهام في بناء معنى هذه الرواية حقا إن قصة «عثْمين وذراجة» لا علاقة لها في الظاهر بحياة قزمان الفاراقي وأحداثها، خصوصا في ضوء التعريف السائد لأدب الشطّار. والدليل على ذلك أن أحداث القصة وشخوصها لا تربطهم أية علاقة، لا من قريب ولا من بعيد، بالبطل قزمان ولا بقصة حياته. وقد كتب لويس موراليس أوليبير عن موقع هذه القصة في الإطار العام لرواية أليمان قائلا إن الغاية من وراء مثل هذه القصص هي الإحماض للتخفيف على القارئ (ص.71-72) ومن قبله رأت كراسكو أورغويتي في القصة نفسها استمرارية للخطاب الإنشراجي ومحاولة من أليمان وصف بعض العادات والتقاليد الموريسكية (راجع 1956: ص.69-71) لا أقل ولا أكثر. أما ماركث بيانويبا فإنه كعادته تجاوز سطح النص فاستنتج أن أليمان قد حاول من خلال قصة «عثْمين وذراجة» مع التزام الحذر اللازم من الرقابة أن يعبّر عن تضامنه مع الموريسكيين لأن أعداء هؤلاء (أي المسيحيين) كانوا في الآن

أعداء للمسيحيين الجدد الذين كان ينتمي إليهم ماتيو أليمان بصفته يهودي الأصل (راجع: 1991: ص. 180).

تدارك دور قصة «عُثْمين ودَرَاجة» حسب توظيف أليمان لها يقتضي أن نفسّرها وفق استراتيجية الكتاب الهادفة في رأيي الى الوعظ والتعليم، وليس إلى سرد قصة شاطر كما هو متداول. الشطارة بالنسبة إلى أليمان كما سبق أن بيّنتُ في مناسبة أخرى (راجع أطروحتي) هي مجرد وسيلة لتكريس خطاب الكنيسة بنبذ أخلاق الشاطر وتصرفاته الخارجة عن الأعراف الاجتماعية، وما القصة الموريسكية من هذا المنطلق إلا خياراً استراتيجياً آخر من أجل كسب رضى الجهات الرسمية بدعم موقفها ضد المسلمين. لنتأكدْ من ذلك بالاستناد إلى هذه المعطيات المستمدة من النص:

- أولاً: راوية قصة «عُثْمينْ ودَرَاجة»: قسّيس والمُنصت إليه شاطر (قزمان)، وبهذا يصح ربط هذا الموقف بهدف الوعظ والإرشاد الذي تتميز به الرواية أساسا.

- ثانياً: دَرَاجة مؤهَّلة مبدئيا لاعتناق المسيحية نظرا لتنصُّر والدَيْها من جهة وصغر سنها (17 سنة) ولأنها تتقن لغة قشتالة إتقاناً تاما من جهة أخرى.

- ثالثاً: العاهلان الإسبانيان بصفتهما حاميا الديانة المسيحية وطبقة النبلاء أصحاب المال والنفوذ بزعامة رودْريغو يعاملون الموريسكيين بتفهم وتسامح لم يعرف عنهم في الواقع، مما يجعلنا نشك في نياتهم(المزدوجة).

- رابعاً: دراجة تتعرض لضغوط مستمرة في صيغة الإغراءات والضمانات من طرف المملكة لاعتناق المسيحية.

- خامساً: عَتْمين وَدَرَاجة يعتنقان المسيحية تحت التهديد المهذب [illegible] كل منهما لنفسه اسماً جديداً: عَتْمين أصبح يُسمّى فيرناندو ودراجة [illegible] تُدعى إسابيل، وقد تشرف عاهلا إسبانيا بترأس حفل زفافهما في مدينة غرناطة احتفاء بـ «نعمة» التمسّح التي منّ بها الله على العاشقين.

هذه القصة الموريسكية التي تروي علاقة حب بين عَتْمين ودراجة وتدور أطوارها في جنوب إسبانيا (غرناطة وإشبيلية) بعد سقوط حصن بَسْطة في يد المسيحيين هي في الأصل معروفة لم يبدعها أليمان، بل ألحقته في كتابتها قصة مماثلة مجهولة المؤلف توجد اليوم ضمن ما يصطلح عليه النقّاد الإسبان بالأدب الإبنسراجي أو El Abencerraje أما غاية أليمان من ورائها فليست ترفيهية أو جمالية، وإنما الدعاية للخطاب المسيحي على حساب كل ما ومَنْ هو غير مسيحي. ومن المثير للانتباه أن قصة «عَتْمين ودراجة» حسب طرح أليمان تتمحور رسالتها حول تمثيل المسيحية وكأنها البديل الأنجع للإسلام لكونها تضمن للمرء الحرية من القيود الاجتماعية وتوفر له الاطمئنان أمام الضغوط النفسية، والعقيدة الوحيدة التي تؤمن وتأمر بالتعايش والتسامح وتحقق لمعتنقيها سعادة دائمة. هذه الفكرة بالذات هي التي تحدد عادة صورة المسلم في مثل هذا الخطاب الأدبي، صورة يُسند فيها إلى المسلم دورمَنْ هو ضحية الحدود التي تفرضها عليه عقيدته الإسلامية فتتدخل شخوص مسيحية بلطف شديد وتنتهي القصة بانتصار المسيحية على الإسلام بردّة المسلم عن دينه. تأسيسا على ذلك، لايمكن اعتبار اختيار

الكاتب لغرناطة فعلا، لزواج المتمسّحين عثيمين ودراجة حيث سينجبان ذرية صالحة حسب رواية القسّيس اختيارا عفويا. بل إن ذلك جانب من استراتيجية خطابية تعكس سعي الكاتب الى محو رمز الإسلام بإسبانيا التي مثلته إسبانيا إلى عهد غير بعيد. والتهكم على المسلمين بل وأخذ الثأر منهم بإشراكهم في ورطة التمسّح في عقر دارهم. إن صح التعبير ينبغي الإشارة أيضا إلى أن حضور المسلم السلبي في «فرسان الفارانتي» لا يقف عند قصة «عثيمين ودراجة» لأن الرواية تحتوي على أمثلة عديدة تؤكد نظرة الاحتقار الى المسلم والإسلام.

تعرضت إسبانيا لهزيمة نكراء سنة 1401 على يد الأتراك الذين حطموا الأسطول البحري الإسباني قُبالة شواطئ مدينة الجزائر وقد ترسخت هذه الهزيمة بقوة في الذاكرة الإسبانية حتى أصبحت «تيمة» أدبية يتناولها المؤلفون الإسبان في إبداعهم، كل وفق قناعته وغاياته. أذكر على سبيل المثال لا الحصر التكملتين اللتين وُضعتا لرواية «حياة لاثاريو دي طورميس» (1554) سنة 1555 و1620، الأولى لمؤلف مجهول والثانية لخوان دي لونا. ثم رواية «دون كيخوطي دي لامانشا» (جزء 1، 1605، فصول 39-41) من تأليف ميغيل دي ثيربانطيس ولكن ما يهمني التأكيد عليه هنا هو دور مثل تلك الهزيمة في إثارة أعصاب الإسبان تجاه المسلمين وفي تشويه صورة المسلم أكثر فأكثر في أذهانهم.

من البديهيات في الحقل الأدبي أن التأويلات ليست ثابتة أو علمية بالمعنى الدقيق، لاسيما عندما يتعلق الأمر باستخلاص الحقائق التاريخية أو أحكام لها علاقة بأحداث تاريخية من صدر النص الأدبي، قصدي من وراء

هذا التحليل (الجزئي) لخطاب ثيربانطيس هو الكشف عن تشويه الكتاب للتاريخ في معناه الواسع بغرض الطعن في الإسلام والرفع من شأن المسيحية، وهو أمر يكشف لنا بدوره عن جانب مهمٍّ من شخصية ثيربانطيس بصفته مثقفاً إسبانياً وعن موقفه الحقيقي من الإسلام والمسلمين. للتذكير أقول إن ثيربانطيس كانت له فرصة الالتقاء المباشر بالمجتمع الإسلامي من خلال تجربته الجزائرية وهو أسير في قبضة الأتراك.

إن حياة ثيربانطيس حافلة بأحداث توحي بحبه للبطولة والبروز من خلال التضحية في خدمة الدولة والكنيسة، وخير شاهد على ذلك هو التحاقه سنة 1570 بالبحرية العسكرية الإسبانية حيث شارك في عدة معارك بحرية أبرزها معركة ليبانطو التي انتصر فيها الأسطول الإسباني ولكن فقد ثيربانطيس خلالها أحد ذراعيه، وخلال إبحار السفينة لاصُولْ (La Sol) التي كانت تُقله من نابولي الإيطالية إلى إسبانيا في يوم ممطر من عام 1575 هاجمها القراصنة وأخذوا من كان عليها أسيراً. حادثة الأسر هذه التي ستطول لمدة خمسة أعوام بالنسبة إلى ثيربانطيس عادة ما يستدل بها المؤرخون على شجاعة وجرأة الكاتب وتفانيه في محاربة الإسلام والمسلمين ونصرة المسيحية عملاً بالسياسة الرسمية الكنسية، بل إن البعض اعتبر ذلك دفاعاً عن الحرية في معناها المطلق. وقد وظف ثيربانطيس قصّة أسره بمدينة الجزائر في مسرحياته «التجربة الجزائرية» و«السلطانة العظيمة» و «حمامات الجزائر»، ثم في الجزء الأول من رواية « ضون كيخوطي » (فصول 39-41)، مع إدخال إضافات غير سِيَرٍ ذاتية مهمة من جملة التغييرات التي أدخلها ثيربانطيس على قصة الأسير في «ضون كيخوطي» نذكر على وجه الخصوص وضعه لهذه القصة في قالب رومانسي ديني بحيث ينجو الأسير من سجانيه

بمساعدة مسلمة تُدعى ثُريا (Zoraida) التنصرت بتأثير من خادمة أبيها المسلم الثري المعروف بالحاج مراد (Agi Morato). هذا في حين يشهد التاريخ على أن الكاتب حصل على حريته عقب أربع محاولات فاشلة للهروب تخللتها محادثات شاقّة بين سجانيه وبعض الوسطاء الكنسيّين انتهت بأداء عائلته مبلغ 500 إسْكوديسْ escudos مقابل الإفراج عنه. وتشهد الوثائق من جهة أخرى على أن ثيربانطيس والرهائن المسيحيّين بصفة عامّة عوملوا معاملة حسنة حيث كان بإمكانهم التجوال في أسواق وشوارع المدينة ومزاولة شعائرهم الدينية وكذلك ممارسة بعض الطقوس الاحتفالية وتنظيم مسرحية باللغة الأم. بل إن ثيربانطيس نفسه كما تقول الروايات الإسبانية لم يمنعه أحد من القيام بنشاطاته الدعائية للمسيحية وسط بني دينه. ولكن ثيربانطيس الكاتب حاول أن ينقل إلى القارئ (الإسباني - المسيحي) عكس كل ذلك في كتاباته. ولهذا التغيير المتعمد للأحداث وزن إيديولوجي هام. فضلاً على الوزن السيكولوجي الذي يسمح لثيربانطيس إلى التحرّر بواسطته (على مستوى الخطاب على الأقل) من عقدة الهزيمة واسترداد الاعتبار الذي فقده في وطنه على يد (الأعداء) المسلمين. نذكر في هذا المجال كيف أن موضوعة أسر بطل مسيحي على يد المسلمين تتكرّر في عدة أعمال ثيربانطيس مثل «التجربة الجزائرية» أو «حمامات الجزائر» الشيء الذي يمنح للكاتب فرصة التدخل (بخياله) في كل مرة لمساعدة الأسير على التحرر من قبضة سجانيه.

قصة الفرار من الجزائر صحبة ثُريا يلعب دور البطل فيها ويرويها ضابط وقع أسيراً في يد الأتراك يدعى روي بيريث دي بييدما، الذي يشبه إلى حدّ كبير ثيربانطيس نفسه نظراً لتطابق شخصيتيهما : كلاهما ذكي ويحب

المغامرة. وكلاهما يتخلق بأخلاق نبيلة ويشعر بغيرة شديدة على الوطن (إسبانيا) والدين (المسيحية). أما ثريا التي تلعب دوراً رئيسياً في مجريات أحداث هذه القصة، فإنها تقول في رسالتها السرية الأولى التي ألقت بها من نافذتها إلى الضابط الإسباني:

«لقد التقيت وأنا مازلت صبيّة أمة ممن كان يقتنيهن أبي فعلمتني كيف أؤدي الصلاة المسيحية باللغة الأم. كما قالت لي أشياء كثيرة عن السيدة مريم. لقد فارقت هذه السيدة المسيحية الحياة ولكنني على يقين من أنها لم تذهب إلى جهنم بل هي بجوار الله أ ...! إنني فتاة في غاية الجمال وعندي مال كثير سآخذه معي. المطلوب هو أن تجد سبيلاً نستعمله للهروب معاً إلى إسبانيا حيث سأكون زوجتك. وإذا لم ترض بذلك ستزوجني السيدة مريم برجل آخر يناسبني. الآن إبحثْ عمن يترجم لك هذه ا من العربية إلى الإسبانية! ولكن لا تضع ثقتك في المسلمين لأنهم سينقلبون ضدك. إني أخاف أن يفضح أمري. فلو وصل الخبر إلى أبي فإنه سيرميني في البئر حية ثم يغطيني بالحجارة» (ص. 37).

صورة ثريا إيجابية جداً. ولكن هذه الصورة المثالية التي اجتمع فيها المال والجمال والذكاء والشجاعة والتدين العميق إنما هي على ما يبدو من «صنع» السيدة مريم التي أنعمت برضاها على ثريا لكونها اعتنقت المسيحية. إنه باختصار تمديد لما يوحي به كلام ثيربانطيس جزاء من قُدِّر له أن يعتنق هذه الديانة ويتقرب إلى السيدة مريم بصفتها أمّ المسيحيين. ذلك هو المنطلق الذي يفسر تفضيل شابة جميلة وغنية مثل ثريا المغامرة بحياتها مع أسير لاعلاقة لها به وما يترتب عن ذلك من عواقب على أن تبقى بين المسلمين مع أبيها تتمتع بحياة رغيدة سهلة. لأن من يبقى على دينه

الإسلامي سيعيش حياة بؤس وشر وجهل وما قالته ثريا في رسالتها بشأن أبيها والمسلمين شهادة واضحة على ذلك تلك هي الاستراتيجية التي تتكرر في رواية «ضون كيخوطي»، استراتيجية متشكلة من ثنائيات متعارضة ترمي إلى تفضيل المسيحية والمسيحيين على الإسلام والمسلمين إن تجاهل هذه الحقيقة كما يفعل اختصاصيون في دراسة أعمال ثربانطيس من عيار جون كانافاجو أو ماركث بيانويبا والادعاء للروائي الشهير بروح التسامح مع المسلمين وتفهم ثقافتهم بحجة أنه أسند روايته إلى مسلم يدعى سيدي أحمد بنغلي، أو بدليل أنه ذكر في روايته العالمية أسماء وعبارات عربية وجوانب من الثقافة العربية والإسلامية ثم إرجاع آرائه المساندة للسياسة الرسمية إلى «تقية» الكاتب هو في رأيي ضرب من اللا معقول (راجع كانافاجو :1987، وبيانويبا: 1975 و1991). والأخطر من ذلك أن تتخذ من هذا «اللا معقول» (كما فعل روجي غارودي مثلاً) منطلقاً نحو اعتبار ثربانطيس رمزاً للروح الإنسانية والعقل المتفتح الذي يؤمن بالتعايش بين الديانات السماوية الثلاثة.

تُلخّص قصة ثريا والمسيحيين بالجزائر بشكل نموذجي الأفكار والتصورات التي تعرضها رواية ثربانطيس حول المسلم والإسلام، جميع الصفات الطبيعية (الجمال والذكاء) والاجتماعية والعقدية (ثراء وخصال وإخلاص وتدين.. إلخ) هي بقدرة المسيح والسيدة مريم وملازمة للمسيحيين فقط. أما المسلمون فهم النقيض المطلق: إنهم يجسدون الشر والسذاجة والعنف وكل ما هو سلبي. ولكنني بدل أن أقف عند كل صغيرة وكبيرة تؤكد ذلك في الرواية، أو تلك التي تبين اعتزاز الكاتب بالمسيحية وبالسياسة الملكية الإسبانية، سأنتقل مباشرة إلى الجزء الثاني من «ضون كيخوطي ضي لامانطشا».

لم يكن ثربانطيس ولا غيره من المثقفين ليجهل حدثا تاريخيا هاما مثل تهجير المسلمين الذي عاد بأضرار (اقتصادية) جسيمة على إسبانيا، وقد عرض ثربانطيس أفكاره في الموضوع في الجزء الثاني من روايته «دون كيخوطي» الذي صدر كما تعرفون بعد قرار التهجير بستة أعوام أي في 1615. مرة أخرى، يلفت انتباهنا تركيز ثربانطيس وهو سعيد بقرار التهجير على جانب العقيدة حيث يواصل دفاعه عن المسيحية بشكل يفسح المجال للسخرية من الإسلام بالحرف والمجاز.

ابتدع ثربانطيس في الفصل الرابع والخمسين (جزء II) موريسكيا سمّاه ريكوطي(Ricote) وجعله صديقا لـ سانطشوبانثا، وفي مشهد حواري بين الإثنين ندرك أن ريكوطي قد ذاق الأمرّين من جراء قرار التهجير حيث هاجر إلى بلدان غير مسلمة مثل إيطاليا وفرنسا وألمانيا بحثاً عن ملجأ مسيحي يناسب عائلته التي تنتظره مذعورة في إسبانيا. يرجع الموريسكي بنية اصطحاب زوجته وابنته إلى ألمانيا، لكنه يكتشف أنهما قد غادرتا البلاد إلى الجزائر. ولو عالج ثربانطيس مأساة ريكوطي بهذه «السذاجة» التي سردنا نحن بعض أطوارها لما شككنا في إنسانية الكاتب، ولكن ما تسرقنا إليه قراءتنا للمشهد هو أن مأساة ريكوطي التي تجسد وتمثل مأساة الموريسكيين بصفة عامة- لا تشكل بالنسبة إلى ثربانطيس سوى مناسبة تاريخية للتعبير عن تأييده المطلق للكنيسة والعرش، وأخطر ما في هذه الاستراتيجية الملتوية يكمن في جعل ريكوطي بصفته موريسكيا ومن ثم ضحية مباشرة لسياسة إسبانيا الرسمية ينطق عن رضى بموقف ثربانطيس المؤيد للقرار والمعادي للموريسكيين. من بين الأقوال التي أتت على لسان ريكوطي في هذا السياق نذكر ما يلي:

«إن جلالة الملك اتخذ هذا القرار العظيم (طرد الموريسكيين) بإلهام من الله... في الواقع، إننا نستحق عقوبة التهجير مادامت غالبيتنا العظمى ليست مسيحية».

«أنا متأكد ياعزيزي سانطشو من أن ابنتي ريكوطا وزوجتي فرنثيسكا ريكوطا كاثوليكيتان بمعنى الكلمة، أما أنا فلست متدينا مثلهما، لكني بالرغم من ذلك أعتبر نفسي مسيحيا أكثر مني مسلما، وإني أرجو الله أن يهديني إلى اتباع دينه [المسيحي] والعمل وفق تعاليمه».

هذا النوع من التصريحات يأتي مدعما بإيحاءات وإشارات من سانطشو وريكوطي نفسه في مونتاج مدروس ومتقن بقصد إقناع قراء ثربانطيس بقدرية التهجير، لأن الله أراد لإسبانيا أن تكون أرضا للمسيحيين فقط. هذا يعني ضمنيا بأن الموريسكيين هم الذين أنزلوا على أنفسهم عاقبة التهجير باعتناقهم دينا كالإسلام الذي ليس في مستوى المسيحية، وهي أطروحة تتكرر عند ثربانطيس في روايتيه القصيرتين «حديث الكلاب» و «أعمال بيرسيليس وسيخيسموندا». وإذا اعترف المشرّد ريكوطي بـ "عدالة" القرار [illegible] "ضميرا" مسيحيا يميز بواسطته بين الخير والشر، بين الصالح والطالح، [illegible] النظر عن المصلحة أو بالأحرى المضرة الشخصية الآنية.

كانت هذه قراءة جزئية وسريعة في كتابين كلاسيكيين في الأدب الغربي والعالمي قُصِد منها تصحيح بعض التأويلات الرسمية المتعلقة بصورة الموريسكي والمسلمين على وجه العموم، على عكس ما يروج له المؤرخون والنقاد الإسبان خاصة. فقد كان لماتيو أليمان وميغل ذي ثربانطيس مواقف معادية للمسلمين وديانتهم، وهي مواقف تشهد على وجود خطاب مسيحي

قوى ترجع بدايته إلى القرون الوسطى الأولى وتمتد دون انقطاع إلى ما بعد سنة 1609 وفق استراتيجية واحدة ساهم في وضعها مثقفون ورجال الدين ورجالات السياسة في تحالف غير معلن ضد مسلمي إسبانيا، ومن بين ضحايا خطاب أليمان وثربانطيس يوجد هؤلاء الموريسكيون الذين فروا من إسبانيا واستقروا في المغرب.

المصادر Bibliographie

- Brau, Jean-Louis: Fonction des nouvelles intercalées dans le roman espagnol du siècle d'or, Nice, Publications Faculté des Lettres &des Sciences Humaines de Nice, 1991.
- Bunes, Miguel Angel de: Los Moriscos en el pensamiento historico, Madrid, Catedra, 1983.
- Canavaggio, Jean: Cervantes, Madrid, Espasa-Calpe, 1987.
- Caro Baroja, Julio: Los Moriscos del Reino de Granada, Madrid, Istmo, 1976.
- Carrasco Urgoiti, M.S : El Moro de Granada en la literatura (del siglo XV al XX), Madrid, Revista de Occidente, 1956.
- Castro Américo : Hacia Cervantes, Madrid, Taurus, 1957.
- Cervantes, Miguel de: Don Quijote de la Mancha, Madrid, Edaf, 1990.
- Cervantes, Miguel de: Novelas ejemplares, (ed. M. Baquero Goyanes), Barcelona, Nacional, 1976.
- Chejne, Anwar G. : Islam and the West: The Moriscos, Albany, New York University Press, 1983.
- El-Outmani, Ismail. Anatomies of Subversion in Arabic and Spanish Literatures. Towards a Redefinition of the Picaresque. PhD thesis. University

of Amsterdam, 1995.

- Epalza, Mikel de: Los Moriscos antes y después de la expulsión, Madrid, Mapfre, 1992

- Gálmes de Fuentes, Alvaro: Los Moriscos (desde su misma orilla), Madrid, Instituto Egipcio de Estudios Islámicos, 1993.

- Garaudy, Roger: La poesía vivida: Don Quijote, Cordoba, El Almendro, 1989.

- García Arenal, Mercedes: Los Moriscos, Madrid, Nacional, 1975.

- Goytisolo, Juan : Crónicas sarracinas, Barcelona, Ruedo Ibérico, 1982.

- Herrera Puga, Pedro: Sociedad y delincuencia en el Siglo de Oro, Madrid, Católica, 1974.

- Lopez-Baralt, Luce: Huellas del Islam en la literatura española, Madrid, Hiperión, 1985.

- Lopez Estrada, Francisco (ed.): El Abencerraje (novela y romancero), Madrid, Catedra, 1990.

- Marquez Villanueva, Francisco: Personajes y temas del Quijote, Madrid, Taurus, 1975.

- Marquez Villanueva, Francisco: El problema morisco desde otras laderas, Madrid, Al-Qaibla, 1991

- Morales Oliver, Luis: La novela morisca de tema granadino, Madrid, Universidad Complutense, 1972.

- Piñero, Pedro M. (ed.): Segunda Parte del Lazarillo (Anónimo & Juan de Luna), Madrid, Catedra, 1988.

- Tarchouna, Mahmoud: Les marginaux dans les récits picaresques arabes et espagnols, Tunis, Université de Tunis, 1982.

- Trapiello, Andrés: Las vidas de Miguel de Cervantes, Barcelona, Planeta, 1993.

- Valbuena y Prat, Angel (ed.): La novela picaresca española, Madrid, Aguilar, 1946.

صور...
من تطوان الغرناطية

آمنة اللوهْ

في سنة 1947 زار الشاعر المغربي المستشار ابراهيم الإلغي مدينة شفشاون فحيّاها بهذه الأبيات:

لستُ أنسى مدينة الراشدية لا، ولو نازعتني عنها المنية
فلئن كنت نائي الجسم عنها وتذكرت ما لها من مزية
فسأبقى كآدم حينما أخرج من جنة الخلود العلية
كيف أنسى ربوعها وهي للعين جمال، وللقلوب رويّة
وسمتها يد الطبيعة لوحاً تتجلى به الفنون البهية
وحبتها السماء من كل نور وكستها مطارفا سندسية

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

أهل شفشاون، أنعموا بها بالاً فهي لا شك جنة عدنية
أنتم في شيوخكم وشباب مثل زهر بدوحة سرمدية

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

بهذه الأبيات، أحيِّي بدوري، مدينة شفشاون الفاضلة، الفاضلة بأهلها، وبأرثها الأندلسي، وبطبيعتها الخلابة... مدينة آل راشد المجاهدين الأبرار، مدينة «الستّ الحرة» ابنة مؤسس المدينة مولاي علي بن راشد، زوجة علي المنظري مؤسس مدينة تطوان، وحاكمة تطوان بعده... وأحمدُ لأكاديمية المملكة المغربية اختيارها الموفق، عندما وضعت الندوة في إطارها المناسب، فاختارت مدينة شفشاون الأندلسية لاحتضان هذا الملتقى الموريسكي..

* * *

إن موضوع الموريسكوس يثير فينا نحن المغاربة حنينا غريبا، فيه لوعة ورقة ومسحة حزن، لقد بقي فينا شئ من بكائهم وحنينهم إلى فردوسهم الضائع، ولذلك شئنا أم أبينا فإن كلامنا عندما نتناول هذا الموضوع يأتي ممزوجا بهذا الحنين..

فمأساة الموريسكوس جُرحها غائر في نفوسنا، وما تحملوه من ظلم واضطهاد وأصناف العذاب لايمكن أن يُنسى من الذاكرة الإسلامية، فلقد امتحنوا في أموالهم وعائلاتهم، ولكن محنة الدين كانت أكبر من كل المحن، وقد حاولوا بكل الوسائل أن يتمسكوا بدينهم، وكان تشبثهم بالإسلام واعتقادهم برجوعه إلى الديار الأندلسية شيئا يفوق عندهم اليقين!.

أذكر أنه تم العثور في غرناطة أثناء هدم بعض الأطلال القديمة، وبالذات في صومعة «توربيانا» turpiana وكانت في أصلها مئذنة للمسجد الكبير بغرناطة، وفي الجبل المقدس أو Sacromonte على صفائح رصاصية مكتوبة بالعربية بلغت تسعة عشر كتابا، وهي في مجموعها متشابهة

تتكون من الصفائح رقيقة دائرية الشكل أو بيضاوية ومكتوبة على الوجهين، تتخللها أحيانا مثلثات متداخلة في شكل نجيمات أو على صورة خاتم سداسي الزوايا المعروف بالخاتم السليماني. وأما الحروف فهي الحروف العربية الكوفية العادية في الأندلس مع بعض التحويرات. إمعانا في الخفاء، وقصد إسباغ الأقدمية عليها. واللغة هي العربية. وعلى أغلفتها الرصاصية يظهر عنوان كل كتاب حسب موضوعه بلغة لاتينية قديمة.

وقد اهتمت الأوساط المختلفة بهذه المكتشفات اهتماما كبيرا، وتأسست لجان وتراجمة للبحث وإظهار الحقيقة.. ففيها تنبؤات وأشياء جديدة لم تكن في الديانة المسيحية.. وقد شغلت القضية الناس طويلا بل قل إنها زعزعت إيمانهم، وتمت الاتصالات بالبابا في شأنها.. إلى أن صدر الحكم البابوي النهائي الذي قضى بإدانة هذه الكتب وبمنع الخوض فيها بتاتا بحجة أن فيها كفريات من الإسلام.

وقد أذاعت محاكم التفتيش في إسبانيا الحكم البابوي في منشور خاص. وقد لاحظ كثير من الباحثين أن الكتب الرصاصية تقول بوحدانية الله، وبأن المسيح كلمة الله وليس ابن الله. وتقول بعصمة البابا، وبقدسية ما، القدّاس لا بخمر القداس، وبكون راهب القداس يغسل يديه وفمه ووجهه قبل الدخول في القداس ولايكتفي بغسل يديه، وأن بعضها ينصح النساء باستعمال الحجاب، وينهى عن دفن الموتى في الكنائس الخ.. كما تعرضت هذه الكتب لأفضلية العرب ولغتهم واستعادة وحدتهم.. كما تنبأت بخلاص الموريسكوس.

ويقول «الأب كَبْنِيلاس» Cabanelas : «إن غاية واضعي هذه الكتب تنحصر في أمرين:

أ) وضع ديانة واحدة Syncrétisme يتقبلها اتباع الديانتين : المسيحية والإسلامية وذلك بإدخال معتقدات إسلامية لا تصادم المسيحية وبالعكس.

ب) تفضيل الجنس العربي واللغة العربية.

ومن هذا المحتوى جاءت فكرة نسبة الكتب الرصاصية إلى العرب الموريسكوس وقد بدأت هذه الاكتشافات سنة 1588 أي بعد سقوط غرناطة بنحو قرن، ولغاية آخر القرن السادس عشر تتابع ظهور أمثال هذه الكتب.

لقد كان الموريسكوس، وهم في محنتهم الدينية، يرمون إلى نوع من التوافق المسيحي الإسلامي، وبذلك يمكنهم إنقاذ ما يمكن انقاذه من تراثهم الروحي بعد ضياع تراثهم السياسي إثر فشلهم في ثورة البشرات..

وقد ثبت بعد التحقيق الدقيق الطويل أنها من عمل الموريسكوس، وهدفهم من ذلك العيش في سلام مع دينهم.

لقد استعملوا كل الحيل للحفاظ على دينهم فلجأوا إلى خلق هذا النوع من الكتب التي نسبوها إلى بعض حواري عيسى عليه السلام. كما لجأوا إلى التقية، واستعملوا الجفريات لتذكية جذوة الدين في قلوب إخوانهم الموريسكوس وطمئنتهم بعودة الإسلام بكيفية لاتقبل الشك.. وقد كنتُ ألقيت منذ سنوات في الرباط محاضرة حول هذا الموضوع المثير والمؤلم في نفس الوقت.

لقد تعرض الموريسكوس للمواجع، وهناك كتاب بالغ الأهمية صدر عن المجمع الديني الذي عقد بوادي آش في القرن السادس عشر، ويشتمل على جميع قرارات المنع التي صدرت في حق الموريسكوس وطبقت عليهم بعد ذلك بكل صرامة.. وهي قرارات جائرة ورهيبة، ترجمتُ جزءا منها.. والنية إن شاء الله أن أترجم الكتاب برمته، لأنه جدير بالقراءة.. ومن خلاله نعرف أي محنة تعرض لها الموريسكوس قبل أن يطردوا الطرد النهائي..

لذلك سيبقى الجرح غائرا في نفوسنا ونفوس المسلمين جميعا، وسيبقى الحنين الحزين فينا حيًا ما بقيت الحياة..

ولكن، يجب ألا ننسى أن هذا الحنين لايقتصر علينا وحدنا، فهناك في الضفة الأخرى من البوغاز، من يحنّ إلى ذلك الماضي العربي الأندلسي مثلنا أو أكثرمنا، إنهم الإسبان الأندلسيون الذين بقي فيهم الحنين إلى الماضي نابضا في قلوبهم، ومشعًا من سحنتهم، تعرف ذلك من الإسباني الأندلسي عندما يخاطبك قائلا في اعتزاز : إنني من أصل عربي، وفي شرايني يجري الدم العربي، ويعبر عن هذا الاحساس خير تعبير، الشاعر الأندلسي الكبير[1] «مانويل ماتشادو» Manuel Machado

عندما يقول :

إنني مثل القوم الذين جاءوا إلى بلادي

إنني من السلالة العربية الصديقة القديمة للشمس

أولئك الذين ربحوا كل شيء وخسروا كل شيء

روحي صيغت من تبرة العربي الإسباني.

نجد هذا الحنين في كتابات كثير من الأدباء والشعراء الأسبان، من بينهم على سبيل المثال لا الحصر Pedro Antonio de Alarcon صاحب كتاب: Diario de un testigo de la guerra de Africa والكتاب من أهم ما كتب عن حرب تطوان سنة 1860 . أذكر أيضا، E. Gomez Carrillo صاحب كتاب «فاس الأندلسية» قيثارة الذي كتب عن فاس وكأنه يعزف على قيثارة، إنه يكتب بريشة مغموسة في محبرة الحب الفاسي، وهناك الصحفي اللامع E. Arques صاحب كتاب «Tres sultanes a la porfia de un reino» هذا الكاتب كان يقيم بتطوان، وشغل مناصب عليا في الإقامة العامة الإسبانية، واختار لسكناه دارا عربية، في حي عربي، بمدينة تطوان العتيقة، لها سحر الأندلس، وفتنة الموريسكوس.. ثم كيف لا نذكر شاعر غرناطة والإنسانية F. Garcia Lorca الذي نجد في كل أعماله ظلالا من العروبة، وحنينا متأججا إلى تلك العهود الأندلسية الزاهرة، وهو الذي يقول عندما يتحدث عن استعراضات الأسبوع المقدس (Semana Santa) : «أرجو من مواطني أن يخفوا عن طيب خاطر ذلك الاستعراض المرعب عن العشاء المقدس، وأن لا يدنسوا الحمراء التي لم تكن ولن تكون أبدا نصرانية».

قصائده ونثره بكاء خافت، ومراثي عميقة للعهد العربي الغابر...

وهناك أيضا Roberto Arlt [2] الذي يخاطب تطوان قائلا :

«تطوان يا تطوان! عندما أذكرُ اسمك تتمزق روحي. أنت أجمل مدينة في العالم، المدينة التي لا يعرفها أحد، ولا يذكرها أحد.. مدينة شوارعها سراديب سرمدية. خرجت من كل المدن وأنا فرح جذلان.. ولكن عندما خرجت من تطوان، كان عليّ أن أعض على شفتي حتى لا تنهمر الدموع... انتهى».

وآخرون، وآخرون..

إذن، فالنبض مايزال خافقا هنا وهناك. والحنين إلى العهد المشترك باق إلى الأبد: وهناك في قصرالحمراء بغرناطة، سجل قديم وضع للزوار بتاريخ ٩ ماي ١٨٢٩ أعدّ ليدوّن فيه زوارالحمراء ملاحظاتهم وانطباعاتهم بدل تسجيلها على الجدران..

في هذا الكتيب تقرأ العجب، ومنه تعلم مدى سخط القوم على أنفسهم واستنكارهم لما اقترفوه في حق العرب المطرودين..

وهذه مقتطفات منها:

يقول جامع الكتاب: «الحمراء! هذا الإسم السحري الذي يحتوي على عالم من ذكريات المجد والشعر... الحمراء، سلطانة بني نصر، التي تغنى بها الشعراء والفنانون. الحمراء، ذلك القبرالعملاق الذي يضم كل أمجاد ذلك الشعب الذي يوجد اليوم تحت النير الأوربي».

ويقول توقيع: «إنها همجيةالقرن الخامس عشرالتي أخرجت العرب من إسبانيا. وإنه لتعصب كارلوس الخامس[1] الذي دفن نفسه حيًا» ويقول توقيع آخر: «متى أبدع الصليب قصرا كقصر إشبيلية، وجامعا كجامع قرطبة، وحمراء كحمراء غرناطة» وتوقيع آخر يقول: «أبرأ من جهل الملوك الذين قرروا طرد الموريسكوس». وتوقيع آخر يقول: «ليس هناك فنان لا يصرخ وقلبه جريح: «ملعون هو كارلوس الخامس. آمين».

وكل هذه النماذج وغيرها كثير. تحمل توقيعات شخصيات إسبانية بارزة.. ونجد كثيرا من المؤرخين والمفكرين الإسبان يستنكرون عمليات الطرد بكيفية صريحة..

ولولا خوف الإطالة لأتيت بنماذج من أقوالهم...

لذلك أرجو، عندما نصدر أحكامنا، أن نتريث قليلا، ونستعمل العقل بدل العاطفة، وأن لا نعمم هذه الأحكام، فما كل الأسبان بالكردينال سيسنيروس Cisneros. وفي نفس السياق، أرجو ألا نتهم المغاربة بالاعتداءات الشنيعة على الموريسكوس، وأن لانبالغ لحد القول بأنهم كانوا يبقرون بطونهم لاستخراج المال والحلي، اعتمادا على مارواه بعض المؤرخين.. ونحن نعلم أن الموريسكوس وصلوا إلى المغرب في فترة كان المغرب يجتاز فيها أزمة خطيرة في السلطة، وعادة ما تصحب مثل هذه الفترات الحرجة، فوضى وانفلات الزمام.. وبالتالي تكثر الاعتداءات ويظهر قطاع الطرق.. لذلك فإن كانت هناك اعتداءات السلب والنهب فلم تكن على الموريسكوس وحدهم بل كانت أيضا على المغاربة بحكم زمن الفوضى. ورغم ذلك فإن السلطات كانت تولي الموريسكوس اهتماما وتعمل إذا هم ما في المستطاع من حيث تأمين المأوى، وقبولهم على المستوى السياسي، ومساعداتهم بالمال والرجال حماية لهم...

ثم يجب ألا ننسى أن الموريسكوس لم يأتوا إلى المغرب بمحض إرادتهم، بل لأنهم طردوا من وطنهم، ولأجل العودة إلى بلادهم كانوا يستعملون مختلف الأساليب، ومنها أنهم كانوا يشيعون في إسبانيا فكثير منهم عادوا خفية، وتحت جناح بعض المدافعين عنهم - أن المغاربة يقتنصونهم قنصا، ويعتدون عليهم، ويبالغون في تجسيد تلك الاعتداءات، كل ذلك استدرارا لعطف حكام إسبانيا والشعب الاسباني.. وقد تناول هذا الموضوع كثير من المؤرخين الاسبان وحللوه بما فيه الكفاية.

بالأمس استمعنا إلى الموضوع الموريسكي من جانبه المأساوي، وهو جانب مهم بلاشك، ولكن دعونا اليوم، نغير دفة الحديث، فنتناول الموضوع من جانبه الإيجابي، وهو تأثيرهم الحضاري في الحياة المغربية..

وأعترف أنني عندما أريد الحديث عن المغرب والأندلس يعتريني نوع من الارتباك والدهشة، إذ كيف يمكن الفصل بينهما، وكل شيء يدل على التحامهما، ووحدة كينونتهما..

كل الانتصارات الكبرى تحسب لتاريخنا:

ففتح الأندلس سنة (711م) كان على يد طارق بن زياد المغربي.

وقعة الزلاقة (1086م) كانت على يد يوسف بن تاشفين المرابطي،

وقعة الأرك (1195م) كانت على يد المنصور الموحدي،

استمرار الحكم العربي بالأندلس بعد وقعة الزلاقة لأكثر من أربعمائة سنة يرجع فضله إلينا..

استصراخ ملوك الأندلس واستغاثتهم كانت دائما بملوكنا، وكانت تجد الصدى عندهم،

فهذا لسان الدين ابن الخطيب أمير الأدب الأندلسي الغرناطي، كمثال، يرسله سلطان غرناطة محمد الغني بالله سفيرا إلى أبي عنان المريني سلطان المغرب، على رأس وفد من رجالات الأندلس يستنصره ويطلب عونه على مقاومة ملك قشتالة، فأنشد بين يديه شعرا قال فيه:

خليفة الله، ساعد القدر * علاك، لاح في الدجى قمر
ودافعت عنك كف قدرته * ماليس يستطيع دفعه البشر
وجهك في النائبات بدر دجى * لنا، وفي المحل كفك المطر
والناس طراً بأرض أندلس * لولاك ما أوطنوا ولا عمروا
وغاية الأمر أنه وطن * في غير علياك ماله وطر

فتأثر السلطان المريني لإنشاده أيما تأثر، ووعد بإجابة سائر مطالبهم، ويصف لنا ابن الخطيب نجاح سفارته في قوله:

«وكان الانصراف بأفضل مما دعا به مغير، من واد أصيل وإمداد موهوب، وقد نجح السعي، وأثمر الجهد، وصدقت المخيلة» من كتاب (الإحاطة في اخبار غرناطة) لابن الخطيب.

مجالسنا السلطانية كانت تزدان بحضور علماء الأندلس فيها، أشهر فلاسفة الأندلس وفقهائها وشعرائها كانوا يتوافدون على المغرب كمن يتوافد على منزله الحميم..

وعندما كان علماء الأندلس يتوجهون إلى المشرق العربي، كانوا يعرفون هناك بالعلماء المغاربة لا الأندلسيين.

وهنا ـ مثلا ـ ابن سعيد ـ العالم الأندلسي الكبير الذي كان ينتسب إلى Alcala la real، وكانت تسمى قلعة بني سعيد، فقد كانوا أمراءها ـ عندما توجه إلى المشرق العربي بكل ثقله العلمي، لم يكن يعرف هناك بابن سعيد الأندلسي بل بابن سعيد المغربي، وبهذا يعرف في التاريخ.

وهناك روابط الدين والسلالة واللغة والمذهب. فمذهبنا المالكي انتقل إلينا من الأندلس.. إنها وحدة المذهب. الخط المغربي هو نفسه الخط الأندلسي. النظام التعليمي متشابه بل متطابق.

عُملتهم النقدية، في كثير من الفترات، كانت تأخذ شكل عملتنا. لنتذكر هنا العملة النصرية في القرن الخامس عشر XV التي احتفظت بالتقليد المغربي الموحدي فيما يتصل بهيئتها، أي أنها مربعة لامستديرة.

موجاتٌ من الذهاب والإياب جعلت من البوغاز معبرا للأخوة والمحبة والسلام. إنه اندماج كلي، لم تضعه المواثيق ولا المعاهدات. ولكنه اتحاد أمْلته وحدة الدين واللغة والموقع والمصالح المشتركة..

ولذلك، كان طبيعيا جدا، بعد انحسار الحكم العربي عن الجزيرة الإيبيرية أن ينتقل الأندلس بكل إرثه الحضاري إلى المغرب، ليستمر هذا الإرث إلى يومنا هذا..

فالمغرب استمرار للحضارة الأندلسية وامتداد لها في الجهة الأخرى من البوغاز. ولذلك، فإن الفصل بين الحضارتين من الصعب بمكان..!

أتيت بهذه المقدمة لأذكّر بأن ما بيننا وبين الأندلس بصفة عامة والموريسكوس بصفة خاصة باق ومتعمق فينا إلى أن يرث اللّٰه الأرض وما عليها. وموضوع الموريسكوس، رغم ما أريق فيه وما سيراق من مداد عالمي سيبقي دائما المورد الخصب للدارسين والباحثين، يجدون فيه دائما الجديد والمُبْهر..

هنا، وقد اخترت لموضوعي، مدينة تطوان، كنموذج للتواجد الموريسكي الإيجابي بالمغرب. وهدفي قبل كل شيء، إبراز ما تزخر به هذه المدينة من أنماط الحياة الموريسكية الغنية..

وإذا عنونتُ حديثي بتطوان الغرناطية، وأتجرأ وأقول الغرناطية النصرية فأنا لم أبالغ.. فمدينة تطوان غرناطية المولد، وهي امتداد مادي وروحي للحضارة النصرية.

يقول البحاثة الصديق ضون كبيرمو كوزالبيز بوصطو Don Guillermo Gozalbez Busto في كتابه المنظري الغرناطي مؤسس تطوان "Al-Mandari, el Granadino fundador de Tetuán" «هناك ثالوث ملتحم في التاريخ: المنظري – تطوان - غرناطة.

إنني أريد أن أختصر الوجود الغرناطي بتطوان الذي بدأ سنة 1484 إلى وريقات حدد زمن إلقائها بدقائق معدودة.. ولذلك سأحاول أن أوجز ولا أدخل في التفاصيل.. وسأتعرض لذكر المعالم والتقاليد الغرناطية، بعضها لاكلها.. وسيكون ذلك على شكل ومضات..

فكما نعلم، فإن الموريسكيين انتشروا في كل ربوع المغرب، وامتد وجودهم الى المدن والقرى والجبال والريف.. ففي «أجْدير» الرِّيف مثلاً، أذكر أن أهلي وعشيرتي كانوا يتحدثون عن مدشر هناك اسمه «إنْدَلُوسَنْ» وكانوا يكونون فيما بينهم جالية إثنية تكاد تكون مستقلة عن الآخرين، شأنهم في ذلك شأن إخوانهم المنتشرين في بقية أنحاء المغرب وغير المغرب.. إذ إن هجراتهم امتدت إلى الجزائر وتونس وتركيا وأوربا، وكانت ألمانيا بالنسبة إليهم بلدالحرية.. وهكذا حملوا في متفاهم القرى

خلاصة حضارتهم الأندلسية، ولعل وجودهم في «أجْدير» هو الذي أعطى لهذه القرية طابعها الحضاري المتميز بين أهل الريف. وعندما وصل الغرناطيون إلى تطوان كان لهم موعد مع التاريخ ..!.

وتطوان تقع عند سفح جبل «دَرْسة» على بعد حوالي 10 كلم من شاطئ «مرتيل».. وقد تعرضت خلال تاريخها الطويل لهزات.. وخربها البرتغاليون سنة 1437 في أحد هجوماتهم المتكررة التي كانوا يفرضون بها من سَبْتة.. وبقيت خالية لمدة خمسين سنة، وهناك من المؤرخين من يقول أكثر، ولكنني اعتمدت النظرية الأولى، وهي التي جاءت في كتاب «المنظري، الغرناطي مؤسس مدينة تطوان» لأنها نظرية مبنية على العلم والبحث الدقيق.

أحد قادة جيوش أبي عبد الله الملقب بالملك الصغير «El Rey Chico»، المسمى علي المنظري، كان قائدا لحصن «بينار» Pinar القريب من غرناطة،وهناك أخبارمتضاربة حول خروجه من الحصن. الباحثة گوزالبيز Gozalbez في كتابه :«المنظري..» يقول:

«إن القائد المنظري غادر قيادته وأرضه نهائيا، شهورا قبل سقوط حصن «بينار» Pinar ويضيف: «المنظري كان ينتمي لطائفة ابي عبد الله الصغير، ومن هناك يفهم أنه ترك الحصن عندما شعر بالعزلة. وبأنه محاط من لدن قوات الزغل..» فالشعور بالهزيمة الذي زاد فيه أسر ملكه ابي عبد الله من قِبل النصارى، حمل المنظري وجماعته من المحاربين الغرناطيين على الهجرة إلى الديار الإسلامية الإفريقية، وكوّنوا في المنفى جماعة لم تنفصل، ومع الزمان ارتفع عددهم بوصول مهاجرين آخرين.

ينتمي المنظري لبلدة المنزر أي المنظر الجميل، وينطقون اسمه بالمَنْزري. هكذا نجده مكتوبا بالعربية في الوثائق الغرناطية ببلدة المَنْزَر هذه، من أعمال غرناطة، وهو ما يسمى اليوم «بيذمار» Bedmar.

نزل المنظري وجماعته في سهل «مُرتيلْ» سنة 1484، واستقر بخرائب تطوان وأعاد بناءها وحصّنها بعد أن أذن له السلطان محمد الشيخ الوطاسي بذلك، وزوده بالرجال والمال، فتحولت المدينة إلى حصن للدفاع ضد الهجوم البرتغالي. وبذلك أخرج تطوان من الخرائب ووسعها وجعلها المكان الحلم لمنفى الآلاف من الإسبان المسلمين أولاً، والموريسكوس بعد ذلك.

المنظري وجماعته كانوا من النبلاء، ومن طبقة وثيرة وغنية ومتعودة على مستوى من الحياة مغايرة لما في المغرب.. وزواجه من قريبة للملك أبي عبد الله الصغير دليل على نبل محتده وسمعته بين البورجوازية الغرناطية، وقد تزوج بها في المغرب، وقصة مجيئها لا تخلو من طرافة:

فعندما كانت متوجهة من مدينتها غرناطة إلى تطوان للزواج من المنظري، أسرتها جيوش «الكوندي دي تنديليا» El Conde de Tendilla وبأمر من هذا، ذهبوا بها إلى قلعة Alcala la Real وتبعد عن غرناطة بخمسين كلم.. إلا أن اتصالات تمت في شأنها مع الكوندي، ومنها رسالة من الملك أبي عبد الله الصغير إلى الكوندي يطلب فيها إطلاق سراح قريبته فاطمة، ويقدم مبالغ من ثروته لافتدائها..

وأمام هذا الاهتمام الصادر من الملك أبي عبد الله وبعض الشخصيات الغرناطية حرر الكوندي فاطمة، وهذا اسمها، بدون أن يتقبل أي افتداء، بل إنه من أجل إظهار العناية بالأسيرة، أهدى العروس حلي ثمينا وهدايا أخرى..

تزوج المنظري مرة ثانية «بالست الحرة» ابنة صديقه وحليفه مولاي علي ابن راشد مؤسس مدينة شفشاون. والمؤرخون يعتبرون هذا الزواج الأخير سياسيا. وفي آخر حياته تحملت «الست الحرة» مسؤولية الحكم. وبعد مماته أصبحت حاكمة تطوان، وبهذا تعرف في التاريخ.

المنظري حكم تطوان أكثر من نصف قرن.. ومات عن سن تناهز 88 حسبما أورده الأب «كونْطْريراس» Contreras الذي كان يزوره في بيته بتطوان قصد افتداء الأسرى، وطمعا في تنصيره، لما آنسه فيه من ميل للنصرانية (والعهدة على الراوي !!). ضريح المنظري يوجد في مقبرة المدينة القديمة بتطوان على تل مشرف على سهول تطوان الممتدة إلى «مرتيل»..
وللناس فيه اعتقادات..!

كان تأسيس المدينة عام التفاحة. فالتفاحة رمز بنائها حسب الحروف المكونة لهذه :

فالتاء = 800 ، والفاء = 80 ، والحاء = 8، والألف = 1. المجموع : 889 هـ (1484م) حسب رواية السكيرج.

كان المنظري في تطوان شبيها بالمستقل، فقد حولها إلى نوع من إمارة صغيرة، مثله في ذلك مثل Los hornachos الذين تمركزوا في الرباط في القرن السادس عشر، وكونوا بها جمهورية تكاد تكون مستقلة.

هذه باختصار شديد الظروف التي واكبت تأسيس تطوان، القاعدة التي ستحتضن الآلاف من المهاجرين الغرناطيين في الأعوام الأخيرة من القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر

والآن أدعوكم إلى جولة قصيرة بمدينة تطوان الغرناطية عبر ما سأعرضه عليكم من صورها الغرناطية الموريسكية.

في البداية أشير إلى أن مدينة تطوان القديمة بمنازلها وأزقتها الضيقة ودروبها الملتوية المبلطة بالأحجار، وأسوارها وأبوابها وبعض مساجدها ودكاكينها الصغيرة، ماتزال على التخطيط الذي وضعه المنظري منذ سنة 1484. فالمدينة ما تزال على إيقاعها الغرناطي..

من بين الآثار المعمارية الباقية إلى اليوم نجد أن أول ما أسسه المنظري هو «حومة البلاد» ولعل عبارة «ولد البلاد» الشهيرة بين التطوانيين مصدرها «حومة البلاد» هذه، ويتجلى هذا عند الاستفسار عن هوية الشخص الطارئ:

هل هو ولد البلاد؟ وتتعمق هذه العبارة أكثر عندما يتعلق الأمر بالمصاهرة فإن كان أو كانت «ولد البلاد» فأهلاً ومرحبا، وإن ثبت أنه متطفل، فمع السلامة، أو التعامل معه بحذر شديد إلى أن يتجلى الأمر. ومعروف أن النازحين الأندلسيين كانوا يشعرون بنوع من الاستعلاء على السكان الأصليين.. إلا أن وطأة هذه العبارة خفت أو كادت تختفي اليوم بعد الاندماج الكلي والانصهار في بوتقة الوطن الواحد بعد الاستقلال.

في «حي البلاد» بنى الغرناطيون في السنوات الأولى، منازلهم، وفيه توجد الدار التي بناها المنظري لنفسه وكانت تسمى «دار السكة»، وتقع في درب جامع القصبة، وما تزال قائمة في مكانها، وهي مفتوحة تكرُّماً من مالكها لكل من يرغب في زيارتها للدراسة والاستفادة.

كذلك توجد بقايا القصبة وأقواسها وحمام المنظري، وفران المنظري وباب الشريعة، سُمي بذلك لأنه كان يفضي إلى محكمة الشريعة التي كانت قائمة إلى حدود سنة 1935.

وتعد القصبة وأبراجها إحدى الذكريات الحية لفن الحرب الغرناطي وهناك الأسوار وأبواب المدينة والأبراج والبنايات المختلفة.

بعض أبواب المنازل ماتزال تحمل شعار غرناطة وهو الرمانة granada فنجد أن الباب الرئيسي للدار مسمّر بمسامير ناتئة مع دقاقة أو خرصة وعادة ما تكون على شكل خميسة أو كالحلقة المفرغة، وفي القنت الأيمن نجد : إذا كان صاحب الدار من أصل غرناطي، فإننا نجد على الباب شريطا حديديا طوليه حوالي 15 سم وعلوه حوالي 4 سم، ينتهي بشكل دائري، وفي رأس الدائرة نتوء يمثل رمانة وهو شعار غرناطة.

أما إذا كان صاحب الدار غير غرناطي، فإن الشكل هنا يتحول إلى فرقة (القرق) ومعها خميسة كبيرة في القنت.

وهذا هو الفرق بين الغرناطي وغير الغرناطي.

بعض هذه النماذج ما تزال قائمة إلى اليوم. وحاليا، أصبحت الرمانة شعار تطوان رسميا.

وهناك الكثير من المعالم الأثرية الباقية إلى اليوم، وسأقتصر على ذكر البعض منها :

القباب

من الآثار التي ترجع إلى عهد المنظري، القباب الصغيرة المتعلقة بمدافن شخصيات من العائلة المالكة النصرية والنبلاء الغرناطيين، وهي توجد على التل القريب من باب سبتة داخل مقبرة المدينة القديمة، وفي هذه المقبرة يوجد أيضا قبر علي المنظري مؤسس المدينة.

إذا، فتطوان تحمل في أحشائها رُفات أولئك الذين صنعوا أروع حضارة في التاريخ الإسلامي.

هناك ينامون في مراقدهم الأبدية، بينما في بلدهم الأصلي غرناطة اندثرت قبورهم، وضاعت ولم يبق منها إلا الركام..

يقول دي ألركون : P. A. de Alarcon في كتابه «مذكرات شاهد لحرب افريقيا» Diario de un testigo de la guerra de Africa.

وهو يصف دخوله مع الجيش الإسباني بقيادة أودونيل O'DONNEL وجنرالات آخرين إلى تطوان في حرب تطوان سنة 1860، انهم دخلوا من باب المقابر، واجتازوا على مقابر المسلمين الأولين، وظنوها في أول الأمر بقايا منازل قديمة (نظرا للطريقة التي كان الأندلسيون يبنون بها القبور، إذ كانوا يجعلونها على شكل حوش مغطى بالقباب كما يدل عليه المتبقي منه اليوم) ويقول : بأنه لم ير أبهى منها، وأن أقواسها وزخارفها لا يوجد له مثيل في أوربا.. وأنها كلها بالآجر والجير وبياض ناصع وبإتقان، وتنبت فيها أشجار الليلاب والخرّوب والياسمين والرياحين، ولكن لا أسماء عليها ولا تواريخ.. قائلا : «إننا صعدنا من هذا المكان بلا مبالاة نقفز عن

قبر إلى قبر. ونصطدم أسلحتنا برخام المقابر. ولا شك أن الأجيال الماضية تضج في مراقدها من وطأة أقدامنا وأسلحتنا. أولئك النبلاء العرب الذين ولدوا في غرناطة. وجاءوا ليموتوا في هذه الأرض » هذا ما قاله « ألاركون » Alarcon منذ 173 سنة.

فما حال هذه القباب اليوم ؟

إن هذه القباب التي يمكن اعتبارها أحد الشهود الأكثر أهمية لعهد المنظري، قد نالها الإهمال بفعل الزمان، وتهاون الإنسان.

لقد تهدمت أجزاء كثيرة منها، وطمست معالمها، وامحت زخارفها، وجف اللبلاب والياسمين والرياحين، وأصبحت أطلالا.. وإذا لم تمتد إليها يد الترميم، فعن قريب ستصبح في خبر كان.

مع الأسف الشديد، إننا لا ندرك قيمة ما تملك...!

المظهر الخارجي للمدينة

إنه اللون الأبيض، لون الجير الناصع، ومن هذا اللون اكتسبت لقب الحمامة البيضاء الذي تغنى به شاعرها بعد أن تركها أهلها في حرب تطوان 1860، حيث يقول في أحد المقاطع :

تطوان ما كنت إلا * بين البلاد حمامة

ولون الجير الأبيض هو اللون السائد أيضا في الأندلس، تأملوا القرى وبعض المدن الأندلسية الإسبانية كيف يتألق مظهرها بلون الجير، حتى أننا لنجد هناك مدنا وقرى لا تختلف في شيء عن مظهر تطوان الناصع البياض.

المنتزهات

نترك المدينة القديمة بكل تراثها الغرناطي المتجلي في أسواقها ودكاكينها وحرفها وأفرانها ومساجدها وزواياها وساحاتها التقليدية وأبوابها وأضرحة مجاهديها الموريسكيين.. ولنلق نظرة على المنتزهات الموجودة خارج أسوار المدينة، فهي أيضا من معالم المدينة ومن إرثها الغرناطي.

يقول ليوبولدو طوريّس بالْب « Leopoldo Torres في كتابه القيم «المدن الإسبانية الإسلامية Las ciudades hispano-musulmanas «لقد كان من عادة سكان المدن الإسبانية الإسلامية، ملوكا وسراة وعامة الشعب، أن يخرجوا إلى المنتزهات المنشأة خارج أسوار المدينة، ولأجل هذا كانوا يقتنون «المُنْيات» و«الكرمات» حتى ليخيل للمرء أن الأندلس عبارة عن حديقة واسعة.. » ويضيف: إن شعراء بلنسية بعد سقوطها، لم يبكوا في المنفى منازلهم ولا ثرواتهم الضائعة، وإنما بكوا حدائقهم التي لن يروها أبدا هذه المدينة لم تكن إلا جنة تجري من تحتها الأنهار.. ».

لقد كانت هذه المنتزهات والحدائق العمومية عنصرا هاما في التخطيط المدني الإسلامي.. وكانت تحمل أسماء بديعة مثل: جنين الغار، جنين الخف (انتبهوا إلى كلمة جنين التي تعني جنان، إنها الامالة الأندلسية الشامية)، عين الدمع، مرج النضير، عتبة النصر، سهل الفضة، قصر الملتقى، قصر المعشوق، قصر الزهور، السبيكة، مرج الحور .. الخ.

ويقول هنري بيريز: «إن العرب سبقوا غيرهم إلى إنشاء الحدائق العمومية».

ويقول هَنْري بيريز Henry Perez عند وصفه لحديقة قرطبة العمومية، بأنها حولت إلى هذا الغرض بوصيّة من صاحبها الزَّجّالي، وهو من أصل مغربي، في القرن الحادي عشر وربما كان هو أول من أوصى بتحويل حدائقه إلى حدائق عمومية في العصر الوسيط (وصف هذه الحديقة يوجد عند الفتح بن خاقان).

وقد أبدع شعراء الأندلس غرضا جديدا في الشعر العربي، وهو ما يسمى «بالروضيات» و«النورية» لما كان لهم من ولوع وافتتان بالطبيعة. ويشير ابن الخطيب في كتابه «الإحاطة» إلى هذه الجنان عندما يقول: «ويحفّ بسور هذه المدينة المعصومة بدفاع الله تعالى، البساتين العريضة المستخلصة. والأدواح الملتفة فيصير سورها من خلف ذلك كأنه من دون سياج كثيفة» إلى أن يقول: «ولأهل الحضرة (غرناطة) بهذه الجنان كَلَفٌ»:

ويقول المقري عن وادي آش: «بأنه أحدقت به البساتين والأزهار، وتحدث عن حصن جوليانة الشهير بتفاحه الجلياني: «بأنه يمتاز (أي التفاح) بعظم الحجم وكرم الجوهر وحلاوة الطعم وذكاء الرائحة والنقاء».

وأورد في كتابه «نفح الطيب» قصيدة لحمدة الوادآشية تصف فيها طبيعة وادي آش المخضرة على الدوام، ومطلعها:

وقـانا لفحة الـرمضـاء واد ❖ سقاه مضاعف الغيث العميم

حللنـا دوحـه فحنـا علينـا ❖ حنو المرضعات على الفطيم

وأرشـفنا على ظمـأ زلالا ❖ ألـذ مـن المدامـة للنديـم

كما أورد قصيدتها التي أنشدتها وقد خرجت للنزهة بالرملة من وادي آش ومطلعها:

أباح الدمع أسـراري بـواد ❖ لـه للحسـن آثـار بـوادي

فمن نهر يطوف بكل روض ❖ ومن روض يرف بكـل وادي

وكثير من شعراء القرن الحادي عشر يذكرون جمال سهل وادي آش وجداوله المنسابة بين الحدائق، وفرة الأشجار المتمايلة..

وفي القرن الثاني عشر أنشئت للسلطان الموحدي محمد الناصر حديقة نباتية ([illegible]) في مقره بوادي آش. (1 . 2 . 1)

ولكن وادي آش اليوم يختلف عن هذه الصورة الجميلة المحفوظة في الشعر والأدب..

فمنذ حوالي خمس سنوات زرت هذا المنتجع العربي القديم، يدفعني إلى ذلك، الأثر الذي تركته قصيدة حمدة الوادية في نفسي منذ أيام التلمذة، فوجدت المدينة، مدينة وادي آش، تتنفس العهد العربي في كنهها وطباع أهلها، ولكن اختفت البساتين، ومعها اختفى الدوح والزلال.

أعود فأقول، إن الغرناطيين عندما جاءوا إلى تطوان حملوا معهم هذا الاحساس المرهف بجمال الطبيعة، فأقاموا المنتزهات والكرمات خارج أسوار المدينة على غرار منتزهاتهم التي تركوها هناك، وذلك لقضاء فترات بها..

وتوارث الخلف منهم هذا الاهتمام بالمنتزهات وحافظوا عليه. وأشهرها بساتين بوجراح، وبساتين كيتان، وتقع هذه الأخيرة في الجناح الأخضر من المدينة.

شخصيا، وقفت كثيرا عند كلمة «كيتان» وأعتقد أنها من «كينتاس» quintas الإسبانية التي تعني منزل النزهة خارج المدينة أو الضيعة.

إنني لا أجزم ولكنني أفترض، ودليلي أن الكثير من الموريسكوس كانوا يتحدثون اللغة القشتالية «aljamia»، ولا سيما النصارى الجدد منهم الذين تعرضوا لإبادة الهوية، وقد أتى من هؤلاء، إلى المغرب العدد الكبير بعد سنوات الطرد، بل ربما كان بعضهم على دين النصرانية، ويشير العلامة خوليو كاروباروخا Julio Caro Baroja في كتابه القيم «موريسكيو مملكة غرناطة» «Los Moriscos del reino de Granada» إلى أن الموريسكوس الذين نزلوا بتونس، وهم من أصل غرناطي، كانت aljamia لغتهم الرسمية حتى القرن التاسع عشر وكيتان عبارة عن منطقة آهلة بالبساتين المغروسة بكل أنواع الأشجار المثمرة والخضر والأزهار..

وكانت معظم الأسر التطوانية تملك جنانا خاصا في كيتان، تقضي فيه أيام الربيع.. وكان كيتان يزداد بهاء عندما تكلل الثلوج جبل غرغيز طيلة أيام الشتاء.. واليوم حتى الثلوج ضنت على الجبل فأصبح عاريا رمادي اللون كئيبا.. فكيتان يقع عند سفح جبل غرغيز، وتغسله المياه المنحدرة من أعالي طوريطا الشهيرة التي تزود المدينة بالماء الشروب..

وكان من عادة العائلات التطوانية أن توزع العام على حسب الفصول، فالشتاء للمدينة، والربيع للمنتزهات خارج المدينة، والصيف للبحر، وإذا

[illegible] بعثا، شاطئ «مرتيل» لا غير.. بل كان الناس وإلى اليوم لا [illegible] مرتيل، بل فقط البحر، فالبحر هو مرتيل !.. والخريف لجني الفواكه والاستعداد للشتاء بتوفير المئونة وخزنها.

وقد خلد الشاعر المغربي ابراهيم الإلغي منتزهات كيتان في أحد تواشيحه التي تتغنى بمسارح الجمال في تطوان، وهي المجموعة التي نال عليها جائزة المغرب لسنة 1951. يقول مطلع الموشح :

بـــأبــي منــظـــر أراه

في صباحي وفي المساء

لــوحــة خــطــهــا الإلاه

يتهاويل من سماء

إلى أن يقول :

مــرجُ كــيــتــان جــنّــةٌ * زخــرفــتــهــا يــد الــقــدر

نــمــنــمــتــهــا يــــنــدس * ودمَـقْـس مــن الــزهـــر

والسؤال هو : ماذا بقي من منتزهات كيتان ؟

إن الهجوم الشنيع للأسفلت والإسمنت، وأمام إغراءات البيع، تخلى الناس عن منتزهات كيتان وغير كيتان، فباعوها لتحل محلها العمارات العشوائية التي أساءت إلى مظهر المدينة بكيفية مروعة، وقد قيل لي إنه لم يبق من كيتان إلا جنان واحد أو اثنان على أكثر تقدير.

لقد أنشأ الغرناطيون الحدائق والمنتزهات في تطوان، كما أنشئوها من قبل في غرناطة وبقاعها وأرباضها، وأجروا فيها السواقي والقنوات، «فأصبحت تطوان مثل زمردة خضراء أو مثل فص أبيض في خاتم أخضر بين أصبعين (جبلين) ملتفعين بكسوة خضراء». هذا من كلام لـ ألركون P. A. de Alarcon، وهو يتحدث عن تطوان وحدائقها ومنتزهاتها المنبثة في كل مكان..

وتطوان تنفرد بكونها بلد الياسمين، وهي عادة مستمرة إلى اليوم، وقد رأيت الولدان في عشايا مائقة يطوفون بالياسمين على المقاهي وفي غرناطة يطوفون بالنرد والياسمين على المقاهي في أماسي الصيف وفي تطوان يجعلون من الياسمين عقودا تزين الصدور، أوتيجانا تكلل الجباه..وفي تونس يعتبر الياسمين رمزا للبلاد.. يقول السفير الصديق ضون ألفونسو دي لاسيرنا Don Alfonso De la Serna عضو أكاديمية المملكة المغربية والسفير السابق بتونس في كتابه الممتع «صور من تونس» Imagenes de Tunez (وقد أهداه إلي مشكورا)، ص 16 وهو يتحدث عن نزوله بمطار تونس لأول مرة، ما يلي: «... وأحتفظ بالإضافة إلى اللون الأخضر والمزهر لتونس، بذكرى أخرى، إنها ذكرى الرائحة الزكية، رائحة الياسمين..دخلت قاعة الاستقبال بالمطار، وهناك وجدتني مع الياسمين، تتصدر القاعة صورة رجل مبتسم ذي نظرة صافية، وبيده باقة ياسمين..

في كل مكان يوجد الياسمين. الياسمين بلا شك زهرة تونس، هذه الزهرة الصغيرة العطرة البيضاء التي تتسلق ساحات المنازل التونسية،

كدانتيل خفيف معطر ومرح. هذه الزهرة التي يروق للتونسي، في تجواله المتراخي في أمسيات الصيف، أن يحملها في يده، أو يضعها وراء أذنه كما يفعل أيضا القرويون الأندلسيون أجداده القدامى...».

فتونس، هي أيضا بلد الموريسكوس الغرناطيين، وإليها حملوا إرثهم الحضاري، وحسهم الجمالي. إذا فلا يستغرب هذا التوافق الجمالي بين تونس وتطوان، وهما معا متشابهتان في كثير من مظاهر الحياة.

إن للناس ذوقا مرهفا، وطرازا من العيش قلَّ أن يوجد إلا في تطوان، وهذا بشهادة جميع المغاربة.

هنا، وبمناسبة الحديث عن البساتين، أذكر، أنه كان في تطوان تقليد غرناطي جميل، هو ولوع النساء بالنباتات وخصوصا زراعة الحَبَق، فعندما يحل وقت غرسها، لا تبقى امرأة كبيرة أوشابة بدون محبقة (الإسم جاء من الحبق) تغرس فيها هذه النبتة العطرة وترعاها بحنان. وفي كل مساء تصعد الفتيات إلى سطوح منازلهن لرعاية نبتتهن، ويصاحب هذا الواجب اليومي محادثات مع الصديقات الموجودات في السطوح المجاورة، فالسطوح أيضا كان لها دورها، ويسميها صاحب «فاس الأندلسية» بمملكة النساء المستقلة..!.

وفي السطوح كانت تنسج حكايات غرامية لها علاقة بالحبق، منها على سبيل المثال: «أن ابن سلطان كان يصعد إلى سطح قصره، فيسأل احدى الفتيات جارته التي سلبته لبه قائلا لها: «أيتها الجميلة العاشقة للحبق، قولي لي بربك كم ورقة في الحبق؟ فتجيبه الفتاة: أنت أيها السيد العالم المتضلع، قل لي: كم سفينة توجد في البحر، وكم في السماء من نجوم؟

وعناية النساء بالحبق إرث غرناطي، وإليه يشير گارسيا لوركا Garcia Lorca في كثير من أعماله، ويسمّى بالاسبانية بنفس الإسم العربي albahaca أعود فأقول، إن المهاجرين الغرناطيين تركوا في غرناطة قصرا، أو منزلا، دربا، ساحة، مسجدا، شارعا، منتزها، وأكثر من هذا عائلة وعلاقات إنسانية. وجاءوا إلى تطوان، وحاولوا أن يعيدوا ذلك القصر أو تلك الدار أو المسجد والدرب والبقاع ولكن على شكل مُنَمْنمات maniaturas، فكل شئ ظهر هنا باستعجال، إذ كيف لهم أن يبنوا حمراء أخرى..؟

ماء سكُونْدُو

ومن المعالم الباقية إلى اليوم، شبكة توزيع الماء بالمدينة والمسمى ماء سكوندو، وهذه الكلمة تحريف لكلمة Segundo الاسبانية، وهو اسم عائلة اندلسية موريسكية نزحت إلى تطوان.

وأحسن ما في هذا الماء هو نظام توزيعه.. ومنبعه يوجد في جبل دَرْسة، وقد نقل إلى المدينة عبر قناة ضخمة تم ايصالها إلى المنطقة التي توجد فيها زنقة القائد أحمد، ومن هناك تم توزيع الماء توزيعا مدهشا على المدينة، وقد تمت مقارنة نظام توزيع ماء سكوندو مع نظام توزيع الماء ببلنسية فظهر أنه نظام واحد وبهندسة واحدة..

وفي كل دار بتطوان كان يوجد نبع متدفق بماء سكوندو..

حاليا أبطل استعمال هذا الماء لأسباب.. والذي يهمنا هنا هو ذلك النظام المدهش لعملية توزيع الماء الذي أخذ اسمه من مخططه ومهندسه سْكُونْدُو أو Segundo.

الملابس

من المظاهر التي يتجلى فيها التأثير الغرناطي الموريسكي بقوة، الملابس وخصوصا ملابس النساء.

يقول مارمُل وهو يتحدث عن نساء فاس : «بأن ملابسهن تشبه ملابس الموريسكيات في غرناطة».

ويصف خورخي خوان السفير فوق العادة لكارلوس الثالث لدى سلطان المغرب سيدي محمد بن عبد الله سنة 1767م (1180هـ)، وقد مرّ بتطوان أثناء توجهه إلى مراكش، ملابس النساء والرجال في تطوان فلا تختلف في شيء عن ملابس الموريسكيات والموريسكيين الغرناطيين..

ولأهمية الموضوع، أوردنا هنا أسماء بعض الملابس ذات الأصل الغرناطي : الحايك : كانت تستعمله المرأة التطوانية في الخروج، وقد اختفى اليوم من تطوان بعد أن اكتسحته الجلابية في الأربعينات.. وكان يسمى في غرناطة «الملحفة» وفي سوس مازالت النساء يستعملن كلمة «تاملحفت»[5] لرداء يغطي الرأس والصدر..

والحايك التطواني صورة طبق الأصل للملحفة الموريسكية التي خلدها الرسام الألماني Weidits في إحدى لوحاته عن موريسكيات غرناطة في القرن الخامس عشر.

البنيقة albanega

تتكون من الثوب القطني، عادة ما يكون أبيض ومطرزاً بالحرير والألوان، تستعمله المرأة بعد الخروج من الحمام لتنشيف الشعر.

ويتحدث دييغو دي هايدو Diego de Haedo في كتابه طوبوغرافيا

الجزائر : «Topografia de argel» ، الذي نشر سنة 1612 في بلد Valladolid (اسبانيا) ، عن نساء الجزائر ، بأنهن جميعا ، سواء العربيات أو التركيات أو المرتدات، يستعملن في رؤوسهن شيئا كالكوفية يجمعن فيها شعورهن، ويسمينها باللغة المريسكية lama أو البُنيقة.

السَّبْنية

نسبة إلى Saban قرب بغداد التي كانت تصنع بها ، وبهذا الإسم كانت تعرف في غرناطة وبنفس الاسم تعرف في تطوان إلى اليوم، وتعني المنديل الذي يوضع على الرأس. .

الشَّرْبيل

من اللغة الرومانثية Servilla وكان مستعملا في الأندلس في القرن الرابع عشر بنفس الاسم، وهو حذاء مطرز بالذهب والحرير ، وثوبه من القطيفة.

الريحية

حذاء من الجلد ذي اللون الأحمر ، ويقال إن اسمه أخذ من الراحة لأنه يريح القدم، وكانت النساء يستعملنه في الخروج مع لباس الحايك، ويوجد بنفس الاسم في الوثائق الغرناطية.

القمصان

أحيانا تكون مطرزة بالحرير وبمختلف الألوان، ومازال تحمل اسمها الغرناطي «قميجة» كما وردت في كتاب «وثائق عربية، غرناطية» للعلامة لويس سيكو دي لوسينا Luis Seco de Lucena .

الطوازين

هي قطع من الثوب، تلف على الساق من الكعب إلى الركبة بدون ضغط عليها، وبذلك يمكن خلعها بدون أن تتفكك، فيكون استعمالها سهلا. وكانت تقوم مقام الجوارب اليوم وأصلها من الأندلس، وقد خلدها الرسام الألماني السابق الذكر في احدى لوحاته عن موريسكيات غرناطة في القرن السادس عشر وهي طبق الأصل للتي كانت تستعمل في تطوان (الصورة رقم 4).

وقد كان استعمالها شائعا في تطوان إلى أن ظهرت الجوارب، فأحدثت انقلابا وضجة في البيوت، فقد رأى فيها الرجال منكرا يخل بالحشمة يجب تغييره!! فحاربوها ومنعوا نساءهم من استعمالها، ولكن هيهات..! فالنساء كن أمكر وكل ممنوع مرغوب فيه كما يقال.. فعند الخروج كن يخفين الجوارب طي الحايك، وفي مدخل الدار (السطوان) أو الدرب خارج الدار، وبعيدا عن عين الزوج، ينزعن الطوازين ويستعملن الجوارب الموضة، وعند العودة يستبدلن هذه بتلك بنفس الطريقة ويدخلن الدار بالطوازين كما خرجن.. وتحكي الأمهات حكايات طريفة عن هذه الموضة التي تعرضت للمنع والمصادرة.. وشيئا فشيئا انتشرت الجوارب، واختفت الطوازين نهائيا.

اللهجة

نلاحظ التأثير الغرناطي أيضا في اللهجة التطوانية، فهي موسومة بالإمالة الأندلسية الشامية الحادة، كما أن هناك كلمات كثيرة تستعمل إلى اليوم وهي في أصلها غرناطية.

ونجد في كتاب «وثائق عربية غرناطية» للويس سيكو دي لوسينا كلمات كثيرة منها: إزار، لحاف، ملحفة، قميجّة، سباط الجلد، فضلة شقة، تليس (بمعنى الزربية) شملة (ثوب) كتبوش، الفرخة (ثوبان من الحرير

الملون يدخلان في زينة العروس) سكيرفاج، جوهر، رحبة، شُبَّة (جبة) حانية (حنية) athania (وهومكان النوم)، الخاصة، الطيفور (مائدة الأكل)، وكلها تستعمل إلى اليوم..

ومن خصائص اللهجة التطوانية، التصغير، تصغير الكلمات : خاتم = خويتم، غراف = غريرف، كاس كويس، نْيالة، نْبيلة، طاجين، طويجن الخ

ويقول لوركا G. Lorca عن الإسبان الأندلسيين، إنهم شعب تصغير الكلمات، شعب De diminutivo.

الطعام

وهذا جانب آخر من التأثير الغرناطي في المجتمع التطواني. إننا لا ننكر التأثير التركي في المطبخ التطواني الذي مايزال يحمل إلى اليوم أسماء تركية. وقد جاء هذا التأثير نتيجة الهجرات الجزائرية المكثفة إلى تطوان بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830، واندماج الجزائريين في المجتمع التطواني حيث أصبحوا يشكلون عنصرا هاما فيه، وجلبوا معهم ثقافتهم وأناقتهم وطبيهم اللذيذ، وهذه العائلات معروفة وكثيرة ومتشبثة بتطوانيتها كباقي التطوانيين.

أما التأثير الغرناطي الموريسكي فهو متجذر في المطبخ التطواني بأصنافه وطرقه وأسمائه. هناك مثلا البريد، الميفاسْ، الملوزة، البسكوتو، وTerrijasوالبسطيلة. (وهناك خلاف حول أصلها)، الأستاذ عبد الهادي التازي عضو أكاديمية المملكة المغربية في موسوعته «التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج2 ص 316» يرجح أصلها الأندلسي، وأنا معه في هذا الحكم، لأن الإسم إسباني صرف من «باسطيل» pastel وهناك الطورطيا، وبعض الفطائر والمجبنات، وتطوان مشهورة بمجبناتها، ونعرف أن بعض المدن الأندلسية

اشتهرت أيضا بصنع المجبنات حتى قيل: «من دخل شريش ولم يذق من مجبناتها فهو محروم» وتوجد أشعار تشير إليها وإلى غيرها من أصناف الطعام التي كانت معروفة في الأندلس أوردها المقري في كتابه «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»، وهناك السفنج التطواني، وقد رأيت في البشرات (لانخرون وOrgiva) من يصنعونه بنفس الطريقة وبنفس المواد التي تصنع بها في تطوان ويضيفون قائلين «بأنه من بقايا العرب».

وهناك «صبنية القنيد» التي تقدم للأطفال بمناسبة «الختان» وهو نوع من الحلوى المصنوعة من السكر الهش والليمون ومواد أخرى، ويكون على شكل طيور وحيوانات وأزهار تشبه إلى حد كبير في شكلها ما يسمى ب Mazapan de Toledo، وهذه الأخيرة من حلويات رأس السنة الميلادية.. وما يزال الأطفال في تطوان إلى يومنا هذا، يستمتعون بالقنيد، والطريف في الأمر أن صناعة هذه الحلوى تختص بها عائلة واحدة معروفة، تتوارث صناعتها أجيالها، ولم يبق منها اليوم إلا سيدة واحدة.. ولاتصنع هذه الحلوى إلا بالليل حتى لايداهمها أحد في النهار فيسرق منها الصنعة. حتى «وصلة الخبز» جاءتنا من غرناطة وتوجد صورتها ضمن لوحات الرسام الألماني Weidits (أنظر الصورة رقم 5).

وحتى أواني المطبخ مازالت تحمل أسماءها الغرناطية، منها : اسكرفيج، مقلاة، برمة النحاس، طبيرة، خابية وغيرها.. وإلى الآن تستعمل بنفس الاسم.

الموسيقى الأندلسية

بجلالها وروعتها وتشكيلاتها ونظام مجالسها انتقلت إلى تطوان وإلى كل المدن المغربية التي استقر بها الموريسكوس لتستمر بفاذها إلى

اليوم.. وتطوان مشهورة بالمجالس المخصصة للموسيقى وأشهرها تلك العشايا التي كان يقيمها الشريف سيدي عبد السلام بن ريسون في رياض الشرفاء بالباب السفلي حيث كان يتوافد عليه هناك عشاق هذا الفن الرفيع.. وهذا يذكرنا بمجالس الموسيقى التي كانت تقام في قصور الحمراء وحدائق جنة العريف بغرناطة الفيحاء.. أذكر أنني في إحدى جولاتي بالحمراء سمعت الدليل، ونحن في قاعة أسِرَّة حمام قمارش بالحمراء، يقول للسواح : «في هذا الحمام كان يستحم الملوك العرب والملكات، وبعد خروجهم من الحمام يستريحون في هذا المكان العاري الآن من كل أثاث، بينما الموسيقى تصدح في الشرفات المطلة على هذه الاستراحة، ومباخر العود والند تتصاعد منها الروائح الزكية.. أما الحمام فقد كانت تجري فيه أنابيب، كما ترون، بعضها للمياه، وبعضها للعطور، إنه حمام معطر كما ترون...».

وكثير من البيوت في تطوان لم تكن تخلو من عازف عود أو كمان أو بيانو. وغيرها من آلات الطرب.. وهذا ما نجده عند الاسبان بصفة عامة إلى يومنا هذا.. فالتكوين الموسيقي جزء من التكوين العام للإنسان.. وقد ظهر في تطوان أساتذة متضلعون في الموسيقى الأندلسية.

وسيدي عبد السلام بن ريسون الآنف الذكر كان عالما صوفيا، وفنانا موسيقيا محافظا ومبدعا في الآلات الموسيقية، وطبيبا. وكانت له دالة عندالسلطان، لايردّ له طلب، كما كانت له اتصالات وعلاقات مع السفراء وغيرهم..

وقد أبدع آلات موسيقية كثيرة، وزاد في بعضها، منها :

مُخَمَّسْ النغم، وهذه الآلة كان لايعزف عليها إلا الماهرون من العازفين،

وصفا قاله سيدي احمد المامون البلغيتي عن محسّن النغم الذي صنعه سيدي عبد السلام ابن ريسون :

... فاعجب لمفرد يغنيك عن أمم.

وقد أهدى الحاج العربي بْريشَه بيانو للشريف الريسوني بعد أن عالجه من مرض مستعص. فأدخل على هذا البيانو إضافات جديدة.. وبذلك يكون الريسوني أول عربي أدخل تعديلا على البيانو ليكون مناسبا للموسيقى الأندلسية..

وفيما يرجع للعود، فقد صنع عودا صغيرا من قطعة واحدة محفورة في الخشب ومن وترين، في حجم المزهر.

كما أن هناك أنغاما جديدة أخرى أدخلها في الغناء الأندلسي.. كان سيدي عبد السلام بن ريسون متفتحا، وعاملا على تطوير الموسيقى الأندلسية مع المحافظة على الأصالة.

وبيانو «السيد» (هكذا يعرف في تطوان) مايزال موجودا عند الحاج عبد السلام الصفار.. وقبل وفاة الريسوني ترك وصية يوصي فيها بالمحافظة على مجالس الموسيقى الأندلسية التي كانت تقام برياض الشرفا، كل يوم، ابتداء من صلاة العصر إلى صلاة المغرب، وأوقف على ذلك أموالا للحفاظ على هذا التقليد الموسيقي الرائع.

لن أطيل. فلست أقدم هنا ترجمة «للسيد». فهذا العبقري يستحق دراسة مستفيضة ومتأنية خاصة، فقط أردت التذكير به وبمكانته العلمية والصوفية والفنية.. فقد كان من طراز فريد.

كانت الموسيقى الأندلسية هواية التطوانيين رجالا ونساء، يحفظونها

ويتذوقونها ويترنمون بها ويميلون مع نغماتها.. وتبعا لذلك ظهرت فرق موسيقية أندلسية نسائية.

وربما كانت تطوان المدينة الوحيدة التي انفردت بمثل هذه الفرق. كل العازفات من النساء، يستعملن نفس الآلات التي يعزف عليها الرجال، وتختص رئيسة الفرقة بالعزف على العود.. وكانت بعض رئيسات هذه الفرق متضلعات في علم الموسيقى الأندلسية ويعزفن عن دراية. ومايزال التقليد ساريا، ومايزال في تطوان أجواق نسائية.. ورغم انخفاض المستوى فإنها ما تزال تقاوم من أجل البقاء، والحفاظ على هذا التقليد الجميل..

وحسن الإصغاء، كان شرطا أساسيا تمليه رئيسة الفرقة، وإلا توقف الجوق عن العزف والغناء.. لذلك كان الجميع يصغي بانتباه وتأثر إلى الرّوائع الأندلسية، فيسود الصمت والهدوء والاستغراق، ومن هنا جاء ما يقال عن أفراح تطوان بأنها جدية فوق اللزوم، والحقيقة أن هذه الجدية مبعثها التذوق الرفيع للفن الرفيع..

لا أعلم إن كان لمثل هذه الأجواق مثيل في بلد عربي آخر، باستثناء تونس، فقد قرأت منذ سنوات عن وجود فرقة كل أفرادها من النساء.. فإذا ثبت هذا، فسيكون دليلا على أن التقليد جاء من غرناطة بلد الشعر والموسيقى والجمال..

الحاكوز

ومن العادات الباقية إلى اليوم، عادة الاحتفال بليلة الحاكوز، وتقع في 12 يناير الفلاحي، وكانت تسمى في الأندلس ليلة yannayer وهناك نصوص أدبية إسبانية تشير إليها فعندما تقترب ليلة الحاكوز، تحاول

الأم أن تجعل أبناءها يعتقدون بأن الهدايا التي سيجدونها تحت مخداتهم في تلك الليلة هي هدايا من الحاكوز، المرأة الرمز التي تحب الأطفال الطيبين، وتحتقر الأطفال الشريرين، تأتي ليلا، ومعها عدد كبير من الهدايا والخيط والإبر. فإذا وجدت أن الطفل لم ينم إلا بعد أن تعشى وشبع من الثريد والفواكه، فإنها تترك له الهدايا التي كان يتمنى الحصول عليها. أما إذا كان الطفل كثير البكاء ولا يتحلى بالأخلاق الطيبة، فإن الحاكوز تفتح بطنه وتملأه بالتبن.

والهدايا تقدم للصغار وللكبار معا، حيث يجدونها تحت المخدات، ومن العادة أن يأكل الناس في هذا اليوم بعض المأكولات المكونة من الحبوب المطبوخة في الماء والملح تفاؤلا بالعام الخصب.

وكان من عادة ربات البيوت في هذه الليلة وضع جُمارة في صندوق ملابسهن كفأل حسن لما سيكون لديهن من ملابس تشبه في كثرتها أوراق النخيل.

هذا التقليد ما يزال قائما، ولا يوجد إلا في تطوان، وخاصة ما يتعلق بهدايا الحاكوز، واللافت للنظر أن العائلات العريقة المنحدرة من الموريسكوس هي التي تحافظ على إحياء ليلة الحاكوز بكل طقوسها ومأكولاتها مما يؤكد انتقاله إلينا من الأندلس.

هناك من الباحثين من يقول بأن الحاكوز وجد قبل دخول الاسلام إلى المغرب وأنه تقليد فارسي.. وهذا غير مستبعد، ففي الأندلس أيضا تقاليد من هذا النوع يردون أصولها إلى عصور الوثنية.. ورغم هذا، فإني أميل إلى الرأي الذي يقول بأن أصلها اندلسي، لأن هذا التقليد لايوجد إلا في تطوان، وفقط بين العائلات ذات الأصول الأندلسية.

انه شبيه بما يسمى في اسبانيا Reyes Magos

وفي أوربا ـــــــــــ Papa Noel

وفي أمريكا ـــــــــــ Santa claus

أتساءل: هل للحاكوز علاقة بالتأثير الموريسكي، وهم الذين، أي الموريسكوس، عايشوا واقتدوا في كثير من سلوكاتهم بالنصارى، وشاركوهم الأعياد ؟

في هذا الشأن يقدم العلامة باروخا julio Caro Baroja في كتابه موريسكيو مملكة غرناطة Los Moriscos del reino de Grenada نماذج من النصوص الأدبية التي تشير إلى هذا، وينقل عن البحاثة الكبير بيدأل Menendez Pidal أشعارا، منها:

تمضي أيام وتأتي أيام

كان الاحتفال بمناسبة سان خوان

الذي يحتفل به العرب والنصارى

احتفالات كبرى

ويقول لنا أيضا هذا الرومانثي المتعلق بسقوط Antequera

صباح سان خوان

في الوقت الذي يبزغ فيه النهار

يقيم العرب والنصارى أكبر احتفال

في بقاع غرناطة...

على أيّ حال، فالموضوع يحتاج إلى دراسة مستوفية، تكشف لنا عن حقيقة ليلة الحاكوز وعلاقتها بالعادات الموريسكية.

لبس البياض في الحداد

في الأندلس، وفي اسبانيا بصفة عامة، كان اللّون الأبيض هو لباس الحداد. الإسبانية هنّري بيريز Henry Pérez له دراسة غنية بالإشارات الشعرية التي تظهر اللّون الأبيض كلباس للحداد في الأندلس. ويأتي بأدلة تفيد بأن اللون الأبيض كان أيضا لون الحداد في اراغون وسرقسطة.. ونعلم أن الأمويين في الأندلس اختاروا اللّون الأبيض معارضة للعباسيين الذين كانوا يستعملون اللّون الأسود لراياتهم. كما أن المقّري في كتابه «النفح..» ج 1 ص 104 ط ز. ذكر اللّون الأبيض كلون للحداد في الأندلس. وفي تطوان وغير تطوان تستعمل النّساء اللّون الأبيض في شهور الحداد. أي أثناء مدة العدة.

البخل

وهناك صفات في أهل تطوان جاءت أيضا من الوجود الغرناطي، ومن هذه الصفات : البخل. فأهل تطوان يوصفون بالبخل..

فهل صحيح أن أهل تطوان بخلاء؟ سنحاول أن ننفي هذه الصفة عن أهل تطوان، ولنستمع إلى ما يقوله المقري في كتابه «النفح..» عن أهل الأندلس.

يقول :

«هم أهل احتياط وتدبير في المعاش، وحفظ لما في أيديهم خوف ذل السؤال، فلذلك قد ينسبون للبخل..» ويأتي بحكاية الطفل مع الكساء، رواية عن ابن سعيد الذي يقول بأنه اجتاز مع والده على قرية من قرى غرناطة وقد نال منهما البرد والمطر : «فأوينا إليها ونزلنا في بيت شيخ من أهلها من غير معرفة متقدمة فقال لنا: إن كان عندكم ما أشتري به لكم فحما تسخنون به فإني امضي في حوائجكم، وأجعل عيالي يقومون بشأنكم، فأعطيناه ما اشتري به فحما، فأضرم نارا، فجاء ابن صغير له ليصطلي فضربه، فقال له والدي لم ضربته؟ فقال : يتعلم استغنام الناس والضجر للبرد وهو صغير.. ثم لما جاء النوم قال لابنه أعط هذا الشاب كساءك الغليظة يزيدها على ثيابه، فدفع كساءه إليّ، ثم لما قمنا في الصباح، وجدت الصبي منتبها ويده في الكساء، فقلت ذلك لوالدي، فقال : هذه مروآت أهل الأندلس، وهذا احتياطهم،أعطاك الكساء، وفضلك على نفسه ثم فكر في أنك غريب، لا يعرف هل أنت ثقة أو لص، فلم يطب له منام حتى يأخذ كساءه، خوفا من انفصالك بها وهو نائم..» انتهى.

وما يزال أهل غرناطة إلى اليوم موصوفين بالبخل بين الاسبان، ومايزال أهل تطوان أهل احتياط وتدبير في المعاش كأسلافهم الغرناطيين، ابتداء من الأطفال إلى الشيوخ، رجالا ونساء..!

فهم ليسوا بخلاء، ولكنهم يعرفون قيمة البليون كما يقولون، فلا يبذرونه أبدا. لست أدري إن كنتم تصدقون رواية ابن سعيد..؟ أما أنا فأصدقها تصديقا مطلقا، لأنني عشت ورأيت في تطوان مثيلات لها أو أكثر غرابة وطرافة.

قبل أن أختم حديثي، أريد أن أشير إلى أمر هام شغل ومايزال يشغل الناس منذ نزوح الغرناطيين إلى تطوان، هذا الأمر، هو مدى صحة احتفاظ التطوانيين بمفاتيح منازلهم التي تركوها هناك..

لا أريد أن أناقش هذا الموضوع، فأنا أعتبره رمزا للأمل في العودة إلى الوطن الأصلي قبل أي تفسير آخر..

ثم إنني شخصيا، لا أرى غرابة في أن يحتفظ الغرناطيون بمفاتيح منازلهم في المنفى، فليس هناك من يترك منزله مفتوحا وهو مسافر إلى مكان ما.. إنه عمل تلقائي لا يبعث على الاستغراب.

إلا أن هناك حقيقة مؤكدة وثابتة ومعروفة لدى التطوانيين، وهي احتفاظ بعض الأسر بالألوية والرسوم، ودليلي على ذلك، أنه عندما زار المغفور له محمد الخامس تطوان سنة 1956، قدمت له أم الحسن ابن الأحمر (هذا الرجل ما يزال حيا، وقبل اليوم كان يبيع الصحف في مكتبة بالطرافين) لواء بني الأحمر الذي توارثته العائلة منذ نزوحها إلى تطوان، وكذلك مجموعة من الرسوم المتعلقة بأملاكهم في غرناطة.. وقد أعاد لها الملك العظيم الرسوم، واحتفظ باللواء، ومعروف أن السيد الحسن ابن الأحمر هذا، ينحدر من عائلة بني الأحمر ملوك غرناطة.

وهكذا احتفظ النازحون برسوم أملاكهم وألويتهم ومفاتيح منازلهم.. ولسان حالهم يقول: سنعود يوما مهما طال الزمان..! فالملك لله، والبقاء لله، ولا غالب إلا الله.

* * *

هذه قطرة من بحر أوغيض من فيض.. فما بقي أكثر بكثير مما

ذكرت، وكما يقول المقري، فإن بحر الأندلس طويل مديد.. !

ويبقى الإرث الأكبر الذي ورثته تطوان عن غرناطة، المتجلي في أصالة أهلها، وعلو أخلاقهم، وحسهم الحضاري في السلوك والعادات وتذوق الجمال والفنون، وأسلوب الحياة بصفة عامة.

وتطوان ستبقى دائما معزوفة غرناطية، ونشيد الإنشاد في السّفر الموريسكي.. وستبقى دائما ذلك الخيط المتين الذي يشدنا إلى ذلك الماضي البعيد المُبْهِر، ليذكرنا بالحضارة الغرناطية النصرية المرهفة التي ازدهرت وعاشت والحكم العربي بالأندلس يلفظ أنفاسه الأخيرة..

أرجو أن أكون قد قربت الصورة إليكم، وكشفت عن بعض ذخائر هذه المدينة الغرناطية التي تستحق أن تكون إرثا عالميا..

الهوامش

1) شاعر اسباني ولد باشبيلية سنة 1874 وتوفي في مدريد سنة 1947.

2) شاعر أرجنتيني ولد في Buenos Aires، عاش في المغرب خلال سنة 1935. قارئ كبير للقرآن. له عدة كتب، توفي وعمره 42 سنة.

3) كارلوس الخامس ملك اسبانيا وأمبراطور ألمانيا. في آخر حياته تنازل عن الملك لابنه فليب الثاني، وانعزل في دير yuste (اسبانيا) توفي في 1558/9/21 أنظر: 274 ص .

المصادر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج 1 و 2 تأليف أحمد المقري .

الإحاطة في أخبار غرناطة ج 1 و 2 لسان الدين ابن الخطيب.

وثائق عربية غرناطية ج 1 و 2 Luis Seco de Lucena .

التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 1 و 2 عبد الهادي التازي .

جوائز المغرب للآداب لسنة 1953 .

مجلة «المعتمد» يوليو 1947 . العرائش. ع 5.

- Al Mandari, el Granadino fundador de Tetuán, por Guillermo Gozalbes Busto. La República - Andaluza de Rabat en el Siglo XVII.
- Los Moriscos en Marruecos.
- Las ciudades hispano-musulmanas, por Leopoldo Torres Balbás.
- Los Moriscos del reino de Granada, por Julio Caro Baroja.
- El morisco granadino Alonso del Castillo, por Darío Cabanelas Rodríguez O.F.M.
- Vestido y adorno de la guerra de África, por Pedro Antonio de Alarcón. Fez la Andaluza, por, E. Gómez Carrillo.
- Album de la Alhambra, Granada 1880
- Imágenes de Túnez, por Alfonso de la Serna.
- Obras completas de Federico García Lorca.
- Encuentros literarios, Marruecos, España, Ibero-américa, por Mohammad Chakor
- Cuadernos de la Biblioteca de Tetuán, junio, diciembre. 1980 nº 21, 22.
- Diccionario enciclopédico de la lengua española, Madrid. 1979.

أندلسيو سلا والإنجليز

محمد أبو طالب

بين سنتي 1627 و 1937 عرفت العلاقات المغربية الإنجليزية تحركات مكثفة بين « سلا الجديدة » وتطوان ولندن تميزت بمفاوضات بين مبعوثين إنجليز والأندلسيين والقائد أبي عبد الله محمد العياشي على الخصوص . وتمت أهم تلك المفاوضات بقيادة جون هاريسن John Harrison باسم ملك بلاده جيمس الأول James ثم تشارلز الأول Charles وكانت المواضيع المتفاوض في شأنها :

أ- تسريح الأسرى الإنجليز استجابة لطلبات خاصة من أولئك أنفسهم وذويهم .

ب- ضمان تحرك السفن الإنجليزية في المياه المغربية .

ج- ضبط العلاقات التجارية مع التجار الإنجليز المقيمين في المغرب .

د- تسليم أسلحة للأندلسيين .

هـ- الحصول على موافقة هؤلاء للتحالف مع الإنجليز ضد إسبانيا .

ومما يذكر أن هاريسن قام برحلات متتالية (منها رحلات ماي 1610، ونونبر 1614، ويونيو 1615 و1618) إلى المغرب لمقابلة السلطان مولاي زيدان الذي تركه ينتظر مدة سنتين في آسفي دون استجابة في الزيارة الرابعة . ولم يعد إلا سنة 1625 في نفس المهمة، حيث فتح مفاوضات مباشرة مع أندلسيي تطوان وسلا بعد أن رافقه إليها محمد العباشي .

وأثناء الزيارة الخامسة سنة 1626 حصل هارسن على بعض الوعود من سلا عاد بها إلى بلده ليأتي في رحلة سادسة سنة 1627 بمشروع التفاوض مع جميع الأطراف . كما حمل معه عتاداً مهماً مقابل فك الأسرى . وفي تلك الأثنا، أعلن الأندلسيون عن استقلالهم بعد طرد ممثل السلطان ودخلوا في التفاوض مع المبعوث الإنجليزي الذي تمكن من فكّ عدد من الأسرى . إلاّ أن البرلمان الإنجليزي رفض المصادقة على مشروع اتفاقية كانت قيد الدرس ، رغم حضور مبعوثين سلاويين رافقا هارسن في تلك الرحلة . وكان سبب الرفض اعتبار أهل سلا خارجين عن طاعة السلطات الشرعية في مراكش والتي ما فتئت تنبه لندن إلى ذلك .

وكان هدف الرحلة السابعة في 1627 تلافي عراقل مشروع اتفاقية سنة 1627 مع السلاويين .

وأثناء زيارة هارسن الثامنة والأخيرة سنة 1631 رفض السلطان الوليد استقبال مبعوث الإنجليز بسبب تعاملهم مع الثوار من رعاياه. ولما فشل مشروع اتفاقية جديدة، استأنف الأندلسيون عملية الاستيلاء على البواخر الإنجليزية .

وفي سنة 1636 فوض البرلمان الإنجليزي للضابط إدمند براندشو Edmund Brandshaw مهمة فك الأسرى حيث سلم خطاباً من الملك تشارلز الأول إلى السلطان محمد الشيخ الذي حاول إقناع الأندلسيين بتسريح أسرى سلا. فامتنعوا بدعوى أن اعتداءات الإنجليز لم تتوقف . وبعد أن تبين أن طائفة من الأندلسيين أنفسهم كانت وراء التمرد اتفق العياشي مع المبعوث الجديد الضابط وليام رينبورو William Rainborow للتغلب على تلك الحركة. وذلك إثر محاصرة قصبة سلا من المرسى حيث كان أسطول بقودة هذا الضابط الذي استطاع عتق أزيد من ثلاثمائة أسير . وبعدئذ أبرمت اتفاقية بين الجانبين في ماي 1637 . كما أبرمت اتفاقية مماثلة في خريف تلك السنة مع السلطان محمد الشيخ الذي عفا عن مدبر حركة التمرد بعد أن مثل بين يديه ثم أمره بالعودة إلى سلا رفقة مبعوث إنجليزي آخر روبرت بليك Robert Blake قصد استتباب الأمن بقلعة سلا . وفي نهاية تلك السنة عُيِّن كايلز پين Giles Penn قنصلاً لرعاية مصالح الجالية الإنجليزية في سلا وتطوان .

وخلال العقدين المواليين تفاحشت الأوضاع وسط الأندلسيين الذين اغتنموا فرصة قيام الحرب الأهلية في إنجلترا للشروع ثانية في حجز السفن وأسر ركابها . وبعد إعدام بليك المذكور لتورطه في محاربة الملك تشارلز، قدم روبرت بليك Robert Blake آخر إلى سلا على رأس أسطول للضغط على الأندلسيين. خاصة بعد الحصول على مساعدة قيادة تطوان . وبعد وفاة محمد العياشي .

إلى جانب هذه التحركات كانت هناك جماعة كبيرة من القراصنة الإنجليز في ميناء المعمورة (أي المهدية) بقيادة هنري مينوبرينغ Henry Mainwaring.

وهذا نص الاتفاقية :

النص الإنجليزي

May 5, 1637 Treaty

Articles of Peace, Accorded and Agreed upon, between the High and Mighty Prince, CHARLES by the grace of God, King of Great Brittaine, France and Ireland, and the Right Excellent and Renowned Lord Siddie Hamet Laishi. His Majesties of Great Brittaines Forces, besiegeing New Salley by Sea, and the Lord Saint Siddie Hamet Laishi by land.

1. In primis, that the ancient friendship that doth appeare in two letters, the one dated the second, and the other in the third yeare of the raigne of His Majestie of Great Brittaine, to the Lord Saint Sidde Hamet Laishi, be renewed and continued for ever. To that end these articles are this day and yeare concluded by both their deputies:

2. That the subjects of both parties shall have free trade, and enter into any of the ports of the other, in the way of merchandise, and there to buy and sell their commodities as freely as their proper subjects; and for their mony to bee supplied with victuals, water, or other materials that they shall want, but being ships of warre, they are not to bee allowed to make use of any of their ports or harbours.

3. It is covenanted on the partie of His Majesty of Great Brittaine: that the forces hee hath in Sally Roade, shall to the utmost of their power, keepe

5. Upon the partie of the Right Excellent Saint, it is covenanted: that all the captives that be His Majesties subjects within his dominions shall be freely set at liberty, and that he suffer none hereafter to bee made captives.

6. That the Right Excellent Saint shall not make peace with them of New Salley, without the consent of His Majesty of Great Brittaines deputy, and that if the towne of New Salley be taken by the Right Excellent Saint, he shall render freely to His Majesty of Great Brittaines deputy all the captives that be His Majesties subj ects .

7. If he make a peace with them of New Salley, that he cause them before the peace be confirmed, to deliver to His Majesties deputy all the captives that they now have, and so enter pledge to fetch them backe that are sold by them to Argere and Tunnis, or else to deliver to His Majesties deputy so much money as will redeeme them.

8. If any ship or vessell of merchandise by misfortune be cast away upon either of either of their coasts, that the people shall bee intreated as friends, and whatsoever can bee saved of their ship or goods shall freely remaine to them, the labour of them that helpe to save being payed, and to suffer them to carry away or sell what shall be saved.

9. And it shall be lawfull for the subjects of either partie to transport all sorts of merchandise that hath beene before usually transported from one dominion to the other, without any let or disturbance .

Signed aboard of His Majesties ship the Leopard, Admirall in Sally Roade, this 5 of May 1637

Captain William Rainsborough

Captain of the Leopard and

General of the South Squadron of the Sally Fleet

المراجع

أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ، «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى».
الجزء السادس ، الدار البيضاء ، دار الكتاب ، 1955.
ب. ج. رودجرز ، «تاريخ العلاقات الإنجليزية المغربية إلى 1900» ، لندن. بدون

The Anglo-Moroccan Relations to 1900.

الفصل الثالث ، صص ، 21-41.
دجون دونتن ، مذكرات حقيقية لأسطول سلا . A True Journal Of the Sally Fleet
لندن ، 1637 . إعادة الطبع : هولاندا ، 1970.



Publications
de l'Académie du Royaume du Maroc

ACADÉMIA

Revue de l'Académie du Royaume du Maroc

Numéro spécial consacré
à l'exode des Morisques vers le Maroc

N°15